A N D R É   C L O T

دراسات تاريخ

اندريه كلو

هارون الرشيد ولعبة الأمَم

ترجمة

د. صادق عبد المطلب الموسوي





هارون الرشيد
ولعبة الأمَم

هارون الرشيد ولعبة الأمم / دراسات – تاريخ
اندريه كلو / مؤلف من فرنسا
ترجمة: د. صادق الموسوي/ من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
فؤاد سليمان وهبي
لوحة الغلاف الأماميّ
معالجة بالحاسوب
الصفّ الضوئيّ :
المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
التنفيذ الطباعيّ :
رشادبرس / بيروت – لبنان

هذه هي الترجمة العربية لكتاب:
Haroun Al-Rachid et le Temps des Mille et une Nuits
عن دار Fayard (1986) فرنسا

ISBN 9953-36-691-8

اندريه كلو

هارون الرشيد ولعبة الأمم

ترجمة

د. صادق عبد المطلب الموسوي

مراجعة

عبد عون الروضان





الإهداء من المؤلف إلى المترجم
إلى السيد صادق عزيز
كُتب هذا الكتاب إلى مجد الحضارة العربية
وإنجازاتها الكبرى وإلى عظمائها

توقيع اندريه كلو

المقدمة

أندريه كلو ، مؤلف هذا الكتاب ، مؤرخ فرنسي مشهور أمضى سنين طويلة في البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط . وقد نشر في عام ١٩٨٣ كتابه عن سليمان القانوني . أما سبب اختياره ، هذه المرة ، الرشيد ، موضوعاً لكتابه ، فإنه يبينه في السطور التالية : «قد يسمح لي المؤرخون العرب أن أنقل الصورة الحقيقية عن هارون الرشيد ، ليس فقط عن الترف والجواري والموسيقى وإنما محاولة معرفة المبادئ والخطوط العريضة التي خطها وانتهجها الرشيد في مراحل سياسته . وإذا كان الغرب لا يعرف عن الرشيد سوى الهدايا التي أرسلها إلى شارلمان ، وخاصة الفيل المشهور ، أبو العباس ، فان الرشيد كان قبل كل شيء مقاتلاً ، شن الحرب ضد البيزنطيين وكان عليه أن يجابه ، ولعدة مرات ، الحركات الدينية التي هزت إمبراطوريته المترامية الأطراف . ولم يتردد الرشيد في أن ينزل العقاب على البرامكة ، العائلة المتنفذة التي كادت أن تخلق دولة داخل دولة ، ولم يكن الرشيد يطيق تحمل نفوذها وثروتها في أواخر أيامها . كما أن الرشيد المدافع عن المثقفين قد أطلق العنان للازدهار الثقافي في بغداد التي كانت آنذاك اكبر مدن العالم ، وقد عرفت العاصمة العباسية تقدماً اقتصادياً لم يسبق له مثيل . وقد ذاع صيته في كل أرجاء المعمورة ليس من خلال المؤرخين والكتاب فقط وإنما من خلال الرحالة والتجار» .

هذه هي الأسباب التي دفعت المؤلف لإعداد هذا الكتاب . أما الأسباب التي دفعت المترجم -كاتب هذه السطور- لاختيار هذا الكتاب للترجمة فهو أنني من خلال قراءتي له وجدت فيه ، فعلاً ، معلومات جديدة عن هذا القائد العربي خاصة في تعامله مع القضايا المصيرية الحساسة ، فقد كان حازما أبيّ النفس بالإضافة إلى الكرم والشجاعة ، وليس الانغماس في الترف والمجون فقط كما يزعم بعض الكتّاب . وقد وجدت فيه معلومات تفيد القارئ العربي وتجعله يفخر بتاريخه وبقادته خاصة في هذه الفترة العصيبة التي تمر بها الأمة العربية ، وخاصة بلدي العراق الذي يعاني من الظلم والعدوان .

أرجو من العلي القدير أن أكون قد وفقت في عملي هذا ، خدمة للحقيقة والتأريخ ، وعذرا لكل من قد لايتفق مع بعض ما ورد في هذا الكتاب ، فإنما هي

وجهات نظر قابلة للأخذ والرد من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالمترجم غير مسؤول عما يترجم من وجهات نظر علمية أو تأريخية قد لا يتفق معها الآخرون .

المترجم

الفصل الأول

فـرســان الله

الدولة العباسية

في الثاني من شهر أيلول عام ٧٤٩م أُعلن أبو العباس السفاح في الكوفة أميراً للمؤمنين وخليفة للمسلمين . وبهذا الإعلان انتهى عصر الأمويين في الشام ليبدأ حكم العباسيين .

يصف المؤرخ الغربي برنارد لويس (B. Lewis) هذا الحدث قائلاً : «كان هذا التغيير بمثابة ثورة في تأريخ الإسلام ، كان تحولاً حاسماً يشبه إلى حد كبير الثورة الفرنسية أو ثورة أكتوبر في التاريخ الغربي» .

لم يدم حكم السفاح طويلاً إذ توفي عام ٧٥٤ م وخلفه أخوه أبو جعفر الملقب بالمنصور ، الذي يُعد من مؤسسي الدولة العباسية . وقد تميز المنصور بالذكاء والصلابة والشدة والقسوة في العمل ، وكان بخيلاً صعب المراس . تسلم السلطة وهو في نحو الأربعين من عمره . كان يميل إلى اللهو والتسلية رغم أنه يستيقظ صباحاً باكراً ليعمل بجد حتى صلاة العشاء متمتعاً بوقت راحة قصير . وكان يتخذ كل القرارات بنفسه حتى البسيطة التي تخص الصرف ، من هنا صار يعرف «بالدوانيقي» . . وسُر كثيراً عندما سمع بهذا اللقب وافتخر به قائلاً : «من لا مال له لا رجال له ومن لا رجال له ازدادت قوة أعدائه» . وقد تجلت صلابة المنصور في السنوات الخمس الأول من حكمه ، فقد عرف بقوة الشخصية وهذا ما تأكد للناس فور تسلمه السلطة ، إذ وطد أركان الإمبراطورية العباسية وأسس دولة قوية على مدى إحدى وعشرين سنة قضاها في الحكم .

حين تمرد عليه عمه عبد الله بن علي الذي كان يعتمد ويستند إلى القوات السورية (أهل الشام) المتعضة والغاضبة جراء إهمال العباسيين لدمشق لمصلحة العراق ، سحق المنصور تمرده بلا رحمة ، وقد خيبت هزيمة عبد الله آخر الآمال في أن تصبح دمشق مرة أخرى عاصمة للإمبراطورية العباسية . .

المنصور كان يتفهم تطلعات القادة السوريين(أهل الشام) فاغتنم هزيمة عبد الله بن علي ليقلص حجم الأزمة مع السوريين (أهل الشام) . ومن هنا فإنه لم يعاقب أيّا من هؤلاء القادة الذين ساعدوا تمرد عمه عليه . . . بل على العكس فإنه كرّم بعضهم وعينهم في مناصب عالية وأناط بهم قيادة الجيش السوري (الشامي)في حماية الحدود بوجه الخطر البيزنطي . وبهذا ضرب عصفورين بحجر واحد ، فقد ضمن أمن أكبر الأقاليم في إمبراطوريته في ذات الوقت مثلما خلق قوة توازن مع الخراسانيين

الذين كانوا يشكلون خطراً على الإمبراطورية في المدى البعيد .

اتسمت الدولة العباسية بمركزية السلطة ، فالمنصور كان يعين الولاة بنفسه ولم يكن يغفل عن شيء ، وقد أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين العرب وغير العرب من بينهم خالد البرمكي الذي أنيطت به الأمور المالية . ويعد أبو جعفر المنصور مؤسسا للإمبراطورية العباسية ودخل التاريخ من أوسع أبوابه ببنائه مدينة بغداد .

العباسيون يختارون عاصمتهم في العراق

من المعروف أن العباسيين قبل أن يتسلموا السلطة كانوا قد عزموا على بناء عاصمتهم في العراق ، هذا الإقليم الذي عرف بعدائه للأمويين وولائه لعترة الرسول ﷺ والذي هو من أغنى أقاليم الدولة الأموية ، وكان يدر الأموال بالملايين على خزينة الدولة في دمشق من جباية الضرائب . . ولعل الكوفة قد لعبت دوراً كبيراً في تأريخ الإسلام ، ففيها اغتيل الإمام علي ﷺ وفيها اندلعت ثورة العباسيين ، ومن مسجدها أعلن أبو العباس السفاح خليفة للمسلمين . في هذه المنطقة بالقرب من الكوفة اختار أبو العباس السفاح إحدى القرى لتكون مقراً للخلافة العباسية ، حيث أقام فيها مجمعاً من الأبنية وأطلق على تلك القرية اسم الهاشمية Al-Hashimiyah . وبعد مدة قصيرة انتقل مقر الخلافة إلى الأنبار الواقعة على نهر الفرات . . وعندما تسلم المنصور الخلافة بقي في الأنبار مدة ثم عاد ليسكن الهاشمية لأسباب غير معروفة . فقد اكتشف المنصور مساوئ الهاشمية كمدينة يصعب الدفاع عنها لأنها منبسطة وغير محصنة ، ثم إن سكان المدينة يتميزون بطباع خاصة غير مستقرة ، لذلك شرع المنصور في البحث عن موقع آخر لبناء عاصمة جديدة ، فاستقر به الحال عند الشاطئ الغربي من دجلة . . .

أسباب اختيار بغداد عاصمة للخلافة العباسية

بعد استطلاع الموقع الجديد ومسحه اكتشف الخليفة المنصور الميزات الآتية لهذه المنطقة :

١ . أن النهر يستحيل عبوره من جهة الشرق خوضاً .

٢ . في جنوبي الموقع تمتد شبكة من القنوات تكون دفاعات طبيعية للعاصمة المزمع بناؤها ، وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون طرق إمدادات لها .

٣ . عذوبة المناخ وخصوبة شاطئ النهر وندرة البعوض .

بغداد مدينة السلام

وبعد أن اطمأن المنصور على سلامة الموقع خط بنفسه خريطة لمدينة دائرية ، ثم خطت على أرض الموقع لتكون عما قريب مدينته الجديدة . . هذه المدينة المدورة التي أصبحت فيما بعد بغداد حملت اسم مدينة السلام . . وعندما سُئل الخليفة المنصور عن سبب اختياره الشكل الدائري لمدينة بغداد أجاب :- إن ذلك يسهل الدفاع عنها ، وهذا النوع من المدن تنعدم فيها الزوايا الميتة فضلاً عن أن كلفة بناء السور المدور أقل من كلفة السور المربع أو المستطيل للمساحة نفسها . . اتخذ الخليفة قراراً ببناء المدينة فوراً ، وعند ذاك أسند المهمة للمعماريين والمهندسين والصناع من الشام وإيران والموصل والكوفة والبصرة . وقد بلغ مجموع هؤلاء مئة ألف شخص ، استطاعوا أن ينهوا بناء المدينة كاملة بعد أربع سنوات أي في عام ٧٦٢ م . اعتمد بناء مدينة بغداد على الطابوق المفخور والقصب وعلى نحو خاص في الأقواس والقباب ، وقد بني سور بغداد من جدارين يفصل بينهما خندق عرضه ٣٠ متراً وعرض الجدار الواحد ٥ أمتار ، وارتفاعه ١٣ متراً ، وطوله أكثر من ٢,٥ كيلو متر . . أمر المنصور ببناء قصره والسور والمسجد في مركز المدينة وترك السكن يمتد بين السورين على مقربة من قصره . . .

قصر المنصور

كان قصر المنصور أو قصر الباب الذهبي على شكل مربع طول ضلعه كيلو متران ، وكان «الإيوان» (Iwan) قاعة كبرى مفتوحة من جهة واحدة تعلوها قبة ، وهناك في الطبقة العلوية إيوان آخر يشبه الأول تعلوه قبة كبيرة خضراء . في هذين الإيوانين القاعتين كان الخليفة يستقبل ملوك وأمراء الشرق وبيزنطة ، ولم يرتبط بالقصر سوى المسجد . أما المنشآت الأخرى الخاصة بإدارة القصر وسكن أولاد الخليفة والموظفين فكانت تفصلهما ساحة كبيرة عن قصر الخليفة .

يحيط بهذا القصر(«المدينة») شارعان دائريان يحددان مناطق الحماية والأمن ، وهذان الشارعان يتقاطعان مع أربعة شوارع عريضة متصلة بأربعة أبواب تؤدي إلى قصر الخليفة والجامع . أما سكن المقربين من الخليفة فكان يقع بين السورين ومقسماً إلى أربعة مستويات ، أو حسبما يقول «اليعقوبي» (Yakubi) كان مخصصاً لكبار

الضباط والمقربين من الخليفة والشخصيات المهمة في الدولة ، إذ يسهل على الخليفة استدعاؤهم سريعاً في الحالات المستعجلة . خصصت الأواوين الصغيرة داخل السورين لدكاكين الباعة والمتاجر الصغيرة . .

ذات يوم كان الخليفة يستقبل السفير البيزنطي ، وفي هذه الاثناء حدث هرج ومرج وضجيج وصل إلى أسماع الخليفة . . عندما استفسر عن السبب قالوا له : إن بقرة هربت من القصاب وأحدثت هذا الضجيج . هنا تدخل السفير قائلاً للخليفة : ((يا أمير المؤمنين لقد شيدت هذا الصرح الذي لا مثيل له في التأريخ ، ولكن للأسف تفسده ثلاثة عيوب : الأول قلة الماء والثاني ندرة الرياض والثالث والمهم إسكان الرعية معك في القصر . وعندما تكون الرعية مع الحاكم في القصر لا يبقى سر)) . لم ترق للخليفة ملاحظات هذا السفير فأجاب بامتعاض : ((أما فيما يخص الماء فلدينا من الماء الكثير للشرب ، وبالنسبة إلى الرياض والحدائق فإننا لم نخلق للهو والعبث ، وما يتعلق بالأسرار فليس هناك سر لا تستطيع عيني معرفته)) . وعلى الرغم من أن الخليفة لم يكترث لكلام السفير فإنه ترك أثراً مهماً في نفس الخليفة ، ولم يمض وقت طويل حتى أمر بشق مسالك جديدة للمياه . وهناك حادثة أخرى دفعت المنصور إلى أن يعيد النظر في نظامه الأمني ، إذ قاد مدير الشرطة آنذاك المدعو «المنتسب» (Muntesib) جماعة من أنصاره في محاولة للقيام بانتفاضة داخل المدينة «القصر» . وقد ألقي القبض عليه وأعدم وعلقت جثته أمام إحدى بوابات القصر . . بعد هذا الحادث أمر المنصور بنقل السوق إلى خارج الأسوار أي إلى «الكرخ» مما اضطره إلى بناء جامع آخر خارج المدينة المدورة ليخفف الزحام عن ذلك الجامع الذي يقع بجانب القصر . . وبعد مدة قرر الخليفة ترك القصر والإقامة في قصر الخلد الذي يقع في الجانب الآخر من دجلة على الضفة الشرقية ، وقد شيدّ في الوقت نفسه قصراً لولده وولي عهده محمد المهدي والد هارون الرشيد .

لقد كتب القدر للخليفة المنصور أن يمضي أيامه الأخيرة بأمن وسلام . . قضى على الأعداء في الداخل فئة بعد أخرى ، وعلى الحدود مع القفقاس دحر الخزر الذين كانوا قد استولوا على «تيفليس» (Tiflis) وفي آسيا استتب الوضع له بعد اندلاع الاضطرابات إبان الثورة العباسية ، وفي مصر اعترف أهلها بسلطة العباسيين التي امتدت حينذاك إلى الغرب حتى مدينة «القيروان» (Kairouan) . أما بالنسبة إلى إسبانيا فقد عدت في عداد المقاطعات المفقودة وليس لها أي علاقة بالإمبراطورية عدا

تبادل السلع والتجارة . .

وفاة المنصور

في السابع من تشرين الأول عام ٧٧٥ م توفي المنصور في «بئر ميمون» (Bir Mayam) بالقرب من مكة بعد تأديته مناسك الحج ، وقد دفن في رمال الصحراء وسط مراسيم كبيرة بحضور أهم أفراد العائلة العباسية . .

في ذلك الوقت كان ولده ولي العهد المهدي في بغداد ، وعلى وفق التقاليد فان «الربيع بن يونس» (Rabi-al-unus) الحاجب الكبير احتفظ بالخبر سراً إلى أن يستطيع المهدي مسك زمام الأمور . .

الخليفة المهدي.. كرم وتسامح

كان المهدي على خلاف أبيه في كل الصفات . . ويروي لنا المؤرخ الطبري صورة رائعة عن المهدي : عظيم الكرم ، متناه في الطيبة ومتسامح مع أخطر المذنبين . . لم يبلغ عدله ورحمته وتقواه وعفته وجماله أي خليفة عباسي . ويقول المؤرخون إن المنصور قبل سفره الأخير إلى الحج أوصى ولده بالنصيحة الآتية . .

((إن الرجل العاقل ليس ذلك الذي يستطيع الخروج من المأزق وإنما ذلك الذي يتوقع الأزمة فيتداركها)) ، ((يا بني انتبه إلى أموالك ، ستكون عظيماً ومنتصراً ما بقيت خزينتك مملوءة)) وأخيراً ((لا تدع النساء يتدخلن في السياسة ، ولكن أشك في أنك ستتبع هذه النصيحة)) .

لقد كان الخليفة الصارم يعرف طباع ولده ، فالأموال التي جمعها أمير المؤمنين فلساً فلساً أنفقها ولده بكلتا يديه . . المهدي ذلك الشاب الوسيم البهي الطلعة ، ذو الوجه الأسمر العريض والشعر الجعد الأسود كان محبوباً من النساء ويحب النساء . . في عهده بالذات مارست المرأة لأول مرة سلطة خارقة بلغت بعض الأحيان أن تسلبها من الخليفة نفسه . .

ولد المهدي عام ٧٤٥ م وقد أمضى طفولته في الشام وجاء إلى الكوفة بعد نجاح الثورة العباسية . . وأنيطت به عمليات عسكرية في خراسان وهو في الخامسة عشرة . وبعد فترة قصيرة ولاه أبوه خراسان . . هذا الإقليم الكبير والمهم من الإمبراطورية وأكبر مدنه الري (RAY) ، أمضى فيها عدة سنوات وشيد معظم معالمها وحملت فيما بعد

اسمه «المحمدية» .

في الري ولد العديد من أطفال المهدي من بينهم «العباسة» (Abbassa) من جارية اسمها «رحمة» (Rahima) والعباسة ستتدخل فيما بعد في الأحداث المأساوية لبني العباس . ومن بين النساء اللواتي سيلعبن دوراً مهما في تاريخ بني العباس «الخيزران» (Khaizuran) تلك الجارية التي أهداها أبوه له في يوم من الأيام ، وكانت آنذاك ممشوقة القوام كغصن البان ، من أصل يماني ، وقد اشتراها أبوه من مكة .

لقد قال المنصور وهو يهدي هذه الفتاة «اصطحبوها» إلى ولدي وقولوا له «إنها خلقت من أجل أن تنجب الأطفال .» ولم يخب ظن المنصور بها ، فقد كانت الخيزران امرأة مثقفة تمتاز بذكاء حاد مكنها من العيش وسط البلاط إذ استطاعت سريعاً أن تجد طريقها إلى قلب الأمير الشاب .

أنجبت الخيزران ثلاثة أولاد . . الأول «موسى» ومن المحتمل أن يكون قد ولد عام ٧٦٤م والثاني «هارون» ويكبره موسى بسنتين ، أما الثالث فهو «عيسى» الذي لم يعرف عنه الكثير . . .

الخيزران تفرض وجودها

كانت آمال الخيزران بعيدة ، وساعدها على ذلك كما قلنا ذكاؤها وطموحها ، وما أن استمكنت من وجودها في القصر وتعاظم شأنها حتى أعلنت فجأة وجود عائلتها المختفية ، فاستقدمت شقيقاتها ، وكان من بينهن فتاة لا تقل جمالاً عن الخيزران اسمها صلصال (Salsal) وهي كبرى شقيقاتها . وبعد فترة من وصولها إلى القصر أخذت صلصال تغري الأمير جعفر أحد إخوة المهدي من والده ، فتزوجها وأنجبت له ولداً وبنتاً أطلق عليها جدها المنصور «زبيدة» (Zubayda) مختصر «زبدة» . . كبرت البنت سريعاً وأصبحت فتاة جميلة ، فوقع في غرامها ابن عمها سمو الأمير هارون الرشيد فتزوجها . ومن هنا تبدأ قصة ألف ليلة وليلة ، لتخلد عصر هارون الرشيد .

كان الخليفة المهدي عاطفياً فهو لا يتعب من الحب ، وجواريه كثر لا يعددن ولا يحصين ، غارقاً إلى أذنيه في الترف العباسي . من بين الجواري شابة اسمها «شكلة» (Chiklah) إحدى الوصيفات السابقات لأمير «الديلم» (Daylam) على الضفة الجنوبية من «بحر الخزر» (Casipienne) هذه الوصيفة الشابة كان قد استولى

عليها مع حريم هذا الأمير إثر إحدى المعارك .

كانت شكلة فتاة لطيفة ذكية وموسيقية ماهرة ، أنجبت للمهدي ولداً سمي إبراهيم وأصبح موسيقياً فيما بعد ثم شاعراً ومغنياً مشهوراً إلى أن انتهى به الأمر إلى الخلافة أياماً ثم انقطعت أخباره . . وأنجبت بنتاً أيضاً كتب لها القدر أن يكون لها شأن عظيم لجمالها وكرم أخلاقها وموهبتها . . ومن بين أشهر جواري المهدي «مأمونة» (Mamuna) ذات القد الممشوق والصدر العريض ، وكان المهدي قد اشتراها نقداً وعداً من أبيها بمبلغ كبير آنذاك هو مئة ألف درهم ، هذه الجارية بلغت من الجمال درجة أثارت غيظ الخيزران فقالت شاكية : «لم تعان امرأة في العالم الغيرة كما عانيت مع المهدي» . وذلك لأن جواري المهدي كثيرات ، نذكر من بينهن (حسنة Hasnah ، حلة Hullah ، نالكه Nalkha) وغيرهن ، ومع ذلك فقد أصبحت الخيزران الزوجة الشرعية للخليفة ، ربما كان ذلك في عام ٧٧٥ م لأنها تفوقت بكثير على غريماتها من حيث الجمال ، وخفة الدم ، كانت سيدة اجتماعية تتكيف مع كل الظروف ، واستطاعت أن تفرض تأثيرها شيئاً فشيئاً على المهدي ثم على أمور الدولة .

نحن الآن في الربع الاخير من القرن الثامن الميلادي والإمبراطورية العباسية تزدهر بعاصمتها الجديدة بغداد . . يعمها الفرح والترف بوجود الخليفة الكريم والسخي محمد المهدي . . والمهدي بعكس والده ، إنسان مهادن متسامح ، لا يحب العنف معتمداً أسلوب الحوار والمفاوضات في حل المشاكل والصراعات وخاصة مع أعدائه . . ولما كبرت الفجوة بين العباسيين والعلويين وأصبحت مسألة وجود أو عدم وجود ، اضطر المهدي إلى تغيير سياسته ومواجهة الأخطار التي تحدق به وبالإمبراطورية ، فاختط سياسة الشدة وبدأ يقمع كل الفئات المعارضة . .

والحق ، بدأ القمع عام ٧٨٢ م وتزامن مع مجابهة أنصار «المقنع» (Al-Muqanna) وهو فارسي ملثم كان يطالب بدم أبي مسلم الخراساني ومجابهة المحمرة (Al-Muhammira) في منطقة الخزر وهم من أنصار الأمويين . وهكذا أخذ العباسيون يواجهون الأعداء والمتربصين بالحكم حتى من داخل القيادة حيث برزت التكتلات والصراعات التي كادت تودي بالإمبراطورية إلى الدمار . .

بداية التدخل الأجنبي في شؤون الدولة العباسية

من بين العناصر الأجنبية التي تدخلت في شؤون الدولة العباسية (الفرس)

بالدرجة الأولى وقد تسربوا إلى الحكم من خلال عائلة متنفذة وقوية هم البرامكة .

من هم البرامكة...؟

يقول الراهب الصيني هويانك ـ تسانك[١] «Huang-Tsang» من المحتمل أن البرامكة من أصل بوذي ، إذ كان شيوخهم من كبار كهنة المعبد البوذي في بلخ «Balkh» ، فقد كان يسكن في هذه المدينة نحو ثلاثة الآف كاهن في القرن السابع الميلادي . وفي الحقيقة أن «البرامكة»[٢] (Barmaks) كانوا يحتلون منذ العصور الغابرة موقعاً مهماً في بختريان (Bactriane) فهم اعتنقوا الإسلام في السنين الأخيرة من العصر الأموي وانضموا إلى الثورة العباسية . وقد اشتهر من بينهم «خالد البرمكي» (Khalid) الذي لعب دوراً مهما في حكم بني العباس . أخذ نفوذ البرامكة يتعاظم مع مرور الزمن إلى أن فاجأتهم النكسة ثم السقوط وكانوا محور أحاديث الناس مدة طويلة لكثرة القصص التي نسجت عنهم .

تبدأ قصة البرامكة مع خالد الذي أورث مواهبه وقدراته أولاده ، ويروي «المسعودي» عنه : كان يمتاز بالحكمة والدهاء والنشاط إضافة إلى علمه الغزير وشخصيته الفذة . أما المؤرخ «اليزدي» فيصفه على النحو الآتي : إنسان حدي متزمت في رأيه وحاذق ، كان يغدق بسخاء على رجال العلم والأدب وبخاصة الشعراء ، ويروى عنه انه أعطى شاعراً عشرة آلاف درهم لمدحه إياه . .

اعتمد البرامكة في نشاطهم على السكرتيرات (الفارسيات) في محاولة لكسب رضا الخليفة وإعجابه . وهؤلاء البرامكة الذين ورثوا الترف والنعيم من الإمبراطورية الساسانية ، نقلوا إلى الإدارة العباسية بيروقراطية فخمة كونت فيما بعد قوة استطاعت أن تضفي الصبغة (الفارسية) على الحكومات العباسية .

بدأ فريق السكرتارية هذا يختلط مع العناصر الأجنبية الأخرى التي اعتنقت الإسلام «الموالي» (Mawali) ، وبدأوا يشاركون في إدارة البلاد مع القيادة العباسية .

---

(١) Huang-Tsang : راهب صيني زار الهند لدراسة كتب البوذيين المقدسة ، وقد ورد كما يبدو اسم عائلة البرامكة فيها .

(٢) يقول نظام الملك وزير السلطان السلجوقي ملك شاه في (القرن الحادي عشر) إن البرامكة هم عائلة وزراء أب عن جد لملوك فارس ، والحقيقة أن اسم (برمك) هو بالأصل رتبة عليا في المعبد البوذي .

مع مضي الوقت استطاع العديد منهم الوصول إلى مركز القيادة ، فقد عين بعضهم ولاة للأقاليم المهمة وعدد آخر في مناصب عليا كالبريد على سبيل المثال ، أي ما يعادل رئيس مخابرات . ومن أجل أن لا يفقد الخليفة سلطانه كرئيس للحكومة ولكي لا يفلت منه زمام الأمر ، عين في كل وزارة مفتشاً يرتبط به مباشرة ، يهتم على نحو خاص بشؤون الضرائب والرقابة المالية ، وقد فصل الشؤون الإدارية عن العسكرية . أما المخلصون للنظام من الأبناء الذين يكونون جيش خراسان الظهير القوي للعباسيين فكانوا يشكلون الخط الثالث للحماية . . كان هذا الجيش يعسكر في بغداد ويتمتع أفراده بالامتيازات الخاصة وهو جاهز للدفاع عن النظام ضد أي خطر في الداخل والخارج ، ومخول بضرب أي محاولة تهدد النظام بما في ذلك الموالي أو فريق السكرتارية . . . ومع ذلك فإن هذا الصراع أو التوتر بين المدنيين والعسكريين من جهة وبين الفئات المدنية المتصارعة من جهة أخرى أدى بالنتيجة إلى مجابهات عرضت الإمبراطورية بعد ثلاثين سنة لعواقب لا تحمد عقباها . وبعد عشر سنوات من الحكم ، استطاع الخليفة المهدي أن يتنفس الصعداء إذ استتب له الأمن والسلام في ربوع الإمبراطورية ، وبخاصة بعد أن لقن الأعداء البيزنطنيين درساً لا ينسونه .

بلغ المهدي الثالثة والخمسين ، ومن المحتمل أن حياة طويلة من اللهو والنعيم والسعادة كانت أمامه خصوصاً أنه يعشق النساء . هذا إذا استثنينا القدر ، إلا أن المنية عاجلته عندما كان في زيارة لمدينة «جرجان» (Gurgan) في خراسان حيث يقيم ابنه الهادي ، وحسب ما يروون أنه قتل في أثناء مطاردته غزالة وهو على فرسه ، فاصطدمت جبهته بقوة بإطار باب منخفض عندما كان يهم بالدخول في الزريبة التي كانت تلجأ اليها الغزالة . ويقول آخرون إنه مات مسموماً بالخطأ ، سمته وصيفته المفضلة حسنة ، إذ إنها على ما يقال دست السم الزعاف في كمثرى لتقتل بها ضرتها ، دخلت حسنة تحمل طبق الكمثرى وكان الخليفة جالساً على مقربة من الضحية المستهدفة ، فتناول بالخطأ الكمثرى ومات مسموماً .

الخليفة الهادي

انتهت إجراءات الخلافة بلا ضجيج ومشكلات ، إذ كان المهدي قد أوصى لابنه الهادي بالخلافة أولاً ولهارون من بعده ، وهما من زوجته الخيزران . ولما كانت الإمبراطورية واسعة الأرجاء تقاسم الأخوان المسؤولية ، فتسلم الهادي شرق

الإمبراطورية وهارون غربها وأرمينيا . . ولنعد الآن إلى قرار الخليفة المهدي ، فالحق أنه كان يريد أن يكون هارون هو الخليفة الأول ، ومن أجل أن يقنع الهادي بالتنازل لأخيه هارون سافر إلى جرجان حتى يقال إن الهادي كان يعلم بما سيحدث لأبيه . . وعلى أي حال ، مات المهدي واستعد الهادي للسفر إلى بغداد لتسلم السلطة وقد وصلها بعد عشرين يوماً . في هذه الفترة أي غياب الهادي ، منح هارون قوات بغداد راتب ثمانية عشر شهراً بالمناسبة باسم أخيه الهادي هدية فبايعوه وعاهدوه ، وبخاصة كبار ضباط الجيش والشخصيات المهمة في البلاد . . وعند تسلم الهادي صولجان الحكم أصدر أمراً بترفيع الربيع بن يونس (Rabi Al-uns) من درجة حاجب إلى وزير مع الاحتفاظ بمنصب المستشار الخاص للخليفة . .

يطلق على الهادي لقب ذي الفم المفتوح ، لأن شفتيه كانتا قصيرتين ، ويتميز بعصبية المزاج وروح انتقامية بلا تردد . كان قاسياً ، فظ الطباع وصعب المراس . وهو أول خليفة يأمر حرسه بالتأهب الدائم ، فسيوفهم مشرعة والرماح على أكتافهم والنبال في أقواسها ، كما يروي لنا المسعودي . . وعلى الرغم من قصر الفترة التي حكم فيها فإن شهرته بالفظاظة والقسوة ، انتشرت في كل أطراف الإمبراطورية فأثارت مخاوف أمه وأخيه هارون .

ساد خلافة الهادي في بداية ولايته نوع من الهدوء والاستقرار ، ولم يعكر صفو العلاقات العائلية أي مشكلة خطيرة . . . فأمه الخيزران احتفظت بامتيازاتها التي كانت تتمتع بها في عهد زوجها المهدي ، وكانت محط تقدير ابنها الخليفة ورعايته واحترامه ، كان الهادي الذي يقيم بقصر «الإصباح» (Isbaah) في ضواحي بغداد يزورها من حين إلى آخر ، وعندما لا يستطيع زيارتها بسبب التزاماته ومواعيده يرسل إليها الحرس يحملون إليها تحياته وهداياه .

أما هارون فإنه بناء على نصائح يحيى (Yahya) قبل مخلصاً الوضع الجديد وأظهر اهتمامه في الأقل أمام الناس بالأنس والطرب والشعر والموسيقى . . ولما كان مغرماً جداً بزوجته الشابة (زبيدة) لم يكن مستعداً لخوض صراع مع أخيه الهادي الذي يعرف فيه أفضل من سواه قسوته ودهاءه . إلا أن موت الربيع بن يونس Rabi Al-uns كان وقد وضع النهاية للهدوء والاستقرار في عهد الهادي .كان الربيع بن يونس على علاقة وثيقة بالخيزران وكان ساعدها الأيمن في الأيام العصيبة بعد موت الخليفة المهدي . . أما الهادي فكان كثير الشكوى منها . . . أفسدت هذه العلاقات

امرأة اسمها (أمة العزيز) (Amat al -Aziz) كانت جارية لدى الربيع بن يونس قبل أن تصبح محظية عند الهادي . وقد بلغ سمع الخليفة أن الربيع بن يونس قد أسر إلى أحد الحاشية أنه ما أحب قط في حياته امرأة بقدر ما أحب أمة العزيز !! جن جنون الهادي وغضب غضباً شديداً وهم بقتله . . كانت هذه المؤامرة قد دبرت له ولكن الموت قد سبق القتل ، إذ توفي الربيع بن يونس بعد عدة أيام إثر تناول كأس من العسل المسموم ، وتركت هذه الجريمة بالغ الأثر في نفس الخيزران وابنها هارون .

لم تحتفظ الخيزران بنفوذها أيام زوجها المهدي فحسب ، وإنما ازدادت مكانتها وعظم تأثيرها في زمن ابنها الهادي . . وبحسب التقاليد في الشرق فإن الأميرة الأم تحتل المكانة الأولى وتكاد تكون مقدسة . كانت الخيزران ثرية جداً وكانت قاعات القصر تكتظ بالمهنئين والمعجبين بسيدة القصر . . هذه الفخفخة التي تحيط بالأميرة الأم أزعجت الهادي كثيراً ، وفي أحد الأيام وجه إليها رسالة أمرها فيها بعدم التدخل في شؤون الدولة . .

لم تكن الخيزران امرأة تحني رأسها ، ولذلك سرعان ما حدثت المجابهة المتوقعة بينها وبين ابنها الهادي . . ففي أحد الأيام طلبت إليه مساعدة لمدير الشرطة . . فرفض الخليفة . . وعندما ألحت . . قال لها بشدة : ((لتعلمي . . أقسم بالله العظيم وبأجدادي . . إذا علمت في يوم ما أن أحداً من قوادي أو موظفيّ طرق بابك فسوف أضرب عنقه وأصادر أمواله . . ما معنى هذا الصف من الناس الذي ينتظر أمام قصرك كل يوم! أما لديك عمل تشغلين به نفسك؟ أما تقرأين القرآن لتستغفري به ربك؟ أما لديك بيت يشغلك ؟ احذري! لا تفتحي بابك لأحد . . مسلماً كان أو مسيحياً أو يهودياً)) .

لم يكن الهادي يحب أخاه هارون الرشيد الذي كان يمتاز عنه بجماله وتألقه فضلاً عن أنه ولي العهد الذي سيحتل مكانه . . كان الهادي قلقاً على السلطة وكان يفضل أن تنتقل إلى ولده من أن تؤول إلى أخيه هارون ، لذلك أراد أن يعلن ولده جعفر ولياً للعهد . . . وقد أسر ذلك أول مرة إلى مستشاره الخاص يحيى البرمكي الذي حذره من القيام بمثل هذا العمل ، مشيراً إلى أن ذلك قد يسبب المتاعب لولده جعفر . . أدرك الخليفة كلام يحيى إلا أنه عاود الكرة بعد مدة قصيرة ، عندئذ قال له يحيى بصراحة : (في حالة انتقال الخليفة إلى رحمة الله فإن جعفر لم يزل طفلاً وإذ ذاك لن يكون مقبولاً من الناس ، مما سيفتح الباب أمام الآخرين من العائلة للمطالبة

بالسلطة!! إذ لا بد من الانتظار حتى بلوغ جعفر سن الخلافة وعندئذ نطالب هارون بالتنازل له)) . استوعب الخليفة نصائح يحيى وترك الفكرة ، إلا أن قواده حرضوه مرة أخرى وشجعوه على إزالة كل العقبات من أجل تحقيق حلمه .

لم يكترث هارون كما قلنا لهذا الصراع إذ لم يكن لديه استعداد لخوض المعركة مع أخيه ، بل على العكس فقد أظهر استعداده للموافقة على كل شيء ، ولكن فوجئ بحرمانه امتيازات الأمير ولي العهد وهو الشيء الذي كان يخشاه . . ولما جرد هارون من هذه الامتيازات تخلى عنه الأصدقاء والأحباب وتفرقوا عنه ، إلا يحيى الشخص الذي سهر عليه ورباه منذ نعومة أظافره مع ولده جعفر أخ هارون بالرضاعة . . كان يحيى إلى جانب هارون في مقاومته للخليفة ، وهناك قصة طريفة يرويها العديد من المؤرخين فيما يتعلق بأزمة العلاقات بين الشقيقين تبين نفاد صبر هارون مع أخيه . . . كان المهدي قد أهدى لابنه هارون خاتماً ثميناً جداً ، ولما تأزمت العلاقة أخذ الهادي يطالب هارون بالخاتم . وفي أحد الأيام كلف الخليفة يحيى القيام بهذه المهمة . . وعلى الرغم من إلحاح يحيى على هارون بإعطاء الخاتم فإنه رفض وقال له سوف أحمله إلى أخي بنفسي ، وعندما مرّ فوق جسر بغداد رمى الخاتم في النهر قائلاً : (الآن فليفعل ما يشاء) . وعلى الرغم من أن يحيى لا دخل له في هذه المسألة فقد زاد غضب الخليفة عليه . . .

لقد حاول الهادي قتل أمه ، فأرسل أليها في يوم من الأيام طبقاً من الرز مع رسالة يقول فيها : (وجدت هذا الرز لذيذاً جداً لذلك أحببت أن تشاركيني هذه المتعة) ، وما أن تسلمت الخيزران الطبق حتى أعطت كلبها قليلاً منه فمات بعد دقائق ، فأبلغت ابنها بأنها فعلاً وجدته لذيذاً . ويروي الطبري أن الهادي أجابها (أنت لم تأكلي وإلا لكنت قد تخلصت منك ، وليس هناك في الدنيا حاكم يستطيع أن يرى أمه تحكم بدلاً عنه) . كما أن الهادي حاول عدة مرات دس السم لهارون إلا أنه كان يهرب منه ، وكان رجاله يلقون القبض عليه ويودعونه السجن في بغداد مع يحيى . . وهكذا بلغت الحالة إلى هذا المستوى من الصراع أواخر حكم الهادي . . .

سقط الخليفة الهادي صريع المرض ، وأصبحت أيامه معدودة ، وكان قد أصيب بقرحة في المعدة وهو المرض الذي ينتاب العائلة . . ويقول بعضهم : ربما بسبب سم بطيء كانت أمه قد دسّته له في شراب ما . وبعد أن فحصه الطبيب ، أعلن أن الخليفة سيفارق الحياة بعد تسع ساعات ولم يخطئ . ويروي بعضهم : أن أمه

أسرعت في الإجهاز عليه عندما أمرت وصيفاتها بخنقه بالوسادة . . وما أن لفظ الخليفة أنفاسه الأخيرة حتى أمرت الخيزران بإطلاق سراح يحيى البرمكي ليتسلم زمام الأمور ، ثم أرسلت القائد العسكري «هرثمة» (Harthama) ليخبر هارون الذي كان نائماً في تلك الساعة فناداه انهض يا أمير المؤمنين . . فصرخ هارون به . . . ماذا تقول!! أين سيؤول بي الحال لو علم الهادي بما تناديني به؟

عندما علم هارون بموت أخيه توجه لتسلم السلطة . وفي هذه الأثناء أعلن أن إحدى جواري الرشيد واسمها «مراجل» (Marajil) ، وهي من أصل فارسي وضعت صبياً سمي عبدالله ، الذي سيصبح فيما بعد الخليفة المأمون أشهر خلفاء بني العباس . . وهكذا شهدت تلك الليلة القدر ، ليلة القدر التي تنبؤوا بها للخيزران ، موت خليفة وخلافة الثاني وولادة الثالث[١] . واستكمالاً للاجراءات فقد أجبروا جعفراً على التنازل علناً عن حقوق ولي العهد لعمه هارون . وفي المقابل لم يتحرك أي قائد من الذين حرضوا الهادي على تجريد أخيه من هذا اللقب . أما مراسم التشييع والخلافة فقد قام بها بدقة كل من يحيى والقائد هرثمة . .

استقبلت الأقاليم خبر موت الهادي وخلافة هارون بالهدوء نفسه الذي واجهته بغداد . وهكذا شهدت ليلة ١٥/١٦ ايلول /٧٨٦م الموافق للخامس عشر من شهر ربيع الأول /١٧٠هـ إعلان هارون الرشيد خليفة للإمبراطورية العباسية وأميراً للمؤمنين ولم يتجاوز العشرين من العمر . . وقد قال أبو العتاهية بهذه المناسبة :

خليفتي أنعم بطول العمر كما تشتهي
في ظل جنات كما ترتأي
وليمض دوماً كل من حولك في خدمتك
يقول لبيك كما شئت بها سيدي
واعلم إذا ما جاءك الموت على غرة
فإن لذاتك ما كانت سوى طيف خيال .

---

(١) N. ABBOT

الفصل الثاني

هارون الرشيد... شباب وتألق

طفولة وحياة مترفة:

ولد هارون الرشيد في شباط عام ٧٧٦م في مدينة الري(*) بخراسان، وأمضى سنينه الأولى في القصر الذي كان يطل على المدينة.. وكانت مدينة محصنة بخندق وسور تخترقه خمسة أبواب ويجري فيها نهران كبيران، مما جعل المدينة أحد شواهد الحضارة الإسلامية في سنين قليلة.. ويقال إن هارون الرشيد كان يتذكر دائماً سنينه الجميلة في مسقط رأسه وبخاصة أيام الطفولة إذ كانت نساء البلاد يتنافسن ويتسابقن من أجل شرف إرضاعه.

ترك الخليفة المهدي هذه المدينة وسكن بغداد وكان عمر هارون آنذاك ثلاث أو أربع سنين، وأقام بالقصر الذي شيده على ضفاف دجلة. هناك في بغداد تلقى الأمير الشاب تعليمه الخاص بأولاد الملوك والأمراء والطبقات الراقية. كان الخلفاء يهتمون جداً بتربية أولادهم وتعليمهم ((إن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما))[١]. فهم ينيطون بالعلماء المتعمقين بالعلم تدريس أولادهم، فضلا عن الشعر والموسيقى والفروسية والأنشطة الأخرى.. والخلفاء يتابعون باهتمام مستوى أولادهم وتقدمهم ويعرضونهم للامتحان الخاص والعلني، وفترة التدريس تبدأ بسن الخامسة وتنتهي بسن الخامسة عشرة وعندها يتسلم الأمير أول مهمة.

وفي حين كان الأمويون ما يزالون أقرب إلى الحياة البدوية، وكانوا يركزون اهتمامهم في الرماية والمبارزة والفروسية أكثر من الشؤون الدينية والثقافية، كان تعلم القرآن والفلسفة والقانون يأتي في المرتبة الأولى في عهد العباسيين. كان الأمير الأموي يتعلم قراءة القرآن وحسب، في حين كان الأمير العباسي يخوض في الفقه والعلم والتراث، وهذا يعني أن المستوى الفكري العالي للحضارة العباسية، الذي أتاح للغرب التعرف على التراث القديم، ناتج بفضل احترام روح الخلق والإبداع الذي انغرس في عقول الأمراء الشباب من بني العباس منذ نعومة أظافرهم.. ويروي المسعودي كيف أن هارون الرشيد كلف «الفقيه الأحمر Al-Ahmer» تدريس ولده الأمين قائلاً له: ((يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد عهد إليك أعز بضعة منه، ثمرة الفؤاد، وخولك كامل السلطة عليه، ألزمه طاعتك، كن على مستوى المهمة التي

(*) أطلق على الري فيما بعد المحمدية نسبة إلى الخليفة محمد المهدي.

(١) سورة النساء اية ٩٤.

كلفك بها الخليفة . . علم تلميذك قراءة القرآن وعلمه الأدب ، وزين ذاكرته بالشعر المقفى ، ربه على تقاليدنا المقدسة وليزن كلامه ، وليعرف كيف يتكلم ، نظم ساعات لهوه ، علمه كيف يستقبل باحترام كبار بني هاشم عندما يقصدون زيارته ، وليعامل القادة بالتقدير عندما يكون في مجلسهم ، لا تترك ساعة واحدة من النهار تذهب سدى ، ولا تكن قاسياً بحيث تطفئ جذوة ذكائه ولا متسامحاً فتجعله يخلد إلى الكسل . . صلح أخطاءه قدر ما يتعلق الأمر بك ، باللجوء إلى المحبة والصداقة وإن لم تنفع فاستعمل الشدة والقسوة))[١] .

وهذا المنهج الذي اتبعه هارون الرشيد مع أولاده هو بلا شك المنهج نفسه الذي اتبعه المهدي مع ولده هارون ، لقد كان مثقفاً ، عين لولده الرشيد عدة معلمين كل منهم متخصص بفرع من فروع العلم ، كان معلم هارون العلامة الكسائي (Kisai) والوصي عليه يحيى البرمكي الذي كان هارون يناديه (بـ والدي) وبقي إلى جانبه إلى أن حلت بهم النكبة[٢] .

وعندما بلغ هارون الثالثة عشرة كان يحيى قد عين «سكرتيراً شخصياً» له ، ومنح هذا اللقب يحيى صلاحيات واسعة تجاوزت حدوده . فعندما كلف هارون قيادة الحملة ضد البيزنطيين كان يرافقه في هذه الحملة ، وبعد أن أنيطت به إدارة الأقاليم الغربية من أذربيجان وأرمينيا ، كان يحيى هو الذي يدير شؤون هذه الأقاليم ، وقد أظهر كفاءة في المجالين السياسي والإداري زادت من مكانته عند هارون الذي ترك له كامل الحرية في التصرف . . . إن يحيى بالنسبة إلى أمير شغوف بالعلم والأدب والفن مساعد مثالي ، ولذلك كانت هذه السنين بمثابة تجربة غنية للمهمات التي كانت تنتظره في المستقبل . . .

---

(١) هذا التخويل بالشدة والقسوة لم يكن الوسيلة الوحيدة وانما كان يستعمل معهما الجلد في بعض الأحيان .

(٢) يروي المؤرخ ابن طقطق أن السفاح قال في أحد الأيام لخالد البرمكي : ((يا خالد لن تكون راضياً الا اذا جعلتني خادما لك)) فارتعدت فرائص خالد وقال : كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ أنا خادمك وعبدك . عندئذ اجابه السفاح ضاحكاً : ((ان ابنتي ريطة وابنتك كانتا نائمتين على سرير واحد ، وعندما نهضت في الليل وجدت ان الغطاء قد سقط عنهما فأعدته . فقبّل خالد يد الخليفة السفاح قائلاً : السيد هو الذي يتلقى الخدمة من خادمه ومن خادمته» .

في أيلول من عام ٧٨٦م اعتلى هارون الرشيد العرش وأول ما قام به تعيين يحيى وزيراً له . . . وتحدثنا ألف ليلة وليلة عن هذا الحدث : ((لقد علم أهالي بغداد بموت الهادي قبل طلوع الشمس ، وفي الصباح جرت مراسيم مبايعة الخليفة ، إذ استقبل أمير المؤمنين الأمراء والنبلاء في حشد كبير من الناس وأقسموا يمين الطاعة والولاء . وفي اليوم نفسه صدر مرسوم إمبراطوري بتعيين كل من الفضل El-Fadhl بن يحيى وجعفر بن يحيى وزيرين في حكومة هارون ، من جهة أخرى ، أرسلت كل الأقاليم وولايات الإمبراطورية قسم الولاء كما اعترف كل الأهالي من مسلمين ، عرباً وغير عرب ، أتراكاً وديلم ، بولاية الخليفة الجديد)) .

بدأ هارون الرشيد عصره في ظل ازدهار وترف جالساً على عرش مجده الجديد ومتمتعاً بصولجان الحكم[١] . . وإلى جانبه مستشاره ورئيس ديوانه والمسؤول عن مكاتب الإدارة في الحكومة وهو الشخص الأول في الدولة بعد الخليفة . . لقد منح هارون الرشيد يحيى صلاحيات رئيس دولة وبضمنها تعيين رؤساء الديوان[٢] ، أو إعفاؤهم من مناصبهم . ويروي المسعودي أن هارون سلم إليه خاتمه قائلاً له : ((والدي العزيز أنت الذي أوصلتني إلى العرش بمساعدتك المباركة ولما تتمتع به من حكمة في القيادة فإني أمنحك السلطة المطلقة))[٣] .

وعلى الرغم من ذلك فإنه ما استطاع الانفراد بالسلطة مع قوة نفوذه ودعم الخليفة إياه ، إذ كان عليه أن يقتسم السلطة مع الأميرة الأم الخيزران . فقد أضافت هذه السيدة اليمانية إلى ثروتها الهائلة وذكائها السلطة والنفوذ ، وهذا يعني ببساطة أن يحيى قد أصبح بين المطرقة والسندان ، فكان مضطراً إلى التوفيق على مدى سنوات بين الخليفة ووالدته ، وهي مهمة صعبة غاية الصعوبة لأن الوزير يحيى لا يستطيع مجابهتهما أو الاعتراض على أوامرهما على نحو مباشر ، وإنما كان يلجأ إلى أسلوب المناورة والاستعانة بالأطفال تارة وبالنكتة والطرائف تارة أخرى ؛ لأنه كان

---

(١) سيجد القارئ على صفحات هذا الكتاب بعض الأحاديث عن ألف ليلة وليلة وهو مصدر تاريخي نادراً ما يخطئ ، فالحكايات وبخاصة مايخص بغداد والبصرة ، تعكس بصدق حياة وبهجة ذلك العصر من الحضارة العربية الإسلامية .

(٢) رئيس ديوان . . يعني بدرجة وزير .

(٣) يراجع المسعودي .

يفهم عقلية الخلفاء . وفي هذا الصدد يقول المسعودي : ((معارضة الخلفاء في أي شيء معناه تحريضهم على عمل ذلك الشيء ، ذلك لأنك إذا أردت منعه من المضي في اتجاه معين كأنك تدفعه إليه . .))[1] .

بعد أن مرت عدة أشهر من حكم الرشيد ، معتمداً على الله ووالدته الخيزران وخبرة وتجربة الوزير يحيى ، قام الخليفة بأول رحلة حج إلى الديار المقدسة ، وللأسف لم يذكر لنا التاريخ عن هذه الرحلة التي يقال عنها إنها كانت أسطورية لما بذل فيها من كرم وسخاء ، ولكن رحلات الحج كانت تتكرر كل عام بحسب التعاليم الإسلامية . .

كان الخليفة الرشيد يحج كل عام إلى مكة لإظهار اهتمامه بالدين من جهة ولتأكيد ارتباطه بالنبي محمد ﷺ من جهة أخرى ، وكان العباسيون في موسم الحج يقيمون الاحتفالات ويجزلون العطاء في هذه المناسبة التي تدخل من باب الدين إلى السياسة ، والهدف إظهار أهمية ثورتهم على الأمويين عام ٧٥٠م . والحق كان موسم الحج فرصة للمزايدات السياسية بين أركان الدولة ، إذ كانت الخيزران والدة الرشيد تنافس ولدها في العطاء والسخاء في رحلة الحج هذه ، حتى إن الرشيد كان يتضايق منها . ويروي لنا المؤرخون أن الحجة الأولى التي قامت بها الخيزران بعد اعتلاء ولدها كرسي الخلافة كانت أشبه بفتح مكة إذ كانت الهدايا تتدفق كالسيل . وفي كل يوم من أيام الرحلة كانت الأميرة الأم تأمر بإقامة المخيمات ودور الاستراحة ودورات المياه للحجاج . . . وفي مكة عثرت على البيت الذي ولد فيه الرسول محمد ﷺ وحولته إلى جامع ، وأمرت أيضاً بتحويل المكان الذي كان يجتمع فيه ﷺ بأصحابه إلى مسجد وأطلق عليه مدة طويلة اسم مسجد الخيزران .

من المعلوم أن العباسيين كانوا قد أبادوا الأمويين من أجل إعادة الحق إلى نصابه وتصحيح الانحراف الذي أصاب الإسلام في العهد الأموي ، وهو ما أكده الخليفة الرشيد أكثر من جده المنصور وأبيه المهدي ، فقد أشاع أنه ظل الله في الأرض ، وهو الإمام الواجبة طاعته ، وأطلق على نفسه أمير المؤمنين ، فأخذ يرتدي في كل مناسبة دينية بردة النبي محمد ﷺ ويمسك بيده السيف للرمز إلى أنه ((خليفة رسول الله وقوة الله في الأرض)) . لقد جعل الرشيد من شخصية الخليفة مؤسسة دينية واجبها الأول الدفاع عن الإسلام ونشر تعاليمه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذلك

---

(١) يراجع المسعودي .

فقد شرع الرشيد منذ بداية حكمه في إضفاء الطابع الإسلامي على مؤسسات الدولة ، إذ منح رجال الدين مكانة عالية واهتم بهم كثيراً ، فكان يناقشهم في أمور العقيدة والقانون ، كما أولى العتبات المقدسة عناية واستعادت أهميتها ومكانتها لدى المسلمين .

لقد حارب هارون بعنف كل البدع تحت أي غطاء كان سواء لأسباب سياسية أم دينية . . كيف لا وهو يقود إمبراطورية واسعة الأرجاء يقطنها أقوام من مختلف الأجناس والألوان والألسن . وكان لا يمكن لها الاستمرار لو لم يعتمد الخليفة ديناً واحداً وقانوناً واحداً ، وعلى وفق هذا المبدأ انصهرت كل العناصر الأجنبية في البوتقة العربية- الإسلامية[١] . .

لقد قاتل الرشيد العلويين وكافح الزنادقة ، وسنرى فيما بعد أن العباسيين الأوائل كانوا قد أدركوا أن الخطر في الداخل يكمن في مثيري الفتن سواء كانت من منشأ ديني أم اجتماعي .

وما عدا ذلك فالإمبراطورية في سلام ، أما على الصعيد الخارجي فلم يكن هناك أي خطر يهدد أمن الإمبراطورية سوى جارتهم الوحيدة الكبرى بيزنطة الغارقة في أزماتها ومشكلاتها . وهذه لم تكن تستطيع تهديد العباسيين ولا تشكل حتى مصدر قلق لهم ، خصوصاً أن الرشيد فهم عقلية هؤلاء القوم ، إذ إن والده المهدي كان يرسله دوماً بصحبة قواده عبر جبال طوروس في الحملات العسكرية . . إن الإسلام يحث المسلمين على قتال الكفار ، لذا فإن الخليفة لا يمكن أن يبقى دون فتوحات كما حدث له في «القسطنطينية» (Canstantinople) حيث هلك فيها الكثير من الملوك والأباطرة . . وعندما أثارته بيزنطة سار هارون لها وشن عليها حرباً ضارية احتلت جل اهتمامه على مدى السنين الباقية من حكمه .

وفاة الخيزران

توفيت الخيزران نهاية عام ٧٨٩م وهي في الخمسين من العمر . وفي أغلب الظن كانت وفاة طبيعية ، شيعها الرشيد تشييعاً مهيباً ، سار باكياً حافي القدمين في

---

(١) في الوقت ذاته وجهت مجموعات من المسيحيين المبشرين ، متحججة باختلاف العقائد ، الضربات الى السلطة .

أوحال ذلك الخريف المر ، وقد أفقده الحزن الشديد صوابه . سار بجنازة والدته باكياً إلى مقبرة الرصافة على الضفة الشرقية من نهر دجلة التي ما تزال تحمل الاسم نفسه ، وعندما وصل المكان نزل إلى القبر ثم تناولها وقرأ عليها دعاء «ابن نويرة» الذي كانت السيدة عائشة قد قرأته على قبر والدها أبي بكر الصديق الخليفة الأول بعد النبي محمد ﷺ . . وبعد أن واراها التراب وقف الجميع في صمت وحزن وهارون يذرف الدموع بسخاء عليها .

وبانتهاء المراسم ونسيان الحزن انفض عنها الجميع وأخذ المؤرخون والرواة والشعراء يصفون الجارية اليمانية زوجة الخليفة المهدي وأم الخليفة الرشيد بالمجرمة ، لكونها أسهمت في تنصيب ولدها المفضل على عرش الخلافة ، ثم أخذ نفوذ البرامكة يتراجع ، إذ أصدر الرشيد بعد فترة وجيزة من رحيل الخيزران أمراً يقضي بإعفاء جعفر البرمكي من حمل خاتم السلطة ، وكلف الفضل بن الربيع أحد المقربين تسلم الخاتم . وكانت الخيزران على خلاف دائم مع الفضل بن الربيع وكان الرشيد يعلم ذلك ، إلا أنه أراد أن يوجه أول ضربة إلى عائلة البرامكة للحد من نفوذها . وأصدر أيضاً مرسوماً آخر يقضي بإلقاء القبض على «إبراهيم الحراني Ibrahim Al-Harrani» الوزير الأسبق في خلافة الهادي ومصادرة جميع أمواله المنقولة وغير المنقولة . وتدخل الوزير يحيى البرمكي لتخفيف العقوبة(١) .

قصر أمير المؤمنين

في هذه الفترة كان هارون الرشيد قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر . . . «شاب قوي البنية ، بهي الطلعة ، وسيم وطويل القامة ، جميل الوجه ذو بشرة بيضاء فاتحة وشعر مجعد» ، كما يصفه الطبري . أما حكاية ألف ليلة وليلة فتبين تفاصيل أدق للخليفة إذ تقول : كان لهارون «فم صغير مغمور وسط وجنتين ممتلئتين ومنتفختين» . . . كان الرشيد يفضل الإقامة في قصر الخلد ببغداد وهو القصر الذي بناه له والده على ضفاف دجلة ، وقد شيدت قبالته منصة تطل على مباني رئيس الشرطة . . . وفي أيام الأعياد الدينية والوطنية إذ تجري الاستعراضات العسكرية والشعبية والفلكلورية ، تغص حدائق القصر بجموع الناس للمشاركة في هذه

---

(١) D. Sourdel الوزارة العباسية .

الاحتفالات التي يقيمها الخليفة .

وقصر الخلد لانعرف للأسف أية تفاصيل عن هندسة بنائه في الداخل ، ولكن الذي نعرفه أنه واحد من سلسلة قصور شاهقة شيدت على ضفاف دجلة . وقد تميزت هذه القصور بالمساحات الشاسعة ، إلا أن الشيء الذي كان يمتاز به قصر الخلد هو أنه يجمع بين مقر إقامة الخليفة ومركز القيادة السياسية والإدارية للإمبراطورية وهو ما كان يفضله الخليفة(١) . يضم القصر من بين أجنحته الكبيرة قاعات الاجتماعات والاستقبال وقاعات عديدة للمستشارين وكبار المسؤولين ولكل منهم جناح خاص . ولما كانت المدينة مدورة فقد صمم قصر الخلد على طراز الهندسة المعمارية الشرقية واعتمد الطابوق الطيني المفخور عنصراً اساسياً في بنائه ، وهذا الطابوق كان يغلف فيما بعد بالسيراميك ، وكان يحيط بالقصر من الخارج سور عظيم معزز بأبراج عالية تطل على ممرات الخندق العريض . وكان المنصور قد أقام حدائق غناء في هذا القصر استمدت أشكالها وطرازها من حدائق القصور الساسانية والرومانية والرياض الأموية ، وجهزها بكل مستلزمات الترف لتكون متنفساً للبلاط الإمبراطوري ، وقد حسنه الخليفة المهدي وولده هارون وأضافا إليه الكثير من وسائل الزينة ، فقد جلبت أنواع الفسائل والنباتات والزهور لكي تضفي جواً شاعرياً على المكان . . . أما الأشجار فقد أحيطت بغلاف من صفائح من المعادن الثمينة مطعمة بالأحجار الكريمة ، وقد زينت أوراق الأشجار بالذهب والفضة . كان يتخلل هذه الرياض السواقي والأنهار وهي تجري تحت جسور جميلة مصنوعة من الخشب الأبنوس . وشيدت في هذه الحدائق أيضاً أجنحة للراحة والاستجمام تظللها الأشجار الباسقة والنادرة . وفي الليالي المقمرة تنعكس أشجار السرو والصنوبر على صفحات المياه لتمتزج بأعشابها الملونة فتطرز عبارات تعبر عن مجد الخلافة العباسية . وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الحدائق لا تساوي شيئاً تجاه الطبيعة الخلابة وهي تحتضن الفن المعماري الرفيع على

---

(١) يمكن مقارنة قصر الخلد بقصر الأخيضر Ukhaidir على بعد ٢٠٠كم الى الجنوب الغربي من بغداد . وعلى مايقول العالم الاثاري K. A. C. Cveswell فإن هذا القصر كان يعود لعيسى بن موسى صهر السفاح والمنصور ، وهو قصر محصن بأربعة أبراج بزاوية ١٧٥م ، ١٦٩م وبمساحة تبلغ ٩٠٠ متر مربع . وقد جمع معمار قصر الأخيضر بين التراث الغربي الشرقي القديم والتأثير الساساني ، وقد ضم قاعات العرش لتنسجم مع الاحتفالات والمراسم التي يحضرها الخليفة ثم أضيفت إليها وسائل الترف . .

نحو غاية في الكمال . . . ويقول الطبري : (كانت في داخل القصر حديقة صغيرة غرست كلها بأزهار وردية اللون وشيدت في وسطها قاعة فرشت بسجاد وردي اللون ويرتدي الخدم لباساً وردي اللون . . .) وتروي لنا ألف ليلة وليلة هذه الصورة عن الحديقة الوردية : كان يطلق على هذه الحديقة اسم حديقة الملذات : (وكان في وسطها قصر يسمى «قصر العجائب» وهو خاص بهارون الرشيد) ، وعندما يشعر هارون بضيق الصدر يرتاد هذا المنتجع للراحة والاستجمام والتسلية كي ينسى همومه . . . كان هذا المنتجع مشيداً من قاعة كبيرة واحدة فقط يدخلها الضوء من ثمانين نافذة موزعة على جدرانها الأربعة ولا تفتح إلا عند قدوم الخليفة ، وإذ ذاك تضاء كل المصابيح لتعكس أضواءها على الثريا الكبرى في وسط القاعة . . . وعندئذ يجلس الخليفة على كرسي عريض فاره ومريح مغلف بالحرير والمخمل ومطعم بالذهب ، وبعد لحظات من التأمل يأمر المطربين والمطربات بالغناء ترافقهم الفرقة الموسيقية وهي تعزف أعذب الألحان التي يحبها الخليفة . وفي رحاب أمسية تنعم بالجو العذب والنسيم العليل المعطر برياحين الأزهار النادرة والمنتشرة في هذه الحديقة الوردية تنفرج أسارير الخليفة ببغداد الجميلة . وكانت الأزهار تنتشر في كل مكان خارج القاعات وداخلها . وكانت على سبيل المثال في قاعة الاجتماعات حديقة صغيرة يتوسطها حوض من الرخام الأبيض شفاف مزود بنافورة مطعمة بالماس ، وعند فتح النافورة يمتزج رذاذ الماء بعطر الزهور ليضفي على المكان البهجة والسرور . . .

هذا الوصف الخيالي والشاعري لأمكنة الراحة والاستجمام المشيدة في عصر الرشيد وما بعده تناولته كتب وأحاديث كثيرة ، ومن بين أشهر هذه الروايات تلك المتعلقة باستقبال سفيري بيزنطة «جون رهادينوس وميشيل توكساراس Jhon Rhadinos and Michel Toxaras مبعوثي الإمبراطور Constantin Porphyrogene قسطنطين بورفيروجين المكلفين بعقد اتفاقية هدنة مع الخليفة وشراء السجناء اليونانيين . . . وقبل أن نصف مراسم استقبال هذين السفيرين لابد أن نعطي صورة عن فخامة القاعات»[١] .

بلغ عدد الستائر في واحد من قصور أمير المؤمنين ثمانية وثلاثين ألف ستارة ،

---

(١) هذا الوصف الذي جاء بعد قرن كامل من حكم الرشيد يبين لنا فخامة البلاط في زمن الرشيد التي استمرت على الحال نفسها في عهد الخلفاء الذين جاءوا بعد الرشيد .

قسم منها مطرز بالذهب وتمثل اشكالاً مختلفة من المزهريات والفيلة والخيول والجمال والأسود والطيور ، وبألوان زاهية جميلة وكل واحدة كأنها لوحة تكاد تتكلم ، والقسم الآخر يمثل أشكال أشجار ونباتات جميلة مطرزة بالذهب أيضاً ، أما السجاد الذي يغطي كل الممرات بدءاً بالأبواب إلى الصالات حيث يمر عليها موفدو الملوك والأباطرة والسفراء فإنها مصنوعة من كتان طبرستان «Tabaristan» ودابك «Dabik» وكان هذا السجاد مصنوعاً للعرض لا لتطأه الأقدام . وقد بلغ عددها اثنين وعشرين ألف قطعة عدا تلك المفروشة في الغرف وصالات الاستقبال .

مراسم استقبال السفراء والمبعوثين

عند وصول مبعوثي الإمبراطور البيزنطي ، يستقبلهم مسؤول المراسم من باب الأمة «Bab Al-Aumma» إلى مدخل القصر الذي يطلق عليه خان الخليل «Khan al khai-lel» وهو في جزئه الكبير يعتمد طرازه على القباب الزرق وأعمدة الرخام ، وعلى الجانب الأيمن من هذه الأروقة تصطف خمسمائة مهرة أصيلة بلجام من ذهب وفضة ، يقابلها على الجانب الأيسر خمسمائة مثلها تحمل مقاعد مطرزة بالذهب ، تمتد ضفائرها إلى أسفل بطن الحيوان وقد توجت رؤوسها بقبعات تبعاً للون المهرة . . وبعد أن يجتاز السفراء رباط الخيل ، يبدأ رواق الحيوانات الوحشية من النوع النادر كالفهود والنمور المقيدة بسلاسل ذهبية ، ثم ينتقلون فيما بعد إلى رواق آخر احتلت زواياه الأربع فيلة مكسوة بالديباج والحرير المطرز بالذهب ، وكل فيل يحمل على ظهره ثمانية أشخاص من بلاد «السند» وحولهم حملة المشاعل يمارسون الألعاب النارية فيزرعون الرعب في نفوس المبعوثين ، وبعد أن يخترقوا هذه الممرات يصطحبهم الحرس إلى ممر الأسود حيث يصطف على كل جانب خمسون أسداً[1] لكل منهم حارس خاص بلباس مزركش وهو يمسك الحيوان ، ثم يتابع المبعوثون السير نحو الملحقات الحديثة وهي عبارة عن قصر مشيد في وسط بساتين تطل على بحيرة صناعية من صفائح الفضة ، تنطلق منها جداول غلف جانباها بالفضة ، يبلغ طول البحيرة ثلاثة الآف ذراع[2] وعرضها ألفي

---

(١) لم تتوفر معلومات كافية عن وجود حديقة حيوانات في قصر الرشيد ، ولكن من المحتمل ان والده احتفظ بحيوانات نادرة شانه شأن الأمويين .

(٢) الذراع = نصف متر ، اي ٥٠ سم (المترجم) .

ذراع ، ويشاهد فيها أربعة زوارق صغيرة وأنيقة مذهبة ومغلفة بالمخمل المذهب ومفروشة بالسجاد الثمين . . يزين هذه البساتين فضلاً عن الأشجار أكثر من ٤٠٠ نخلة ارتفاع كل واحدة منها خمسون ذراعاً ، وكل واحدة من هذه النخلات نحت جذعها وأحيطت بصفيحة من النحاس الأحمر المذهب من القاعدة حتى قمتها ، وبعد استراحة قصيرة للسفراء الذين سيستقبلهم الخليفة في هذا الجناح ، يأخذهم الحرس الإمبراطوري إلى قصر الشجرة حيث تتوسط شجرة عملاقة أحيطت بحوض كبير من ماء زلال ، يتدلى من هذه الشجرة ثمانية عشر فرعاً تحمل الأغصان التي تحط عليها طيور صغيرة وكبيرة وملونة ، وقد زينت بأوراق فضية وذهبية ، وعندما يهب النسيم ترفرف أوراق الأغصان وتتداخل مع الأوراق الفضية والذهبية في الوقت ذاته الذي تزغرد فيه العصافير وتغرد الطيور ، فتحيل المكان إلى جنة من جنان الخلد[1] .

وتصف لنا حكاية ألف ليلة وليلة إحدى قاعات القصر الكبيرة التي تشبه كثيراً تلك التي يستقبل فيها الخليفة مبعوثي إمبراطورية فارس أو بيزنطة على النحو الآتي :

إنها قاعة تعلوها قبة تستند إلى ثمانين عموداً من الرخام الأبيض الشفاف النقي ، تزين رؤوس هذه الأعمدة تيجان نحتت نحتاً رفيعاً تبرز عليها طيور من ذهب وحيوانات ذوات الأرجل الأربع ، أما القبة من الداخل فإنها مطلية طلاء كاملاً بالذهب ونقشت عليها خطوط ملونة جذابة ومتناسقة مع السجادة التي تفرش القاعة . . أما الفراغات بين الأعمدة فقد وضعت فيها مزهريات ورد رائعة تفوح بعطرها في أرجاء القاعة . . كما وضعت في الرواق إلى جانب هذه المزهريات كؤوس من الكرستال أو المعدن المطعم بالعقيق والياقوت . . هذه القاعة تطل تماماً على حديقة مدخلها مفروش بالحصى الملون بألوان القبة والسجادة نفسها ، بحيث تكون الصالة والقبة والحديقة قطعة فنية رائعة تحت السماء الزرقاء . .

أما عن السجاد ، فحدث ولا حرج ، ويكفي أن تكون كل سجادة لوحة فنية رائعة لا تقدر بثمن ، ولا سيما تلك التي تفرش في قاعات القصر ، إذ يمزج نسيجها بخيوط الذهب يتخللها اللؤلؤ والياقوت ، وهناك إلى جانب هذا السجاد بسط الحرير التي هي الأخرى تزين باللؤلؤ والياقوت . وما من شك في أن نظام الإضاءة كان ينسجم مع هذا النوع من الأثاث والفراش ، إذ تتدلى من السقوف الثريات الكبيرة من

---

(١) بحسب ما يرويه البغدادي في مقدمة تاريخ بغداد .

الكرستال والذهب ، أما الجدران فقد حولت إلى بانوراما لصور الخلفاء السابقين من بني العباس ، وقد دونت عليها منجزاتهم ونمط حياتهم ، هذه القصور وهذه القاعات كانت تجسد عالماً آخر هو عالم الجمال والروعة والفن الرفيع والطبيعة الساحرة لبغداد دار السلام .

في هذه القصور وفي هذه الأجنحة الخاصة كان يعيش الخلفاء مع المئات من الحاشية والخدم والجواري . . كانت هي المقر الرئيس للإمبراطورية والمسكن الخاص لأمير المؤمنين ، منها تصدر قرارات الدولة وإليها ترد أنشطتها وفعاليتها ، هذا المقر هو عالم مغلق وغريب ، هو مدينة مغلقة لا يجتازها أي شخص عدا الذين يسكنون أو يمارسون فيه وظائفهم . . في داخل هذا القصر تتفتح مواهب الفن والإبداع ، وفي هذا القصر يستطيع المقربون من الحاكم بلوغ أعلى درجات الغنى والنفوذ ، في هذا القصر يستقبل الخليفة الشخصيات والضيوف وهو يجلس القرفصاء على تخت مغلف بالحرير الممزوج بالذهب واللؤلؤ ، هذا التخت تعلوه مظلة مزركشة تتدلى منها ستارة تفصل بين الخليفة والجمهور من أجل إضفاء القدسية على أمير المؤمنين ، وهو اللقب الذي يطلق على الخليفة عند تقديم التحية له . .

في حضرة الخليفة

هناك تقليد خاص ينظم الحياة في القصر . . الحاجب «Al-Chambellam» يصطحب الزائر أو الضيف إلى وراء الحجاب حيث الخليفة ، وبعد أن يقبل الزائر يديه ورجليه ينتظر السماح له بالجلوس ، وكلما زاد الانتظار يعني ذلك زيادة في إذلال الخليفة للزائر ولا يجوز لأحد البدء بالكلام . أما نظام الجلوس واللقاءات والاجتماعات الكبرى فإن الخليفة هو يحدد ويعين الأفضلية ، وقد اعتاد أن يخصص الصف الأول للشخصيات المهمة وأعضاء القصر ثم أجداد العائلة الكبار ثم الشخصيات الإسلامية ، ويأتي بعد ذلك صف المسؤولين والموظفين وكبار ضباط الدولة ، وتعد حاشية الخليفة بالمئات وتتكون من الأمراء من أولاد الخلفاء السابقين وأحفادهم وأولادهم ، الشخصيات العباسية ، ثم الحجاب ومديري الديوان والحرس الخاص وموظفي الديوان والطباخين والسقائين والنجارين والدباغين والخدم ، فضلا عن الحكماء والمؤذنين والمنجمين والمهرجين ، إنها مدينة داخل مدينة .

الحريم (Al-Harem)

نساء الخليفة وعائلته تسكن الحرم[1] ويقال إن هارون كان لديه مئتا امرأة ، عشرون منهن أنجبن له الأولاد ، وهذا العدد قليل بالنسبة إلى نساء المتوكل واللواتي بلغن (١٢٠٠٠) اثني عشر ألف امرأة ، والحريم ليس هو مبغى كما يتصوره بعض الغربيين ، فزوجات الخليفة وجواريه اللواتي ينجبن له الأولاد يتمتعن بحقوق الزوجة كافة ، كالبيت والأثاث والنفقات وعلى وفق نظام خاص بإدارة عدد من المختصين من الرجال والنساء .

ونساء الحرم معظمهن ممن قد اشتراهن الخليفة من تجار الرقيق أو ممن قدمن هدايا إلى الخليفة من أفراد العائلة (وبنات العم) ، أو من بنات النبلاء الراغبين في التقرب إلى الخليفة وبما يعم من خير جراء هذه المصاهرة . . وفي عصر الرشيد كانت الجواري من أصول مختلفة ، فمنهن العربيات ومنهن الشركسيات والفارسيات واليونانيات ، وفي الغالب فإن مصدر هؤلاء النساء الغنائم أو الحروب والغزوات إذ تقع هذه النساء في الأسر .

كان الخليفة هارون الرشيد شغوفاً بالعلم والثقافة ، ولذلك كان يحرص منذ مجيئه للخلافة على أن يحيط نفسه بالمثقفين رجالاً ونساء ، ولذلك كان اختيار الرشيد للنساء لايعتمد فقط على الجمال بل على الذكاء أيضاً . فقد كان يرسل العديد منهن إلى الطائف وعلى نحو خاص إلى المدينة المنورة المعروفة منذ زمن بعيد بمدارس الفن والغناء والموسيقى . أما في بغداد فقد بلغ عدد طالبات كل أستاذ متخصص بالفن ثمانين طالبة تدرس الموسيقى والفنون الأخرى .

وقد كلف الرشيد المغني الكبير إسحق الموصلي أن يعلم الغناء العديد منهن ، وتروي لنا قصة ألف ليلة وليلة[2] الحكاية الاتية : (أهدى الخليفة الرشيد إسحق أجمل قصوره المختارة ، فقد كان إسحق يحتل مكانة كبرى عند الخليفة ، وفي هذا القصر كانت مهمة إسحق تنصب على تدريس الفن والغناء لعدد من الجواري المختارات والمشتراة من سوق العبيد ومن السوق العالمية لضمهم إلى حريم الخليفة ،

---

(١) كان للمأمون عشرة أولاد والمهدي ستة وعدة بنات ، في حين كان للرشيد أربعة عشر ولدا ، أما البنات فلا يعرف منهن سوى أربع .

(٢) هذه الحكاية جاءت في الليلة ٩٢٦ من ألف ليلة وليلة .

وعندما تتفوق إحداهن في الغناء والعزف على العود أو على القيثارة يصطحبها إسحق إلى الخليفة لتغني وتعزف أمام الخليفة ، وإذا ما أعجبته فإنها تدخل فوراً حرمه) وكلما زاد تفوق الجارية في الفن زاد ثمنها حتى بلغ ثمن إحداهن «٢٠٠» دينار ، وقد ارتفع هذا المبلغ ليصل سعر الجارية من هذا النوع «١٣٠٠٠» ثلاثة عشر ألف دينار في زمن الخليفة المتوكل . .

كان امتلاك العبيد والجواري المثقفات يعد من الترف الإمبراطوري ، ولا سيما أن الخلفاء أنفسهم كالرشيد على سبيل المثال ، أولاد جوار سواء عربيات أم من أجناس أخرى . . وكما هو الحال لدى سلاطين بني عثمان الذين اختلطت دماؤهم بدماء الشعوب الأخرى عبر التزاوج ، فإن العباسيين قد سبقوهم في هذا المجال . .وعندما خلف هارون الرشيد أخاه الهادي كان في عصمته ثلاث زوجات شرعيات (كما هو معلوم فإن الله أجاز للمسلم الزواج بأربع نساء) هن عزيزة غطريف «Ghitrif» شقيقة الخيزران ، وغدير «Ghadir»[1] جارية الهادي ، وزبيدة ابنة عمه التي تزوجها عام ٧٨١م وهي بنت جعفر أحد أولاد المنصور ، وأمها صلصال «Salsal» شقيقة الخيزران . كانت زُبيدة فضلا عن جمالها الخلاب ، ذكية وربما عبقرية ، يكفي أنها كانت تنافس العشرات من نساء زوجها اللواتي كن أقل جمالا منها ، ولم يكن من السهل الحفاظ على مكانتها لدى الرشيد وسط هذا الجو الذي يحيط بها لولا هذا الذكاء ، مما جعلها تكون السيدة الأولى التي يكن لها هارون الاحترام العميق . . وبعد وفاة زوجتيه عزيزة وغدير تزوج الرشيد ثلاثاً أخريات من عائلات النبلاء وهن أم محمد «Um Mhammed» والعباسة «Abbassah» وفتاة من عائلة عثمانية ، ولكن لم يستطعن امتلاك قلبه لأنه ملك زبيدة على الرغم من حبيباته الكثيرات ، إذن تعدد الزوجات أمر وارد في الإسلام ومحدد بأربع ، ولكن الخليفة ، بوصفه ظل الله في الأرض ، يحق له الزواج بأكثر من هذا العدد ، وليس غريباً أن تقدم الزوجة امرأة جميلة إلى

---

(١) كان هارون قد أقسم لأخيه الهادي بأن لا يتزوج أبداً غدير بعد وفاته . . وكانت بدورها أقسمت للهادي ألا تتزوج بعده ، ولكن ما كاد يمر شهر واحد على وفاة المهادي حتى تزوجها ، وفي يوم من الأيام وعندما كانت غدير نائمة استيقظت فجأة من الرعب والعرق يتصبب منها ، والسبب أنها رأت في المنام حلما ، فقد رأت زوجها الهادي وهو يقول لها معاتبا «عندما يصبح الصباح ستلحقين بي» وفعلا فارقت الحياة بعد ساعة واحدة من هذا الحلم .

زوجها هدية . . وهذا ما فعلته زبيدة ، فقد قدمت لزوجها العديد من النساء الجميلات وفي مناسبات مختلفة ، وقد سلبت إحداهن قلب الخليفة ولكن مدة محدودة . .

وفي يوم من الأيام سمع الخليفة جارية سمراء تغني في قصر يحيى البرمكي تدعى دناني «Danani» وكانت قد تلقت تعليماً رفيعاً في الموسيقى ، وعندما بالغ الرشيد في تكريمها إذ أهدى لها عقدا بقيمة (٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف درهم ، جن جنون زبيدة ، ومن أجل إقناع أميرة القصر بروعة فنها كمغنية واستحقاقها هذا التكريم ، اقترح على زبيدة أن تسمع دناني ، وفي حفل حضره الأمراء العباسيون غنت دناني فأثارت مشاعر الجميع من الحضور ومن ضمنهم زبيدة ، وتعبيراً عن اعتذارها للخليفة أهدت له عشر حسان من الجواري . والحق أن هؤلاء الجواري أنجبن للرشيد كثيراً من الأطفال ، فقد أنجبت له مراجل وهي من منطقة «الحيرة» (Herat) ولداً هو عبد الله الذي ولد في ليلة القدر ، أي الليلة التي توفي فيها عمه الهادي وتوج أبوه خليفة ليصبح فيما بعد الخليفة المأمون ويقتل أخاه الأمين ، وهو أخوه لأبيه وابن زبيدة المدلل ، وثمة جارية أخرى اسمها «مريدة» (Marida) أنجبت له خمسة أولاد بضمنهم المعتصم الذي خلف المأمون .

كان هارون هائماً بحب مريدة ، وهناك الكثير من الطرائف تتحدث عن علاقتهما الغرامية . . والحق أن هناك كثيراً من النساء اللواتي مررن بحياة الرشيد وأقضضن مضجع أميرة القصر زبيدة . . ففي يوم بلغ القلق عندها أوجه نتيجة استيلاء جارية على مشاعر هارون ، فذهبت زبيدة تطلب المشورة من «علية» (Ulaiah) شقيقة هارون الصغرى ، وقد وعدتها بإعادة الأمور إلى مجاريها ، ولكونها تتمتع بقريحة شعرية كتبت هذه الكلمات (حتى لو انتزعوا قلبي فإنه لن ينفصل عنك) وبعد أن لحنتها بلحن جميل أعطتها إحدى الوصيفات من ذوات الصوت الجميل لتغنيها في حضرة الخليفة . . وفي المساء وعندما كان الرشيد يتنزه في حدائق القصر كالمعتاد سمع الغناء بكلماته الجميلة ، فكان له وقع كبير في نفس الرشيد فانهارت مقاومته وعاد إلى زبيدة ، أما الوصيفة المغنية فقد أغدق عليها الكثير من الدراهم والدنانير .

ومن بين أشهر جواري الخليفة نذكر «ذات الخال That alkhal» ، و «سحر Saher» ، و «ضياء Diya» ، و «هلينا Hailana» ، وربما «ألين» «Helen» . . فذات الخال كلفت الخليفة (٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف درهم لأن لها خالاً جميلاً على خدها كنقطة

عنبر في صحن مرمر ، ولكنها فقدت هذا الخال إثر مشاجرة مع واحدة من غريماتها في الحرم ، حيث كان الخليفة كثير التردد إليها ، فلم تستطيع هذه الغريمة إلا انتزاع هذا الخال . وقطعت ذات الخال بالمقابل أنف غريمتها الذي كانت تفتخر به ، وقد انتهت هذه المعركة بأبيات جميلة غنيت بالصوت الذهبي لإبراهيم الموصلي . . كما كانت هناك الجارية الحسناء «عنان Inan» التي قدمت من وسط الجزيرة العربية وكانت تتميز بموهبة شعرية رائعة لم يستطيع هارون شراءها بسبب ثمنها الباهظ . وسط هؤلاء الحسان من الجواري والنساء والمغريات ، كانت زبيدة تعرف كيف تحافظ على مكانتها عند زوجها الرشيد ، كانت تفتنه بذوقها وسحرها وخيالها وأنوثتها . . كان يحيط بزبيدة المئات من الوصيفات وكان لديها فريق من عشر وصيفات وظيفتهن قراءة القرآن في النهار . من جانب آخر كانت تنفق الكثير على زينتها وملابسها وترفها . . يكفي أن ثلاثين شخصاً كانوا مكلفين برعاية قردها ومرافقته عندما يتنزه في المساء . وفي يوم من الأيام وقع هذا الحيوان ضحية ضابط كبير معتد بنفسه استاء من مزاحه فقطعه إلى نصفين ، ولولا طيبة زبيدة وتسامحها وأخلاقها العالية لكان هذا الضابط قد لحق بالقرد فوراً . . وفي الفصول التالية عن أمراء بني العباس وأميراتهم يروي لنا المسعودي ما قامت به زبيدة من أعمال عظيمة ومؤسسات خيرية في سبيل الإسلام ، فقد أنفقت ملايين الدنانير على بناء الفنادق وحفر الآبار على طول امتداد طريق الحج وبخاصة في الحجاز ، كما ساعدت كثيراً من المحتاجين في كل أرجاء الإمبراطورية وعم خيرها جميع الطبقات ، ولذلك عدت من بين كبار الشخصيات العباسية في التأريخ . . .

وفي نهاية القرن الثامن الميلادي أصبح هارون حاكم الشرق الكبير ، أغنى وأقوى شخص في العالم ، وقد بلغت شهرته كل أرجاء الدنيا . . في قصره الكبير المطل على نهر دجلة كان يعيش بين مئات النساء والأمراء والموظفين والخدم وهو يرفل بالنعيم . كان جو القصر مزيجاً من الفن والأدب ، من الرقص والغناء والشعر والرسائل والقسوة والتسابق في التقرب إلى أمير المؤمنين ، وهو يعكس لنا حكايات ذلك العصر والصورة الحقيقية لذلك العالم حيث آلاف الدراهم بل الدنانير تمنح لشاعر أعجب الخليفة بيتين من الشعر له أو جارية تشترى من سوق العبيد وترسل هدية إلى الخليفة ، فيحقق كل أحلامها بطرفة عين ، في مثل هذه الأجواء يزدهر الحب ويتفتح أمام هذا الجمال والروعة . . . ولكن إلى جانب هذا كله كان هناك «مسرور» (Masrur) جلاد

الخليفة الذي يرافقه حيثما يحل ويرحل وبخاصة في جولاته الليلية في مدينة بغداد . . وبقدر ما يغدق أمير المؤمنين على لهوه ولذاته ويكرم بسخاء فهو قاسٍ وشديد مع أعدائه ، فقد طلب ذات يوم إلى ابنه أن يضرب أمامه عنق أحد السجناء ، ليرى مهارته باستعمال أحد أنواع السيوف .

مراسم الاستقبال

في الأيام الاعتيادية يستقبل القصر الزوار بالملابس البيض ، وأما في المناسبات واللقاءات الرسمية فإن اللباس الرسمي هو باللون الأسود وهو شعار العباسيين ، حيث يرتدي المدعوون العباسيون «الجبة Al-Jabba» وهو رداء بكمين طويلين وعريضين ويمتد إلى أسفل القدم ، ويسد من الأمام بأزرار وتوضع على الرأس القلنسوة ، وهي عبارة عن قبعة مقلوبة محاطة بعمامة من الكتان أو الحرير ، ويكون السيف في الخصر مرتبطاً بالحزام كجزء مكمل للزي الرسمي آنذاك . . أما الخليفة فإنه يرتدي جبة سوداء مطرزة بالذهب ويضع على كتفيه البردة ويمسك بالعصا إضافة إلى سيفه . وهذه الاحتفالات تقام إما بمناسبة تقليد الأنواط وتكريم المدعوين وإما بمناسبة تشكيل حكومة جديدة وإما عند استقبال السفراء . ويأخذ الاحتفال طابع الأبهة والترف لإبهار السفراء لينقلوا إعجابهم وانطباعاتهم عن عظمة أمير المؤمنين إلى ملوكهم وسلاطينهم . ولعل أضخم احتفال هو ذلك الذي جرى بمناسبة زواج الخليفة المأمون «ببوران Buran» بنت الوزير «الحسن بن سهل Al-Hssan Ibn Sahl» وقد تجاوز في أبهته وبذخه أي احتفال آخر في ذلك العصر ، إذ أصبح أسطورة بين الناس على مدى قرون عديدة . فقد كلف حفل زواج الحسن بن سهل والد العروس خمسين مليون درهم وهو مبلغ خيالي في ذلك الوقت . أما زبيدة فقد أنفقت ٣٥ مليون درهم ، وصرفت أميرة عباسية أخرى «٢٥» مليون درهم .

يقول المؤرخون إن الوزير الحسن أطلق في الهواء بالونات من المسك بحجم البطيخة ، تحمل في داخلها سندات لملكية أرض أو عبيد أو عقار ، ويكفي للمدعو المحظوظ تسليم هذا السند إلى أمين الصندوق لتسلم الهدية التي تعد كل واحدة منها ثروة كبيرة . أما حماة العريس فقد كانت تنثر اللؤلؤ على أقدام ابنتها وصهرها لكي يركع المدعوون عند أقدامهما ليلتقطوا الجواهر ، فيما نثرت جدة العروس عليها طبقاً من اللؤلؤ الدقيق تعبيراً عن اعتزازها بالعروس زوجة الخليفة . وبهذه المناسبة أهدت

زبيدة «بوران Buran» صداراً مشهوراً مطرزاً بالماس كانت تلبسه «عبدة Abdah» زوجة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وكانت أزراره من الياقوت . . استمر الاحتفال بهذا الزواج سبعة عشر يوماً وزعت فيها الآف القطع الذهبية والهدايا الثمينة كالسيل .

ومن الاحتفالات التاريخية أيضاً تلك التي أقيمت بمناسبة خلافة المهدي ، إذ أفرغت الخزينة برمتها وبقيت تعاني العجز مدة طويلة . . أما الخليفة المتوكل فقد أقام احتفالا كبيراً بمناسبة ختان ولده ، دعا إليه (٤٠٠٠) أربعة الآف شخص ، وقد أمر بأن تزين مقاعد المدعوين وأطباق المرطبات بالأحجار الكريمة ، وأن تقدم لهم أطباق مملوءة بالذهب ليحملوا منه ما يشاؤون ملء أيديهم ، وجعل الخدم ينادون (يقول لكم أمير المؤمنين خذوا ما تشاؤون) ثم وزع على أفراد العائلة والخدم مليون درهم ، وأمر الخليفة بأن يقدم لكل مدعو ثلاث بدلات ممتازة ، ووضع لخدمتهم ألف حصان وحمار لنقل الهدايا التي قدمت لهم ، وقد بلغ مجموع المبالغ التي صرفت بهذه المناسبة (٨٦ مليون) درهم في ذلك الوقت . . والحق أن حكايات ألف ليلة وليلة تعكس حياة العباسيين اليومية .

ففي مجلس الخليفة تقوم الجواري الحسان على خدمة ضيوف أمير المؤمنين في نظام خاص في مثل هذا الاستقبال ، إذ يتوزعن في الخدمة إلى مجموعات من ثلاث جوار ، واحدة تحمل وعاء من الذهب والأخرى إبريقاً من الماء المطيب والثالثة قارورة من العطر ، ثم يأتي دور الغلمان ليرشوهم بماء الورد من قوارير جميلة مذهبة ومرصعة . . . وتحكي ألف ليلة وليلة عن زبيدة أنها كانت ترزح تحت ثقل مجوهراتها ، وغالباً ما كانت لاتستطيع المشي بسبب ثقل نعلها المرصع والمزين بالياقوت والماس . وفي بعض الأحيان التي تكون فيها بكامل حلتها تستند في مشيتها إلى وصيفتين أو تحمل في هودج من الأبنوس والصندل مفروش بالحرير والفرو ، ومقابض الهودج الأربعة مصنوعة من ذهب على شكل رؤوس أسد ، في داخل الهودج تفوح رائحة البخور والمسك والعنبر ، وكانت زبيدة تدفع لقاء خدمتها ومدحها ذهباً ولؤلؤاً ، وكانت الكنة على سر عمتها الخيزران التي اشترت في يوم من الأيام قطعة قماش بلغت كلفتها (٥٠٠٠٠) خمسين ألف دينار ، وقد وجدوا بعد وفاتها (١٨٠٠٠) ثمانية عشر ألف بدلة في خزائنها ، وكان أقل ثمن للقماش نحو (١٠٠٠) دينار . أما الأمراء فلم تكن أقمشتهم بأقل من (٥٠٠) خمسمائة دينار للقطعة الواحدة . . .

لقد كانت الاحتفالات واللقاءات محددة بمراسم دقيقة في اللباس والشراب والطعام ، فعلى سبيل المثال إن ألوان الملابس لابد أن تكون منسجمة مع ألوان فرش القاعة وأثاثها من ستائر وسجاد ، بل حتى العطور لا بد أن تكون من الأنواع التي تعطر بها الصالات ، وفي بعض الأحيان يمزج المسك بماء الورد ليرش به المدعوون وأبخرة البخور تتصاعد من مباخر جميلة مملوءة بالعطور لتضفي على المكان السحر والجمال . أما الحلي فإنها تزين الرجال والنساء وعلى السواء ، فالرجل يستعملها خواتم يزين بها أصابعه والمرأة تضعها على الصدر واليدين والساقين والقدمين ، والكل يتنافسون في الأناقة سواء كن جواري أم محظيات نبلاء أم أمراء ، وفي الأخص البرامكة الذين كانوا المثل في الترف والإسراف . . كان جعفر البرمكي يرمي ملء يديه ذهباً إلى الشعراء والموسيقيين وكان قصره يضاهي قصر الخليفة ، فكان لا يتردد في صرف مبالغ خيالية للحصول على قطعة قماش أو تحفة نادرة حتى أصبح المثل الذي يقتدي به النبلاء والتجار في اللباس والسلوك كل حسب إمكانيته . .

الحاشية والمقربون

تقضي تقاليد القصر أن يكون هناك حاجز بين الخليفة والآخرين ، فهم لا يحق لهم أبداً التحدث إليه أو التكلم معه ، وعند الضرورة القصوى فإن السؤال يوجه والسائل في حالة سجود ، إلا أن هناك فريقاً عدده محدود من الأشخاص يحق لهم وحدهم التحدث إليه بل حتى مناقشته وهؤلاء يطلق عليهم «الندماء» ومفردها نديم .

كان الأمويون وقبلهم الساسانيون محاطين بالمستشارين الأذكياء والموهوبين ، والخليفة السفاح هو أول عباسي استفاد من هؤلاء ولكن من وراء حجاب ، واقتدى به المنصور . أما المهدي فهو أول خليفة يختلط بهم ولكن منع ولديه الهادي وهارون من الاختلاط بهم وإلا فإن عقابهم الجلد بالسوط ، وبعد أن أصبح الهادي خليفة اتخذ بعضهم للمشاركة في مجالس السمر ، أما هارون فقد طور هذه العلاقة فاختار الأشخاص الأذكياء والموهوبين في الأدب والفن والعلوم والفقه ، ومنحهم مرتبة العلماء التي هي رديف لكبار النبلاء ، كما حددت مهامهم بتقديم المشورة وتسلية الخليفة . . كانت رواتب الندماء عالية جداً ، ومع ذلك فإن الخليفة يغدق عليهم الهدايا النقدية والعينية ويكن لهم احتراماً كبيراً ، فقد منح المغني إبراهيم الموصلي مكافأة نقدية مقدارها (٤٠٠٠) أربعة الآف درهم لقاء تأليفه قطعة موسيقية نالت

إعجاب الخليفة . . ومن المعلوم أن مهمة النديم ليست بسيطة ، فهو يبتعد عن السوقية في التسلية ويتحاشى الفوقية في التعليم ويتمتع بالجد والفكاهة في آن واحد . . يستطيع الدخول في أي حديث ببراعة وفي كل المواضيع بما فيها فنون الطهي ، إذا طلب إليه الخليفة ذلك فإنه لا يتردد أن يطبخ ألذ الأطعمة[١] . .

ويجب على النديم أيضاً أن يتمتع بصفات أخرى من أجل مسايرة الخليفة ، فهو لا بد من أن يحسن بمهارة ألعاب الفروسية والرماية وألعاب التسلية الأخرى كالشطرنج ، وبحسب ما يروي المؤرخ المسعودي : فإن الرشيد هو أول خليفة مارس هذه اللعبة[٢] . من المستحيل العيش بالنسبة إلى الحاكم دون تسلية ، وليس هناك أحسن من الشطرنج ، ويروى أن هارون كان قد لعب الشطرنج مع أحد ندمائه وكان الرهان ملابسه التي يرتديها ، فخسر هارون الرشيد الرهان وكان عليه أن يخلع ملابسه . . والحق أن النديم يخضع لضوابط وتعليمات معينة ، إذ إنهم أي الندماء يجتمعون عدة مرات في الأسبوع داخل القصر شتاء ، وفي الحدائق في بقية الفصول ، وللنديم ملابس خاصة . . قميص حرير وسترة بلا أكمام وعمامة من حرير مطرزة بالذهب . . يحيط الندماء بالخليفة أربعة أو خمسة عن يساره ومثلهم عن يمينه ، وواجبهم الرد على أسئلة الخليفة . ورواية النوادر والطرائف أو إلقاء الشعر . . . وعندما يكون ندماء الخليفة إلى جانبه فإنه لايحق لأي منهم تحريك شفتيه أو مقاطعة الخليفة أو مغالطته حتى لو أراد أن يقول شيئا مهماً أو خطيراً ، بل على كل منهم أن يصغي جيداً إلى الخليفة ويوجه كل انتباهه إلى كلامه وإذا ما أجاز الكلام لأحدهم فإن هذا الأخير يجب ألا يتكلم سريعاً وأن يختار كلماته بعناية ، دون أن يحرك يديه أو يهز رأسه أو يتململ في مكانه أو يغير من موقعه ، حتى أن نظراته يجب أن تكون موجهة إلى

---

(١) ذات يوم أعطى الخليفة المتوكل أحد اصدقائه الندماء الذي أعد له طعاما لذيذا (٢٠٠) دينار .

(٢) أولى الرشيد هذه اللعبة أهمية كبيرة ، فقد أمر بتأسيس نواد خاصة للاعبي الشطرنج وهواتها ، فقد نظمت المباريات في القصر وطبعت الكتب والكراسات عنها ، والحق أن أصل هذه اللعبة هندي وقد دخلت إيران ثم العراق ، ومن قواعد اللعبة أن يكون اللاعب أنيقا ونزيها وذا روح رياضية عالية . وقد ذكر التاريخ أسماء ألمع اللاعبين من الرجال والنساء والجواري ، وقد كان الخلفاء والأباطرة يتبادلون قطع الشطرنج المصنوعة من الكرستال أو الأحجار الكريمة .

(٣) الجاحظ : كتاب التاج .

وجه الخليفة فقط[٣] . ومن بين أعز ندماء هارون كان إسحق بن إبراهيم الموصلي الذي كان موسيقياً شهيراً .

كان إسحق فضلاً عن موهبته الفنية معروفاً باطلاعه الغزير في التاريخ والنحو والشعر ، حتى إن هارون قال له ذات يوم : ((لو لم تكن مغنياً لجعلت منك حاكماً)) وقد ورد اسم إسحق عدة مرات في قصة ألف ليلة وليلة ، كان للخليفة هارون الرشيد ، خليفة رسول الله ، وأمير المؤمنين أصدقاء مفضلون ومقربون ، ومن المحبوبين الفنان ذو الأصابع الذهبية التي ما أن تلامس أوتارها العود حتى يطرب الناس نغماً له ، صوت تتعلم منه البلابل ، فإنه الموسيقي بل ملك الموسيقيين ومعجزة الموسيقى في زمانه المغني العظيم النديم إسحق الموصلي . . وقد أهدى له الخليفة الذي كان يحبه حباً جماً قصراً من أجمل قصوره[١] .

أما على صعيد الشعر والأدب فقد كانت القريحة الشعرية لأبي العتاهية تسر الرشيد كثيراً ، وهناك الكثير من الندماء المشهورين بمواهبهم وذكائهم ، والاحتفاظ بهذا المنصب ليس سهلاً ، فهو يتوقف على نشاط النديم ، فمنهم من يستمر طويلاً في هذا المنصب ومنهم من لا يستطيع البقاء سوى مدة قصيرة . ومن ندماء الخليفة المشهورين نذكر الشاعر «أبا نؤاس Abu Nuwas» و«العباس بن الأحنف Abbas al-Ahnaf» أحد كبار الشعراء و «مروان بن أبي حفصة Merwan Ibn Abi Hafsai» و«سالم الكاشير Salm al-Kashir» وهؤلاء كانوا شعراء وموسيقيين . . وهذا الموقع لا يصلح لأي كان ، فالأمير العباسي إبراهيم[٢] أخ الخليفة الرشيد لأبيه المهدي ، كان يحتل مكانة خاصة عنده ، ولذلك لم يستطع البقاء بهذا المنصب سوى مدة قصيرة بسبب صلة القرابة الوثيقة بالرشيد ، والحق فإن الأمير إبراهيم والأميرة علية أخته لأبيه كانا قد تلقيا تعليماً عالياً ومركزاً إذ أصبحا مغنيين وموسيقيين . ((وهذا ما لم يسمح به لا قبل الإسلام ولا بعد ظهور الإسلام)) وعلى الرغم من اعتزاز الرشيد بهما إلا أنه كان يؤلمه أن يرى أخاه وأخته من بين الندماء ، إذ كان يكن لهما حباً وعطفاً كبيراً مما اضطره إلى تعيين الأمير إبراهيم والياً له على دمشق ، ولكن ما إن ترك إبراهيم بغداد لتسلم منصبه حتى حزن الرشيد على فراقه فأعاده إلى بغداد وضمه

---

(١) الليلة ٩٢٦ من ألف ليلة وليلة .

(٢) إبراهيم ابن جارية تسمى شكلة ، وله أخت تسمى علية تكبره بسنتين من جارية أخرى .

ثانية إلى حلقة الأصدقاء المقربين ، فقد كان إعجاب الرشيد كبيراً بفن أخيه إبراهيم ، ولم يكن يضجر من الاستماع إليه ولكن على نطاق عائلي لأنه لم يكن من المألوف أن يطرب الأمير شخص من خارج العائلة . .

لقد كان الغزل في الشعر يثير العواطف لدى الطبقات الأرستقراطية البغدادية كما هي الحال لدى الطبقات الأخرى ، وكان لكل مطرب مشجعون ضد مطرب آخر ، أما كبار الموسيقيين كإسحق فكانوا على المستوى نفسه لمرتبة كبار الشخصيات المهمة . . .

لقد كان الرشيد من هواة الشعر وتترك القصيدة في نفسه أثراً كبيراً ، وبخاصة تلك التي ينظمها أبو نؤاس وأبو العتاهية ويلحنها إسحق الموصلي ويغنيها الأمير إبراهيم برفقة الكورس والفرقة الموسيقية ، وذات يوم صادف وجود الأمير إبراهيم عند الخليفة فسمح له بأن يغني قصيدة من نغم الأهواز أمام مجموعة صغيرة من المقربين جداً للخليفة ، الذين لم يكونوا قد سمعوا إبراهيم من قبل . ولما فرغ من الغناء صفقوا له طويلاً فأمر هارون بأن يكرم فوراً بمبلغ مليون درهم ، وعلى الرغم من ضخامة المبلغ فإنه لم يكن يساوي شيئاً لدى إبراهيم الذي كان لايقل سخاءً وكرماً عن أخيه الرشيد ، ولا يستبعد أنه انفق المليون درهم في اليوم نفسه . وعلى الرغم من أن الرشيد هو الآخر معروف بسخائه فقد أثار سخاء إبراهيم استياء الرشيد منه ، ففي ذات يوم دعا الأمير إبراهيم أخاه الخليفة إلى أكلة سمك ، ولما جيء بالطعام وجد الرشيد أن السمك مقطع إلى قطع صغيرة ، فقال له هارون ما هذا؟ فأجابه إبراهيم أن هذه القطع ما هي إلا ألسن السمك . فقال الرشيد : وكم منها في هذا الطبق؟ فأجاب الطباخ (١٥٠) لساناً يا أمير المؤمنين . فقال له الرشيد : وكم يبلغ ثمنها فأجاب الطباخ (١٠٠٠) درهم ، عندئذ رفض هارون تناول السمك وأجبر إبراهيم أن يدفع اليه (١٠٠٠) درهم ، فأطاع . فقال له الرشيد : إن هذا المبلغ سيدفع صدقة ، وأمره بدفع المبلغ نفسه صدقة أخرى (وأن يدفع بالسمك مع الطبق إلى الفقراء ، ومعلوم أن ثمن الطبق وحده كان (٣٠٠) درهم)[١] .

كان نجاح الأمير إبراهيم في الفن والغناء قد أثار حسد الفنانين الآخرين وحقدهم عليه ، ومن هؤلاء إسحاق «Ishak» وأبوه اللذان حملا عليه غيظاً وكراهية ، وعندما أصبح خليفة مدة قصيرة من الزمن لم ينتقم منهما ولم يلوث يده بدماء أي

(١) المسعودي .

منهما وعاد إلى موقفه نديماً هذه المرة للمأمون الذي غفر له اغتصابه للخلافة مدة قصيرة . .

أما جعفر البرمكي الذي كان من أقرب المقربين إلى الرشيد فإنه كان يختلف بالمظهر عن الأمير إبراهيم ، فالأمير إبراهيم كان طويلاً ممتلئاً ضخماً صارم الوجه ذا سحنة غامضة ، كث الشعر ، في حين كان جعفر رشيقاً وجميلاً وأنيقاً لدرجة أن الأمير إبراهيم تغنى به بقصيدة مطلعها

عندما يوصف جماله ، فإنه كالذهب المصفى كليرة
مصرية قديمة أو لؤلؤة غائصة في عمقها تحيرّ
الصياد ، كالذهب الذي بريقه يمتد على صفحة كتاب

وعندما سمع جعفر هذه الأغنية أغمي عليه من الخجل . . كان جعفر سيد الرشاقة وملك الأناقة ، كان يرتدي دوماً ملابس منتقاة بعناية تامة ، وكان هو الذي يبدأ التقليعة «المودة» ، فهو الذي اخترع الياقة مثلا ليغطي بها رقبته لأنها كانت طويلةً نوعاً ما ، وهو الذي يروي عنه المؤرخون بأنه كان رفيق الرشيد في الليل والنهار ، في جلسات السمر ، في التنزه ، في تفقد الرعية ، وفي التجوال في شوارع بغداد ((أو عندما يريد أن يكتشف شيئاً ما يخص الشعب أو حكومته أو عندما تصل إليه شكوى ضد مسؤول فإنه يشارك جعفر في التحري عن الحقيقة سراً))(١) كان جعفر اليد اليمنى للخليفة ومساعده الخاص ، إنه هو ووالده يحيى كانا يتمتعان بأقوى النفوذ في السلطة من حيث الجاه والمال ، وبقوا كذلك إلى أن غضب عليهم أمير المؤمنين . ولعل اهتمام الخليفة بجعفر هو نتيجة تمتعه بمواصفات عديدة بالإضافة إلى الأناقة والرشاقة ، إذ كان رجل قانون وكاتباً وخطيباً وخطاطاً ، وكان يشترك في الذوق مع الرشيد وخاصة في بداية عصره فتوطدت الصداقة بينهما .

كان جعفر يسكن الجناح الأيمن من قصر الخلد حيث يقيم الرشيد ، ولم تمر أمسية من دون وجود جعفر ، فالاثنان من عشاق الأنس والطرب ، وقد تستمر الأمسية حتى الصباح ، ولكن ذلك لم يكن يمنع جعفر من استئناف مهامه وأعماله في اليوم التالي بكل حيوية ونشاط . . لذلك نرى أن الرشيد عينه والياً على مصر ثم أرسله إلى سورية لإخماد الاضطرابات رغم أن مناصبه في بغداد كانت لاتقل أهمية

---

(١) من ألف ليلة وليلة .

عن مهامه في الأقاليم الأخرى ، فقد كان في بغداد بمثابة رئيس الديوان في القصر ، حيث يقيم هو وأخوه الفضل ، كان جعفر يستمع إلى شكاوى المواطنين والرد على التجاوزات ، وقد بقي يحمل ختم الدولة لفترة طويلة من الزمن ويرأس حرس الخليفة ويدير جهاز المخابرات (البريد) «Barid» ومسؤولاً عن مصانع النسيج والسجاد التي كانت حكراً على الدولة ، بالإضافة إلى مسؤولياته المالية ، حيث كانت قسم من النقود تضرب باسمه . وقد أثبت الكفاءة والقدرة في جميع هذه المهام لما يتمتع به من ذكاء إذ يقول ابن خلدون : ((كان لجعفر باع طويل في الحكومة وإدارة الإمبراطورية))[1] ثم إن الخليفة كلف جعفر بالوصاية على ولده المأمون عندما عين كولي للعهد في حياة الرشيد والأمين بن زبيدة كوريث ثان . . لقد كان لجعفر في بغداد شعبية كبيرة وذلك لما يتمتع به من مرونة ومكانة مرموقة عند الخليفة الرشيد ، فقد كان يستقبل بالهتاف والتصفيق عندما يمر في شوارع بغداد ، وقد تكون هذه الشعبية أحد الأسباب التي أدت الى سقوطه . وهناك من الندماء المشهورين الفضل ابن يحيى الشقيق البكر لجعفر ، وحسبما يقول الطبري فإن الفضل كان أكثر دهاء من جعفر وخاصة في شؤون الدولة ، إلا ان الفضل كان لا يهوى كثيراً الأنس والطرب كجعفر ، وكان يعتذر عن حضور مجالس الطرب والسمر ولكنه كان سخيا أيضاً كجعفر ، وكان يغدق على الشعراء الذين يكيلون له المدح ، بل خصص مكافآت سنوية للبعض منهم . وفي إحدى المرات كافأ شاعراً هندياً بمبلغ (١٠٠٠) ألف دينار ، وحمل بعير وبدلة لقاء قصيدة شعر بالإضافة إلى مكافأة المترجم بمبلغ (٥٠٠) خمسمائة دينار . . لقد كان الفضل جدياً في عمله وذكياً ، وغالباً ما كان يحل محل والده على رأس الحكومة ، وكان يحمل ختم الدولة قبل أن ينقله الرشيد إلى جعفر . لقد بقي الفضل يحظى لفترة طويلة بثقة الخليفة وكلفه برئاسة الحكومات في الأقاليم ، بالإضافة إلى تكليفه بقيادة الحملات العسكرية . . فقد استلم الفضل رئاسة حكومة «إيران الغربية» وقبلها إقليم «الري» وخاصة «خراسان» حيث بذل جهوداً كبيرة باتباع سياسة المصالحة والتهدئة مما زاد من شعبيته في تلك الأقاليم .

للحقيقة فإن الفضل أخ الرشيد بالرضاعة (حيث رضع من الخيزران) ، لم يكن

---

(١) ابن خلدون .

شخصية سهلة القيادة ، كانت الصفة الإمبرالية طاغية عليه ، ومع أن الرشيد استاء منه بسبب تساهله مع بعض حركات التمرد ، فإنه مع ذلك بقي وصياً على الأمير الأمين ، والفضل ساهم في إيصاله للخلافة ، عليه فإن المنافسة بين الفضل وجعفر كانت واضحة ، إذ إن جعفر كان هو الآخر وصياً على المأمون ولي العهد الثاني ، وهذا الصراع أحدث شرخاً في العائلة البرمكية[1] من جهة ومع الخليفة الرشيد من جهة أخرى .

فقد كان ليحيى ولدان آخران ، هما «موسى» الذي عين والياً على سورية و«محمد» (Mohammed) والاثنان كانا من المقربين للخليفة الرشيد لمدة طويلة ، حيث أن أطفالهم وأولاد أعمامهم حملوا لقب الأمير ، وهناك أخ ليحيى اسمه «محمد بن خالد» (Mohammed B. Khalid) عم الفضل ، وجعفر احتل منصب الحاجب للخليفة على مدى تسع سنوات .

كانت هناك عائلة متنفذة أخرى تلتف حول الخليفة الرشيد هي عائلة «الربيع بن يونس» وهي منافسة لعائلة البرامكة ، وفي الوقت الذي تصدعت فيه علاقات الخليفة مع الفضل بن يحيى تعززت العلاقة بالفضل بن الربيع بن يونس . فقد أصبح هذا الأخير حاجباً لجده المنصور ، ولما كان يتمتع به من دهاء وذكاء منحه المنصور الثقة الكاملة وعينه مسؤولاً للشؤون المالية والصرف ثم منحه رتبة «وزير» ، هذه الدرجة كانت يومها درجة شرف أكثر من كونها رتبة مسؤولية ، ثم حل محله ابنه الفضل بدرجة «حاجب» ثم أخذ الفضل يكسب ثقة الخلفاء المنصور والمهدي ثم هارون الذي سلم إليه خاتم الخلافة عام ٧٩٥م إلى أن بلغ مرتبة وزير في عام٨٠٤م سنة نكبة البرامكة . . بقي الفضل بن ربيع مستشاراً فوق العادة للرشيد مسموعاً جداً من زبيدة ، واستمر هكذا إلى أن أصبح الشخصية المهيمنة في القصر وفي الدولة ، ويشرف على كل شؤونها السياسية والعسكرية والإدارية في وقت كان يختلط فيه الجد بالهزل . فالنديم والوزير كلاهما للأنس والعمل . . والقصر لم يكن مقتصراً على هاتين العائلتين «برمك ويونس» وإنما كان يستقبل أيضاً الأمراء العباسيين أو إخوة الخليفة لأبيه ، الأخوال ، الأعمام ، والنسائب وأولاد العم ، وكان من بين الوجوه المعروفة

---

(١) سوف نعرض في الفصول القادمة تفاصيل أكثر عن الدور السياسي للبرامكة .

في القصر «عبد الصمد» (Abd al Samad) الذي بدأ الخدمة في القصر منذ محمد أبو العباس السفاح ، كما كان هناك القائد «هرثمة» (Harthama) الذي مر ذكره ، والقادة الآخرون فضلاً عن «جبريل» (Jibril) طبيب الخليفة والفقيه القاضي أبو يوسف . .

لقد كان القصر عالماً مغلقاً تحاك فيه الدسائس والمكائد . . فئة تقترب من مصدر القرار وفئة تبتعد والكل في صراع من أجل كسب ود الخليفة ورضاه . .

الفصل الثالث

الظلال الأولى على روح التسامح

ثمن السخاء

لعل هناك من يسأل من أين تأتي هذه الأموال الضخمة لكي تغطي سخاء الخليفة والترف المبالغ فيه للنساء والرجال على حدٍ سواء؟ كيف تستطيع أميرة عباسية أن تطرز «بابوجها» بالأحجار الكريمة وتملأ فم شاعرٍ باللؤلؤ؟ هل جاءت هذه الأموال والمبالغ الخيالية من الغزوات والغنائم خلال الفتوحات؟ وهذه مواردها محدودة ولم تستمر طويلاً ، أم من عوائد التجارة؟ . . ورغم أن البلاط كان يحاول تطويرها فإنها بعيدة من أن تسد مصاريف القصر . . إذن ليس أمام القصر سوى مصدر واحد ، معين واحد لا ينضب يغرف منه بدون كلل أو ملل ، ألا وهو الشعب يذله ليبتز منه الأموال اللازمة لهذا الترف .

كان نظام الضرائب عند العباسيين يعتمد في أساسه على الشريعة الإسلامية ، فالمسلمون يدفعون طوعاً الزكاة وهي إحدى الأركان الخمسة في الإسلام ، أما غير المسلمين فيدفعون الجزية وكذلك ضرائب الأرض «الخراج» (Kharadj) . ومن أجل التهرب من الجزية كان الناس من غير المسلمين يعتنقون الإسلام ، أما الخراج فيشمل الجميع دون تمييز في الدين . وهناك الغنائم التي تأتي من الفتوحات ويطلق عليها اسم «الفيء» (Fay) وتشمل ممتلكات الطوائف المندحرة في البلدان المفتوحة ، كالكنائس وعقارات المفقودين والهاربين . وحكم هذه الأموال غير المنقولة يكون إما للاستثمار المباشر للدولة وإما أن يؤول امتيازها إلى أحد الخاصة من العائلة ، أو يكلف أي شخص باستثمارها على شرط أن يدفع الضرائب المناسبة عنها . وهذا النظام يطلق عليه نظام «القطعة او الإقطاع» و هو النظام نفسه المطبق في بيزنطة . إذن الإقطاع هو امتياز لاستثمار جزء محدد من الأموال العامة لأمد طويل . ثم طرأ استثمار من نوع آخر وذلك في القرن الحادي عشر ، نظام «الوقف» (Wakf) ، وهو نوع من الأموال غير المنقولة يخصص ريعها لصالح شخص معين أو مؤسسة خيرية أو جامع أو مرقد أو مستشفى ، ونظام الوقف معمول به حتى اليوم . أما ضريبة «الخراج» (Kharadj) فإنها تدفع إما عيناً وبنسبة تتراوح من ربع إلى نصف المحصول حسب الزرع ، وإما نقداً . والضريبة تفرض حسب مساحة الأرض وطبيعة الزرع ونصيبها في الإرواء . . النوع الأول من الجباية أي العينية تطبق في «السواد» (Sawad) ، أي المناطق المحيطة ببغداد ، والنوع الثاني يطبق على باقي أنحاء الإمبراطورية . . تجبى الضرائب من قبل موظف من الدولة ضمن رقعة جغرافية محددة «دائرة» أو من قبل مزارع ، وفي هذه

الحالة فإن ممثل الضريبة أو المخمن هو الذي يخمن مقدار الضريبة وبتقدير أقل من المطلوب- والفرق بطبيعة الحال يؤول لصالح المزارع . هذا النظام في الضريبة الذي كان يطبق في العصور الغابرة ولا يزال يطبق في بعض البلدان يخلق طبقة من المستغلين بسبب سهولة التحايل والتجاوز عليه ، أضف إلى ذلك إرهاق الفلاح باستضافة جباة الضرائب وتحمل نفقاتهم إلى جانب استغلالهم ، يضاف إلى هذه الضرائب التي تجسد الابتزاز والإذلال أنواع أخرى في نهب المواطنين ، غرامات لمصادرة الثروات والأراضي تحت ذريعة التجاوز غير المشروع ، الإتاوات مقابل حماية الشرطة . .

وفي هذا الصدد ، يبين القس دينس في مذكراته باللغة السريانية ، وهو من أعالي بلاد وادي الرافدين ، حالة الشعب في هذه المنطقة من العالم قبل فترة قليلة من وصول الرشيد ، يقول : كان جابي الضرائب يأمر وينهى كما يشاء ، فيستطيع مثلا اقتطاع أية مساحة من ملك خاص وضمها إلى المنشآت العامة . . أو يأتي جاب آخر ليفرض الضرائب على كل السلع الموجودة في الدكان أو المحلات التجارية ، وينتهي دينس (Denis) بالقول : (كل شيء مكمرك بدءاً من النمل مروراً بالحمام وحتى الدجاج) وبنسب استبدادية وكيفية . .

والضريبة المحسوبة بالنقد يجب أن تدفع فوراً ، الأمر الذي يجبر الفلاحين على بيع محاصيلهم بأي سعر كان من أجل تسديد هذه الضريبة النقدية . وغالباً ما تباع هذه المحاصيل إلى تجار شركاء مع جابي الضرائب ، يدفعون له نصف الأرباح . في حالة التأخير في الدفع أو المماطلة ، فالعقوبة شديدة تصل إلى حد التعذيب . وفي حالة المساعدة والرأفة فإن الخاضع لهذه الضريبة يسجن لحين تسديدها . . ولما كان الفلاح مضطراً لبيع محاصيله أو حبوبه بثمن بخس ، فإنه يختار في بعض الأحيان الاستدانة لدفع الضريبة ، وإذا لم يفلح فإنه والحالة هذه يضع نفسه وعائلته تحت حماية شخصية متنفذة فتحولهم إلى عبيد أرقاء ، هناك من لا يرضى بيع نفسه فيهرب من جباة الضرائب ويلحق بزملائه الهاربين ، وهكذا تكبر فئة الهاربين ويأتي العاطلون الذين ينتقلون من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة بحثا عن الرزق وعن العمل البديل ، وغالباً ما ينتهي بهم الأمر إلى قطاع طرق . . . وبما أن السلطات مستمرة في مطاردتهم فإنها تلقي القبض عليهم ويختم عليهم بعلامات دائمية ترسمها بالوشم ، وتجبر عشائرهم التي تعد مسؤولة تضامنياً عن أحد أفرادها بدفع المبلغ المطلوب من أجل إنقاذ ولدهم ، عندئذ تجتمع العشيرة وتدفع الفدية لتبدأ رحلة المطاردة والطريدة من جديد ،

هذا الوضع كان يخلق حالة من الرعب تترك آثاراً سيئة على الاقتصاد ، حيث الدولة تكون مضطرة لإيجاد البدائل عن الفلاحين الذين تركوا أرضهم لتسديد النقص الحاصل في الغذاء . . هذا الوضع كان سائداً آنذاك في كل أنحاء الشرق وفي شمال أفريقيا وفي مصر ، التي جعلت من حمل جواز المرور أمراً إجبارياً .

أما في إيران وخراسان وطبرستان فإن مبادئ المساواة الزراعية كانت تلعب دوراً مهماً في إثارة الفلاحين ورفضهم للاستغلال ، هذا الرفض تزامن مع الحركات التبشيرية[1] كحركة «السنباد» (Sanbad) أو «المقنع» (Al-Muqanna) أو ذلك الذي طالب بدم أبي مسلم الخراساني .

وفي الواقع فليس كل ثورات الفلاحين تنشأ من أصل اجتماعي ، كتلك التي حدثت في مصر عام ٧٨٥م ، حيث تلقت السلطات العباسية ضربة قوية إثر النهضة الأموية . ولكن كلما اشتد الفقر والبؤس كلما زاد الصراع السياسي أو الديني ، فنرى التناقضات كانت شديدة في منتصف القرن الثامن الميلادي . ففي الوقت الذي كان الفقر يمزق السكان ، كانت هناك طبقة النبلاء وحاشية الخليفة غارقة حتى أذنيها بالترف والنعيم ، لدرجة أن نساءهم كانت تجد صعوبة في التنقل لكثرة الحلي التي يتزين بها .

فالمنصور (Mansur) أحد أكبر الحكام المسلمين ، كان صارماً في مسألة استحصال الضرائب ، حيث يقول الطبري : المنصور أكثر الخلفاء العباسيين بخلاً ، لم يغير أو يطور النظام الضريبي للأمويين والذي أقيم بالأساس على الاقتصاد الزراعي ، وكان يختلف في التطبيق من إقليم لآخر ، حيث سكان المدن يدفعون أقل مما يدفع الفلاحون في الريف وذلك بسبب سرعة التمدن . . فالتجار الأغنياء يتهربون من دفع الضرائب ، يدفع أو لا يدفع حسب مزاجه ، حتى إن البضائع المستوردة لا تفرض عليها ضريبة إلا شيئاً بسيطاً ، والكثير من التجار يتهربون منها بمختلف الطرق والوسائل . وقد حاول المنصور تشديد السيطرة ولكن دون جدوى ، كان كل الثقل جاثماً على كاهل الفقراء والفلاحين حيث سهولة السيطرة عليهم ومحاصرتهم .

وفي عهد الخليفة السخي المهدي ، الذي لمسنا مدى حاجته للمال لسد مصاريف البذخ والترف ، أعفى الشرطة من استحصال الضرائب ، وهو بلا شك إجراء جيد ،

---

(١) انظر الملحق بهذا الكتاب حول الحركات التبشيرية .

ولكن أوجد وسيلة أخرى في استحصالها أشد وأقسى . . ورغم التطور الزراعي في عهده إلا أن الوضع المعاشي للفلاح قد تدهور كثيراً . . أما البرامكة فإنهم لم يفعلوا شيئاً لمعالجة الوضع الاقتصادي ، فقد كان هم الوزير اللامع يحيى البرمكي ينصب في إرضاء الخليفة وتغذية خزينة الدولة وخزينة الخليفة بالمال ، بالإضافة إلى تطوير ثروته وثروات العائلة البرمكية . فمثلاً كان لايتورع عن مصادرة الأراضي ليسجلها باسم الخليفة أو باسم أحد أفراد عائلته ، بل إن كل الأملاك والعقارات المهجورة أو المتروكة كالبيوت والدكاكين والأراضي العائدة (لأعداء) الدولة والإسلام ، تؤول ملكيتها إلى الخليفة وعائلته . . فهو على رأس الملاكين وهو على رأس الأغنياء والمستثمرين . . على سبيل المثال . . كان هناك مدير أعمال خاص مكلف بإدارة أموال واستثمارات الأميرة زبيدة في مصر[1] . . فالوزير يحيى المعروف بدهائه في شؤون الاقتصاد والمال لم يكن يعير أي اهتمام لحال الشعب ، ولم يكن يفكر قط في إصلاح النظام الضريبي ، ولم يبد أي اهتمام بمشاريع الإصلاح التي كان يفرضها بعض المختصين من حاشية الخليفة ، بل كان يشدد على جباية الضرائب ويتفنن في كيفية استحصالها بأسرع وقت وأقصر طريق ، والأمر من ذلك أنه كان يجبر الفلاحين على دفع الضريبة بغض النظر عن نتيجة المحصول . كان يحيى يعين موظفين مختصين فقط لمتابعة استحصال المبالغ المستحقة . ففي منطقة الموصل كانت الإجراءات صارمة ، ذلك أنه حتى حيوانات الحقل كانت مشمولة بالضريبة ، وكانوا يجبرون الفلاحين على دفع المستحقات السابقة بما في ذلك العرب الذين كانوا يتمتعون ببعض الإعفاءات الضريبية .

لم يستطع فَلاحو الموصل تحمل هذا الضغط فثاروا ضد السلطة وهرب القسم الآخر بشكل خاص إلى أذربيجان حيث شكلوا قوات شهرت السلاح لتعلن احتجاجها ومطالبتها بإزالة الفوارق والامتيازات فانضمت إليهم عناصر أخرى سيما وأن منطقة أذربيجان منطقة حساسة حيث حركات الخزر قائمة باستمرار .

---

(١) لقد كانت الخيزران تملك عقارات وضياعاً كبيرة في بغداد وفي المناطق المحيطة بها ، والتي كان يطلق عليها «بالخيزرانية» ، وقد كانت وارداتها تصل الى (١٦٠) مليون درهم سنويا ، وكانت تدير بنفسها هذه الأموال يساعدها في ذلك سكرتيرها «عمر بن مهران» .

الاضطرابات الاجتماعية والدينية

رافق الحركات الاجتماعية في مصر وشمال أفريقيا عصيان ضد الإسلام . في عام ٧٦٧م دحر المصريون القوات الإسلامية القادمة من الفسطاط لإعادة الأمن ، ولم يستطع العباسيون آنذاك استعادة مدينة القيروان وإخماد الثورة فيها إلا بعد خمس سنوات ، ذلك لأنهم كانوا مشغولين مع «البربر» (Berbers) . وفي عصر الرشيد ثار العرب القاطنون في شرق «الدلتا» في منطقة الحوف (Hauf) إثر فرض ضريبة على الأراضي المستصلحة حوصر فيها الوالي وقتل ، عندئذ ، أرسل الرشيد قوات جديدة بقيادة القائد هرثمة بن أعين (Harthama bin Ayan) انطلقت من سورية لسحق المتمردين ، وفي عام (٧٨٩م) تعززت هذه القوات بعشرة الآف رجل تدخلوا فوراً ضد الفلاحين الذين ثاروا عقب فرض الوالي زيادات جديدة على الضرائب .

في عام (٧٩٣م) أرهق السكان بضرائب جديدة أدت هذه المرة إلى مجابهة جادة ، مما اضطر الحكومة إلى إرسال تعزيزات لاستتباب الأمن ، الذي لم يستمر طويلاً حيث لم تمض سنوات إلا وثار الناس على الضفة الأخرى من البحر الأحمر في جنوب سيناء ، ومنها انتقلت إلى الفسطاط ، حيث كانت الحكومة تريد دفع ثلث رواتبهم نقداً وثلث من الحبوب والثلث الأخير قماش[1] . أما في خراسان وإيران الغربية فإنه تُضاف إلى هذا الاستياء والامتعاض أسباب أخرى ، ناتجة عن العنف والقسوة في هذه الأقاليم التي انطلقت منها الثورة العباسية ، الأمر الذي ساهم في إيجاد أرضية خصبة لظهور الحركات التبشيرية وتنامي المعتقدات المحلية والتنصل من الإسلام . ومن أجل أن يدعي أي شخص «النبوة» أو يتقمص شخصية أبي مسلم ، ليس عليه سوى أن يجمع حوله البؤساء والمحتاجين والفقراء المستعدين للاعتقاد بأي كان ، مجرد أن يعدهم بتحسين أحوالهم المعاشية ، لذلك فإن سكان هذه المناطق استقبلوا كل الحركات الدينية ذات الأصول الفارسية أو البوذية رغم أن هذه الطقوس لا تمت بأي صلة للإسلام ، وانما كان الهدف منها العداء للسلطة .

إذا كانت السلطة في عصر الرشيد قد فقدت شعبيتها في أغلب الأقاليم الفارسية ، ففي خراسان وطبرستان كانت حركة المقنع (le prophete voilé) من أخطر الحركات ، وقد قمعت بصعوبة بالغة ، ولكن حل محلها حركة المحمرة

---

(١) طبقاً لما يقوله Givet «تاريخ الأمة المصرية» .

(Muhammira) التي اعتنقت مبدأ مشابهاً لمبدأ المقنع ، ثم تبعتها حركات أخرى «كالخرمية» (Khurramiya) القريبة من «المازودية» (Mazdeisme) وحركات أخرى غيرها في عام ٧٩٦م . وبعد سنين عديدة من القتال المرير فإن قوات الرشيد استطاعت أخيراً أن تضع نهاية لهذه الحركات .

ما كاد الهدوء يسود خراسان إلا واندلعت الاضطرابات في المناطق الواقعة على ضفاف بحر الخزر ، ولكن اتسمت هذه المرة بالطابع العلوي والخارجي ، حيث أعلن يحيى بن عبد الله (Yahya B. Abdallah) أحد أحفاد الحسن ثورة ضد العباسيين ، وانضم إليه رؤساء العشائر وجمع غفير من سكان المنطقة ، الأمر الذي أخذ يهدد الخلافة العباسية . . . ولما كانت القوات المحلية غير كافية لمجابهة انتفاضة حفيد سبط الرسول ﷺ ولا تستطيع أن تحرز أي تقدم بل على العكس أخذ أنصاره بالازدياد ، أناط الرشيد في عام ٧٩٢م مهمة سحق هذه الانتفاضة إلى الفضل بن يحيى البرمكي ، الذي جهز جيشاً كبيراً وتوجه إلى الأقاليم الغربية في إيران لملاقاة يحيى ، وفي الحقيقة فإن هذا الاختيار كان أحسن وسيلة مضمونة لإعادة الأمور إلى نصابها .

عندما وصل الفضل إلى منطقة العصيان كانت الظروف الجوية سيئة لا تسمح بشن العمليات العسكرية . . ثلوج ورياح وأمطار . . إلخ ، عندئذ أراد الفضل بن يحيى أن يستغل هذه الفرصة لحل الصراع سلمياً ، فدعا يحيى إلى التفاوض مقابل ضمانات مقبولة وأكيدة حيث قبلها ، وبناء على ذلك أعد اتفاق السلام ووقعه الخليفة هارون من جانب الحكومة ، والعلماء والهاشميون في بغداد من جانب يحيى ابن عبد الله . بعد هذا الاتفاق انسحب يحيى إلى المدينة ، ولكن قتل هناك رغم قسم الأمان الذي تعهد به الرشيد . . .

أما الفضل الذي نجح في إنهاء التمرد دون إراقة دماء ، فإنه اتخذ احتياطات كبيرة في تلك المنطقة لكي لا يتكرر مثل هذا العصيان ، حيث أقام فيها المعسكرات والثكنات وشيد الجوامع وخاصة في «بخارى» (Bukhara) ، وحفر قناة للري في «بلخ»[1] (Balkh) . . وبعد أن أنهى هذه الأعمال طالب السكان بدفع الضرائب المستحقة عليهم ، وعاد الهدوء إلى هذه المنطقة التي تمتد إلى «كابل» و «باميان»

---

(١) كما حول المعبد البوذي لهذه المدينة الى جامع ، وفيه استحدث لأول مرة طريقة الإضاءة المتدلية من السقف (الثريات) ثم انتشرت في العالم الإسلامي .

(Bamyan) التي فتحت لأول مرة . . وبعد أن شهدت هذه المناطق الهدوء سحب الفضل بن يحيى فيلقاً من خمسين ألف جندي ، وأخذ منهم ألفين وأرسلهم بقيادة هرثمة إلى المناطق الغربية من الإمبراطورية ، والبقية رابطت في بغداد كجيش ردع وتدخل سريع ضد حركات العصيان . ومن المعلوم أن هذا الجيش كان ولاؤه إلى البرامكة أكثر من ولائه للأبناء ، رغم أنهم أطلقوا عليه جيش العباسية والذي سنفصل عنه فيما بعد . .

وبالرغم من إخماد ثورة يحيى بن عبد الله ، فإن مخاوف الرشيد من العلويين لم تتبدد بل على العكس ، فقد توجه هذه المرة ضد الإمام موسى الكاظم[1] الحفيد المباشر للإمام الحسين بن علي قتيل كربلاء ، وكان قد ألقي القبض عليه من قبل الخليفة المهدي ثم أطلق سراحه ، حيث لم يكن لديه نشاط سياسي ، لكن هارون الرشيد ألقى القبض عليه ثانية وأودعه السجن حيث توفي فيه ربما وفاة طبيعية إلا أنه يتهم الرشيد بقتله . .

وهناك أيضاً حركات دينية أخرى ذات طابع اجتماعي هزت الإمبراطورية العباسية ، معظم هذه الحركات كانت تنطلق من الخوارج ، هذه الطائفة من المسلمين الذين ظهروا بعد معركة صفين عام (٦٥٧م) ويعتمدون في عقيدتهم على مبدأ التحكيم الحر وحق اختيار زعيمهم بحرية سواء كان عربياً أو غير عربي ، وطالبوا بحق الانتفاضة ضده ورفضوا فكرة الخليفة الواحد ، ورغم أنهم انقسموا إلى عدة تيارات إلا أنهم جميعاً ناضلوا ضد السلطة القائمة[2] . . . ومنذ السنوات الأولى من حكم هارون اندلعت انتفاضة كبيرة للخوارج في منطقة «نسيب» في الجزيرة بقيادة أحد

---

(١) الإمام موسى الكاظم من الشخصيات المهمة في تاريخ الشيعة ، وهو أخ اسماعيل الذي كان قد عينه والده الإمام الصادق خلفا له . ولكن اسماعيل توفي قبل أوانه ، ومع ذلك فإن أنصاره انضموا الى ولده محمد ، ومن هناك نشأت فرقة الإسماعيلية ويستمدون عقيدتهم من مبدأ فلسفي متقدم فكريا وجماعة أخرى تبعت الإمام موسى الكاظم الإمام السابع للشيعة ، وهم يعتقدون بظهور حفيده الإمام المهدي الذي اختفى عام ٩٤٠م .

(٢) ثورة الأزاريق اندلعت في البصرة عام ٦٨٤م وهي أخطر ثورة امتدت إلى خراسان والى فارس وفرمان ، ولم تتم السيطرة عليها الا عام ٧٠٠م بعد قتال دام . . كما اندلعت انتفاضات أخرى حشد لها الأمويون قوات كبيرة من العراق وسورية وشمال إفريقيا وبشكل خاص من طرابلس .

زعماء القبائل «الوليد بن طريف» على رأس ثلاثين ألف فارس ، قاد طريف الثورة متجهاً نحو أذربيجان وأرمينيا وأخضعها لسيطرته لفترة من الزمن . ومن أجل سحق هذه الثورة اختار الرشيد القائد «يزيد بن مزيد الشيباني» (Yazid B. Shaybani) الذي كان قد عارض خلافة الرشيد بعد وفاة أخيه الهادي ، وهو من أحسن المحاربين الذين شاركوا مع هارون في القتال ضد البيزنطيين . . وفعلاً أحسن الخليفة في اختيار يزيد حيث أنه قضى على ثورة الوليد بن طريف وأعاد الأمن إلى المنطقة . . .

وفي خراسان في منطقة «حيرات» (Heart) اندلعت ثورة على غرار ثورة طريف وللأسباب الدينية والاجتماعية نفسها حيث انتفض الخارجي «حمزة بن أدراك» (Hamza B. Adrak) وأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين بعد أن قتل الوالي ، ثم اندحر بعد معارك دامية وتراجع الى «سيستان» (Seistan) ومنها الى «فرمان» (Firman) ، وكان على هارون أن يقاتل عدة سنوات لإخماد هذا العصيان المسلح ، المستند إلى عمليات إرهابية ، ومن أهداف هذه الانتفاضة دعوة كل مؤمن للنضال ضد نظام الخليفة وكل من يتعاون معه . هذه الثورات والانتفاضات المنظمة تنظيماً جيداً من حيث السلاح ووسائل الإعلام المدهشة لم تجهض إلا في عام ٨٢٠م وعلى أيدي سكان «نيسابور» ، الذين كانوا ينتظمون في فرق الدفاع الذاتي . وفي الواقع أن تمادي السلطة في اضطهادها وقمعها وقسوة بعض الولاة في هذه المقاطعات والأقاليم هو الذي أضاف إلى الاستياء الطابع الاجتماعي والصراع الديني ، ذلك أن بؤس الناس يشجع دائماً على الثورات والانتفاضات ، وخاصة عندما يرافق هذا البؤس طغيان الحاكم فيزيد البؤس غماً وحزناً ، أضف إلى ذلك فإن الحقد الديني هو الآخر يمكن أن يولد قوة جبارة لا تعد من باب الهوس والجنون أو الخرافات ، وإنما تحتل مكان الصدارة بين العواطف الجياشة في تحريك مشاعر الإنسان واندفاعه . . لقد بدأت الاضطرابات والقلاقل والمشاكل الاجتماعية والسياسية والدينية تقض مضجع الإمبراطورية العباسية منذ السنوات الأولى من حكم هارون الرشيد ، فقد كانت الحركات والانتفاضات تشوه الواجهة البراقة للعباسيين ، بل تهدد الإمبراطورية وتعرض كل منجزات العباسيين والأمويين إلى الخطر .

وفي الواقع ، فإن نظام مركزية الحكم في بغداد ، والمتمثلة بسلطة هارون الرشيد والبرامكة ، في كل ما يتعلق بالقرارت وحتى المتعلقة بأبعد ولاية أو مدينة في الإمبراطورية ، هو الذي جعل من الإمبراطورية منطقة ملتهبة . . ورغم أن نظام البريد

آنذاك كان نظاماً جيداً يؤمن بسرعة وصول الأخبار والحوادث التي تقع في المدن البعيدة ، إلا أنه مع ذلك كانت تصل متأخرة بحدود أسبوع أو أسبوعين إلى أسماع الخليفة أو الوزير ، ثم إن الوالي لا يتمتع بنفس القوة والصلاحية التي تخوله حل المشاكل أو سحق الحركة بشكل فوري مثلما يقوم بها الخليفة أو وزيره . . . . لذلك نرى أن الخليفة في هذه الحالات يوفد شخصاً مخولاً ويمنحه صلاحيات واسعة في تلك الولاية ، فنلاحظ انه ما أن يرسل الفضل إلى إيران وجعفر إلى سورية على سبيل المثال سرعان ما يستتب الأمن ويعود الهدوء إلى تلك المناطق ، وسبب هذا الإجراء على ما يبدو لنا هو أن عدد القوات المحلية لم تكن كافية للسيطرة على الأمن والنظام ، رغم أن التجنيد كان سهلاً . . وحتى إذا كان العرب يتهربون من الانخراط في الجيش فإن إيران وخراسان كانتا المعين الذي لا ينضب في تزويد الجيش بألوية من الجنود ، ولكن الوقت والظرف لم يسمحا بعد للخلفاء أن يسلموا الدولة وأمنهم الشخصي إلى مرتزقة[(١)] لهم .

الرشيد يمارس سلطاته

انتهت الفترة الأولى من حكم هارون الرشيد ، وأصبح الأمير الشاب القليل التجربة حاكماً واسع الصلاحيات وذا سلطات غير محددة . . وهذا لا يعني بأن أمير المؤمنين كان لعبة بأيدي النساء وبأيدي البرامكة ، وخير دليل على ذلك قراراته التي اتخذها ضد رأي يحيى البرمكي بل وحتى ضد الإمبراطورة والدته الخيزران . . . لقد كان للرشيد مزاج غريب ، فهو سريع الغضب ، واثق من نفسه ، يتمتع بفراسة قوية وخاصة تجاه كل من يمكن أن يعرض نظامه للخطر ، فهو الذي أمر بإلقاء القبض على الإمام موسى الكاظم ، وهو الذي اغتال يحيى بن عبد الله . وفي الواقع فإن الرشيد لم يكن لعبة بسيطة للتسلية كما جاء في وصف أساطير الشرق له . . . كان رجلاً لا يطيق معارضته ولا حتى مغالطته ، شأنه شأن الكثير من رؤساء الدول . كان يفضل أن يلتف حوله رجال مرنون أكثر من أن يكونوا مشهورين أو لامعين ، وقد يكون الفضل بن يحيى البرمكي خير مثال على ذلك . . .

ورغم أن هارون رجل الدولة والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، فإن الفضل لم

---

(١) كان المرتزقة في معظمهم آنذاك من الأتراك ، وقد بدأوا يظهرون في الحرس الشخصي للخليفة .

يتردد في الاصطدام به ، بل وصل الأمر به إلى عدم تنفيذ العديد من قراراته . . . وسبب هذا الاصطدام هو المزاج المتذبذب للخليفة ، الذي قاد في النهاية إلى مأساة البرامكة المعروفة . ولعل هناك سبب آخر في غضبة الخليفة على البرامكة ، الا وهو نجاحهم الفائق في استيعاب الصراعات والمشاكل والثورات ، وخاصة بعد تسوية مسألة ثورة يحيى بن عبد الله في خراسان ، حيث اتهمه الخليفة بتعاطفه مع العلويين . ورغم أن الفضل عندما عاد منتصراً من خراسان أغدق عليه الخليفة وأغرقه بالتهاني ، ولكن لم يسلمه بعد ذلك أي منصب ، إلى أن أقاله من جميع وظائفه الإدارية بعد عدة سنوات .

وهكذا أناط الرشيد منصب والي خراسان إلى علي بن عيسى بن ماهان (Ali b. Isa b. Mahan) ، الذي ارتكب أخطاء تفوق أخطاءه في هذه الولاية ، ولكن الذي كان يشفع له أنه كان محسوباً على التيار المعارض للبرامكة ، إضافة الى أنه كان آمر جيش «الأبناء» (Abnaa) الذي أظهر استياءه عندما شكل جيش العباسية بقيادة الفضل بن يحيى في الأقاليم الشرقية ، كما أن الوحدات السورية-العراقية هي الأخرى لم ترحب بتشكيل فيلق العباسية . .

عبثاً حاول يحيى البرمكي معارضة تعيين عيسى بن ماهان والياً لخراسان ، باعتباره شخصية غير كفؤة ، الا أن الخليفة كان يريد من ذلك خلق حالة توازن مع نفوذ البرامكة . وهكذا ، وفي الوقت الذي كان نجم الفضل بن يحيى يأفل تدريجياً ، كان نجم منافسه وخصمه الفضل بن الربيع يتألق في سماء السلطة والحظوة عند الخليفة . . . وما أن حل ابن الربيع حاجباً محل محمد بن خالد البرمكي شقيق يحيى ، حتى التف حوله كل من يعادي آل برمك ، وقد دلت كل هذه الإجراءات إلى قرب نهاية هذه العائلة بعد عشر سنوات من حكم الرشيد .

الرقة Raqqa

جزع الرشيد من بغداد المدينة التي شيدها جده المنصور ، مع كل ما تحمل من مجد ، إذ لم يعد يحب هواءها ولم ترق له ، ثم إن العيش وسط جيش الأبناء والمقربين ومشاكلهم كان يضايق الخليفة . . هذا بالإضافة إلى النمو المتزايد لسكان العاصمة ، الذي أخذ يخنق المدينة . وبما أن الرشيد كأسلافه يحرص كثيراً على أمنه الخاص ، فإنه لم يعد يشعر بالارتياح فيها . عليه فكر مراراً بترك بغداد ، فقد عزم في

البداية على بناء قصر عند أسفل جبل «زاكروس» (zagaros) في إيران الغربية ، ولكن مرضه المفاجئ حال دون ذلك وعدل عن الفكرة . وبعد سنتين شيد قصراً في منطقة الموصل ولكن لم يقم فيه ، وفي عام ٧٩٦م ، قرر وبشكل نهائي الإقامة في «الرقة» (Raqqa) التي تقع في الجزيرة على الضفة اليسرى من نهر الفرات ، في الموقع الاثري نفسه لمدينة كالينيكوس[١] (Kallinikos) . . .

ولكن لماذا الرقة؟ هذه المدينة البعيدة عن بغداد وعن وادي الرافدين ، خاصة بعد أن أصبحت مركزاً تجارياً وفكرياً للإمبراطورية؟ وإذا كانت المسألة الأمنية هي السبب في ترك بغداد لكان الرشيد قد ترك في قصر الخلد خزائنه ونساءه وأطفاله . اذن من المحتمل أن يكون هذا القرار قد اتخذ في معظمه لاعتبارات عسكرية ، سيما وأن موقع هذه المدينة يقع بالقرب من حدود الإمبراطورية البيزنطية ، وإذا أردنا العودة قليلا إلى الوراء لتذكرنا أن الرشيد عندما كان في سن الخامسة عشرة من عمره استلم من والده قيادة حملة ضد بيزنطة ، وعندما اقترب من القسطنطينية (أسند رمحه على أسوارها)[٢] .

وما كاد الرشيد يتربع على عرش الخلافة إلا وقد أمر بتعزيز نقاط السيطرة على طول هذه الحدود ، وبالتأكيد لم تكن هذه الاستعدادات للدفاع فقط ، ذلك لأن بيزنطة لم تكن تشكل خطراً على الإمبراطورية العباسية ، ولكن الرشيد كان عقد العزم منذ بداية حكمه على شن الحرب ضد اليونانيين ، الأمر الذي يفسر حرصه على إقامة القواعد القوية في وديان جبال طرطوس ونقل إقامته بالقرب من الحدود مع بيزنطة في الرقة ، هذه المدينة التي كان يسكنها المسيحيون واستولى عليها العرب عام ٦٣٩م . في الواقع كانت هذه المدينة استيقظت من سباتها عندما شيد المنصور في أحد أطرافها مدينة جديدة أطلق عليها اسم «الرفقة» (Al Rafika) ، وعندما أعاد الرشيد بناء مدينة الرقة اندمجت المدينتان لتصبحا تجمعاً سكانياً جديداً على شكل حدوة حصان تمتد حتى تعانق نهر الفرات . آثار هذه المدينة باقية حتى اليوم ، إذ على بعد كيلو متر واحد من الفرات يمكن للمرء أن يلاحظ بوابات المدينة والسورين ، أما تخطيط شوارعها فإنه يشبه شوارع المدينة المدورة (la ville Ronde) (١٥٠٠ متر من

(١) الاسم من سلوقس الثاني (226-256) Kauinikos قبل الميلاد الذي أسسها .

(٢) كما يذكر الشاعر مروان بن حفصة .

الشـمـال إلى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) والسور المدبب كان عرضه بين ٤-٥ أمتار يتوزع عليه ثمانية وعشرون برجاً للدفاع ، وقد استعمل الطابوق المفخور في بناء الأبراج والطابوق الجاف غير المفخور للسور . .

كما أمر الرشيد بربط المدينة بقناة مع الفرات للتزود بالماء ، وبناء جامع كبير على شكل مستطيل بعرض ٩٣ متراً وطول ١٠٨ أمتار في وسط المدينة ، وفي الجنوب الشرقي من الجامع داخل أسوار المدينة شيد قصر الرشيد وقد أطلق عليه «قصر السلام»[١] . . .

كان هذا القصر الفخم يحوي أجنحة تفصلها ساحات وحدائق صغيرة منتشرة على مساحة القصر ، أما من الخارج فكانت الزخرفة قليلة ولا يرى سوى الجدران الجرداء من الطابوق الطيني المجفف (والأسس من الطابوق المفخور) ، وفي داخل القصر كان ينتقل المرء إلى عالم آخر ، حيث الترف في كل مكان ، فالجدران الداخلية مغلفة بالجبس وغطيت بالسجاجيد والمطرزات الذهبية ، إضافة إلى اللوحات الكبيرة ، وقد فرشت الأرض بالسجاد الثمين . .

في هذا النعيم والترف يعيش المئات من الأشخاص في عزلة داخل عزلة ، أي ليس كما هو الحال في قصر الخليفة في بغداد . في هذا القصر تميزت الحياة بطابع التقاليد والمراسيم بشكل أكثر دقة وتحفظاً ، فالرشيد في هذا القصر البعيد أحاط نفسه بأبهة وهالة قدسية ، فهو الأب الروحي والزعيم الديني للمسلمين وأمير المؤمنين «وظل الله في الأرض» ، هذه الصفات جعلت من الرشيد أن يكون أقوى حاكم في زمانه ، وقصره يعتبر من أقدس المقدسات ، لا يخرج منه الا وهو محاط بموكب مهيب من أجل إبهار شعبه ، ومن هذا القصر الذي لم يبق منه اليوم سوى الأطلال التي ترتمي على سهول شرقي الفرات ، يمكن لنا أن نتصور كيف أن الرشيد قد حول الجنائن والبساتين التي كانت تحيط بقصره بالرقة إلى ميادين للصيد والقنص ، على غرار

---

(١) الزائر لهذه الآثار يمكن أن يشاهد زوايا من القصر تتدلى من سقوفه نوع من الزخرفة ، وأول ظهور من هذه الزخرفة المعمارية وجدت في الفن السلجوقي ثم في الفن العثماني . . ولا يوجد أثر آخر لقصر الرقة ، ولكن المخطط العام للقصر يشبه إلى حد كبير القصور العباسية في سامراء ، التي اتخذها أحد أولاد الرشيد المعتصم عاصمة له عام ٨٣٦م .

القصور الأموية التي كانت مشيدة في تلك الصحارى[١] . . .

كان أمير المؤمنين من أحد كبار هواة الرياضة في الهواء الطلق ، وكان فارساً ممتازاً ، لذلك بنى في الرقة ساحة لسباق الخيل . ويروي لنا المؤرخ «الجهشياري» (Jashiyari) كم كانت سعادة وغبطة الخليفة عندما كانت أحد خيوله أو خيول أبنائه تفوز في السباق ، وفي هذه الساحة كان الرشيد يمارس رياضة «البولو» (Polo) والتي كان يطلق عليها اسم «القوكان» (Cawgan)[٢] ، ويبدو أن الرشيد هو الذي أدخل هذه اللعبة إلى عالم الرياضة ، وذلك عندما كان يقيم في الرقة ، وفي الواقع فهي واحدة من الألعاب التي كان يمارسها أمير المؤمنين بالإضافة إلى ألعاب أخرى «كالطباب» (Tabab) و«البرجاس» (Birjas) التي هي عبارة عن رماية سهام من على ظهر الجواد أو إمرار رمح من فجوة اسطوانة ، وهذه الأخيرة أدخلت في ألعاب الجيش . . كانت مشاركة الرشيد في الرياضة تعتمد على روح رياضية عالية ، فهو يضع نفسه ومرافقيه في المسابقات على درجة من المساواة ، وهو أول خليفة يضع في خدمته مجموعة من رماة السهام . . لقد أمضى الرشيد ثلاث عشرة سنة من حياته ومن حكمه في الرقة ، وهذا يعني أن إقامته في بغداد كانت قصيرة ، وبعد تركه لها أصبحت زيارته لها نادرة ، بل حتى عندما كان يأتي من الجنوب يغيّر طريقه كي لا يمر بها . .

هذا الوضع ، أي تشتت الحكومة والإدارة بين بغداد والرقة ، عقد سير أعمال الدولة ، ولكن هكذا شاء الخليفة ، إذ إن المصلحة تقتضي أن يكون في منطقة الحدود ، كما أن إعداد الحملات إلى ما وراء جبال طوروس هي التي كانت تجلب اهتمامه أكثر من شؤون الحكومة والإمبراطورية .

هذا هو خيار الخليفة هارون الرشيد ، وربما كان أحد الأسباب في زعزعة كيانه خلال السنين التي تلت تركه بغداد . . .

---

(١) انظر حول رياضة الصيد لدى الخلفاء العباسيين .

(٢) لهذه اللعبة لباس خاص مع حزام مذهب وجزمة حمراء . . اللعبة عبارة عن رمي الكرة إلى أعلى ما يمكن ، وعادة تكون مصنوعة من الجلد ، فيتناولها اللاعب الثاني من طرف عصاه المقوسة ثم يرميها إلى آخر والآخر وهكذا ، إلى أن تسقط في الهدف الذي يحميه أربعة فرسان من كل فريق ، والعصي تكون من الخشب وطرف كل عصا معقوف إلى الأسفل تماماً كعصي البولو التي تستخدم في النوادي .

الفصل الرابع

السنوات العجاف

«الإمبراطوريات كالأفراد ، لها حياة ووجود ، تمضي بها السنون فتصل إلى عمر النضوج ثم تبدأ بالانحدار»

ابن خلدون

رغم أن السنين الأولى من حكم الرشيد لم تخل من الاضطرابات والأزمات، فإن ذلك لم يكن يؤثر في شيء على أمن وسلامة الإمبراطورية، إلا أن كل المعطيات أكدت أنه في اللحظة التي قرر فيها هارون الرشيد ترك بغداد إلى الرقة، كانت تلك اللحظة هي نقطة التحول في وضع حد لحالة التسامح في الدولة . .

ولكن هل هذا يعني أن الرشيد كان يستعد للانفصال عن البرامكة . . . ؟ الجواب عن هذا السؤال سنجده على الصفحات التالية، ومع ذلك فإن ضجر الخليفة من وجودهم كان يزداد يوماً بعد يوم، وكانت الحاشية وبشكل خاص النساء يشعرون بهذا الجفاء بين أمير المؤمنين والبرامكة، حيث نرى نجم الفضل بن الربيع خصم البرامكة يتألق عالياً في سماء السلطة . . . أما بالنسبة إلى خطة الرشيد العسكرية فإنه بالإضافة إلى استعداداته العسكرية ضد بيزنطة، فإن علاقاته مع ملك فرنسا «شارلمان» تدهورت بتدهورها مع الروم . . في خضم هذا الوضع كانت مسألة الخلافة تشغل الرشيد كثيراً، وقد أفشى بها إلى أقرب الناس إليه واتخذ القرار ولكن لم يدخله حيز التنفيذ . .

يمكن أن نقول إن فترة الرقة كانت أطول وأصعب فترة في حكم الرشيد بعد السنوات العشر الأولى الغنية باللهو والسمر . . في الرقة فرضت الظروف على الخليفة مشاكل يومية بعضها مأساوية . هذه المشاكل كانت تعلن عن بداية تدهور الإمبراطورية التي سرعان ما شهدت انفصال بعض الأقاليم عنها معلنة استقلالها التام عن الإمبراطورية . .

تعريض أمن وحدة الإمبراطورية

بلغت الإمبراطورية العباسية ذروتها في نهاية القرن الثامن الميلادي، إذ لم يعرف أي بلد في العالم ازدهاراً اقتصادياً كذلك الذي عرفته إمبراطورية الرشيد في تلك الفترة، أما من الناحية العسكرية فكانت قواته تعد الأقوى في العالم، إضافة إلى تلك الحضارة الراقية التي أعجبت كل من تعرف عليها . . هذه المقومات اجتمعت من أجل أن تجعل من خليفة المسلمين أقوى حاكم في زمانه . . بممتلكاته امتدت من «الأطلسي» إلى «تيان - جان» (Tiens-chan) في الصين لتبلغ مداخل الهند، ومن طوروس إلى باب المندب فالنيل الأزرق . . بالمقابل كانت التفرقة والتمزق قد أضعفت أعداءه بسبب صراعاتهم الداخلية . . فالإمبراطورية البابوية منهمكة في أزمات

كانت آخرها موجه الاستهانة بالكنيسة ، وهذه الأزمة هزت أركان الإمبراطورية . أما بالنسبة لشارلمان الذي توج نفسه في روما ملكاً على الروم فإنه لم يكن منافساً للخليفة ، وفي الوقت نفسه لم يكن صديقاً . إذن كان الرشيد بعيداً من أن يمسه شيء إذ لم يكن له رديف من نفس القوة والنفوذ بل هو أمير المؤمنين ، أمير ملايين المسلمين من عرب وأفارقة مصريين وأتراك وبربر ، يشتركون يومياً خمس مرات في أداء الصلاة ، ويتوجهون جميعاً إلى قبلة واحدة ولغة واحدة وكتاب واحد هو القرآن . هذه العوامل هي التي وحدت الإمبراطورية العباسية في عصر الخلفاء الأوائل من أقصاها إلى أقصاها . . .

لقد استطاع هارون الرشيد أن يطبق الأمن في جميع أرجاء إمبراطوريته ، وجعل من نفسه حاكماً لدولة مركزية على غرار الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية . ومن أجل تجسيد ذلك كانت الحكومة تبذل جهوداً كبيرة في قمع الفتن والاضطرابات والحركات الدينية ، التي كانت تجد أرضية خصبة لدى الفقراء والبؤساء ، ولم تمر سنة دون أن تضطر الحكومة والولاة لأن يتدخلوا لقمع التمرد هنا وهناك . .

كان الأمويون قد اختاروا العرب لحكم الأقاليم وإخضاع شعوبها إلى الأقلية ، أما العباسيون الذين تولوا بعدهم ، فإنهم اختاروا المسلمين من عرب وغير عرب لإدارة شؤون الإمبراطورية ، الأمر الذي جعلهم أقرب إلى تلك الشعوب . ولكن هل استطاعوا الاستمرار في السيطرة على تلك الشعوب التي كانت تظهر اشمئزازها من هذه السيطرة وتتطلع نحو التحرر والاستقلال . . . ؟

لذلك نرى أن الحركات الدينية والاجتماعية التي اندلعت في العقود الأولى من الحكم العباسي أحدثت جروحاً لا تندمل ، بل أخذ نزفها ينذر بناقوس الخطر في أواخر القرن الثامن الميلادي ، ثم إن سعة رقعة الإمبراطورية والمركزية المفرطة أدت إلى استحالة السيطرة على الأقاليم البعيدة ، والدليل على ذلك كثرة محاولات الولاة من أجل نيل الاستقلال والتخلص من سيطرة الحكومة المركزية . . . أما في شمال أفريقيا التي تم فتحها في نهاية القرن السابع ، فإن الإسلام قد انتشر في معظم أرجائها عن طريق الخوارج ، وهم أولئك الذين رفضوا التحكيم الذي كان يوجب المساواة بين معاوية وعلي ، وعقيدتهم تستند على العدل والمساواة ، الأمر الذي ساعد على انتشارها سريعاً بين سكان الريف في المغرب ، ذلك أن رسلهم قد توغلوا بين قبائل البربر إثر اضطهادهم على يد الأمويين في العراق ، مما ساعد على انتشار هذه

البدعة في معظم أنحاء المغرب العربي سواء في الريف أو المدن أو الجبال . . .

في عام (٧٥٧م) وفي عهد الخليفة المنصور ، استولى فريق منهم على طرابلس وجعلوا منها عاصمة لهم . وفي السنة التالية استولى فريق آخر منهم على مدينة القيروان ومكثوا فيها أسياداً لمدة ثلاث سنوات إلى أن استطاع والي الخليفة استعادتها ، ورغم المجزرة التي نتجت خلال عمليات السيطرة ، فإن الموقف بقي ركيكاً إذ ظهر خارجي آخر في «تلمسان» (Tlemcen) اسمه «الأغلب» (Aghlab) الذي استفحل في مجابهته للسلطة ولم تكن إزاحته عملية سهلة . .

في نهاية عصر المنصور أصبح الوضع معقداً جداً ، فالبلاد تحولت من جديد إلى مسرح للجهاد ، والوالي العباسي «عمر بن حفص» (Omar. B. Hafs) حوصر في القيروان وقتل فيها ، فاضطر الخليفة إلى إرسال تعزيزات ثقيلة بقيادة «يزيد بن حاكم» لإخماد الانتفاضة ، وكان قوام هذه التعزيزات (٦٠٠٠٠) ستين ألف فارس من العراق وسورية (الشام) و (٣٠٠٠٠) ثلاثين ألف فارس من خراسان ، مع تجهيزات عسكرية مهمة . . وبعد قمع الانتفاضة قام القائد العسكري بتحصين المواقع الضعيفة وشيد عليها قلاعاً ضخمة للدفاع والمراقبة كانت تسمى «بالرباط»[١] ، كما أصلح القلاع البيزنطية لتكون ثكنات لخيرة القوات العباسية ، ويبدو أن هذه الإجراءات أعطت ثمارها حيث تم القضاء على الخوارج في طرابلس وقتل زعيمها ، واستعاد يزيد القيروان في عام (٧٧٢م) . وخلال خمسة عشر عاماً ، مارس يزيد بن حاكم سياسة القوة والعنف إلى أن مات فخلفه ابنه ثم أخوه . ويعتبر يزيد الوالي الأول الذي يفتح باب الوراثة عند الولاة ، ورغم أنه نظام جيد ولكن لا يخلو من المساوئ . . تجربة وراثة الولاة لم تنجح عند يزيد ، فعائلته لم تستطع الاحتفاظ بالسلطة أكثر من بضع

---

(١) الرباط هو عبارة عن سور محصن بأبراج ، وفي داخل السور أروقة فيها قاعات للصلاة وأخرى للوضوء الى جانب الغرف الصغيرة ، وهو مؤلف من طبقتين كما يوجد برج عالٍ يستخدم لإعطاء الاشارات الضوئية (المشاعل) . هذه القلاع الإسلامية أقيمت بشكل خاص على الحدود البحرية لصد الاعتداءات وخاصة المسيحية ، كما أنها تساعد في شن حملات الجهاد ، والرجال الذين يشيدون مثل هذه القلاع يعتبرون من المجاهدين ، وقد أقيمت العديد من هذه الحصون ذات الأبراج على طول الساحل الإفريقي ، ويقدر ابن خلدون عدد هذه الحصن بـ (١٠٠٠) وهو رقم مبالغ فيه ، ولا يزال قسم من آثار هذه الحصن باقية لحد اليوم في سوسة وصفاقس بالإضافة الى مدينة موناستير .

سنوات . على كل حال فإن البرامكة لم يرتاحوا من وجود عوائل أخرى تشاركهم السلطة في الأقاليم ، وبعد صراع طويل بين مراكز النفوذ في العوائل الحاكمة ، استطاع البرامكة إقناع الخليفة هارون الرشيد بخطورة تعدد مراكز الحكم في الإمبراطورية ، الأمر الذي قاد الخليفة إلى تعيين مستشاره العسكري اللواء المشهور «هرثمة» (Harthama) قائداً عاماً للقيروان . .

وفي الواقع فإن الفضل بن يحيى البرمكي استمر في تهدئة الأوضاع في الإمبراطورية بفضل جيش العباسية ، الذي أسسه في خراسان ، وتعزيز هذه الحدود وبناء التحصينات ، ولعل حصن «المونا‌ستير» (Monaster) الشاخص لحد اليوم في شمال أفريقيا خير دليل على متانة هذه القلاع وقوتها ، ذلك أن الرشيد كان قد أمر شخصياً ببنائه لسد الطريق على الإسبان .

لم يستطع القائد هرثمة البقاء طويلاً ، حيث رياح الانتفاضات هبت من جديد فاستدعي إلى بغداد بناء على طلبه . وبعد رحيل اللواء هرثمة إلى بغداد ، بدأت فترة مضطربة في أفريقيا ، فقد طرد الجند (الجيش والشعب) الوالي محمد المقاتل (Mohamod Al Mukatil) من الولاية ، والذي كان قد عينه البرامكة وحل محله والي الزاب [1] «إبراهيم بن الأغلب» (Abrahim b. Aglab) الذي هو الآخر هدد بالطرد إن لم يطالب باستقلال الولاية . . وبعد تردد . . قبل الرشيد عقد اتفاقية مع الوالي ليصبح إبراهيم بن الأغلب في شهر تموز من عام ٨٠٠م أول أميرلأفريقيا ووالياً لأكبر إقليم هو غرب الإمبراطورية . وبتعيين إبراهيم لهذا الإقليم بدأ عصر جديد في أفريقيا[2] بل في عموم الإمبراطورية ، حيث لأول مرة يوافق الخليفة على عقد اتفاقية بينه وبين والٍ لأحد أقاليمه . وطبقاً لهذه الاتفاقية ، فإن الوالي الجديد تعهد بتحمل تكاليف تدريب قوات الخليفة البالغة مئة ألف دينار ، التي كانت تدفعها مصر ، كما التزم بدفع مبلغ مقداره أربعون ألف دينار سنوياً إلى الخليفة . وهذا الاتفاق هو نوع من التمويل الذاتي وربما مقدمة لحكم ذاتي بعيداً عن فكرة الاستقلال .

وبتطبيق الحكم الذاتي في أفريقيا لم يعد أميرها موظفاً عادياً كبقية الموظفين يمكن عزله أو فصله في أي وقت يشاء الخليفة ، بل يتمتع بصلاحيات إدارة إقليمه

---

(١) الزاب : هو الجزء الغربي من أفريقيا والتي تعني هنا المغرب العربي .

(٢) أفريقيا تعني تونس الحالية وغرب الجزائر .

دون سيطرة بغداد ، إلا أنه تابع للخليفة من دون أن يتدخل في شؤونه ، كما أن الخليفة لا يحق له التدخل في موضوع خلافة العائلة للحكم . . وهكذا احتفظت عائلة الأغلب بالحكم على مدى أكثر من قرن . وفي الحقيقة ، أن بعد العاصمة وصعوبة الاتصال بها ساعد كثيراً على ضعف العلاقة بين مركز الخلافة والأقاليم البعيدة ، فاستغل إبراهيم هذا العامل الجغرافي وأعلن نفسه حاكماً مستقلاً ، وشكل حرساً خاصاً به أطلق عليه الحرس الأسود تعداده (٥٠٠٠) خمسة آلاف فارس ، كلهم من المخلصين والموالين له ، الأمر الذي جعله في مأمن من كل مباغته من قبل الجند (Jund) والذي هو «جيش الخليفة» .

مارس إبراهيم سياسة جيدة في إدارة البلاد وتوطيد الأمن والاستقرار الداخليين ، كما اهتم كثيراً بالحالة المعيشية للمواطنين فأحبه شعبه . ومن أجل أن يثبت دعائم حكمه ويبعد عن الناس فكرة سلطته الوقتية ، راح يؤكد للناس سلطانه الدائم ، ويظهر نفوذه من أنه لا يختلف عن الخليفة بشيء . شيد إبراهيم في ضواحي القيروان قصراً ضخماً أطلق عليه اسم «قصر الكاظم»[١] (Kasr Al-Kadim) تحت اسم العباسية احتراماً لبني العباس .

أقام إبراهيم في هذا القصر مع حرسه الأسود ووحدات من الفرسان العرب الموالين له ، وملأ القصر بالجواري والخدم . وكان يستقبل فيه مبعوثي الملك شارلمان الذين توجهوا إليه للمطالبة بجثمان القديس «صبريان» (Saint Cyprien) . . وبالقرب من هذا شيد أحد أحفاد إبراهيم الأمير إبراهيم الثاني قصراً فخماً آخر تحيطه الجنائن الواسعة أطلق عليه قصر «الرقادة» (Raqqada) لاتزال آثاره باقية لحد اليوم . .

والأغالبة شأنهم شأن بقية الخلفاء أنفقوا معظم وارداتهم على بناء المؤسسات الدينية والخدمية ، فوسعوا جامع «سيدي عقبة» (Sidi ogaba) في القيروان ، أحد أقدم وأجمل دار عبادة في الإسلام ، وشيد مسجد «تونس الكبير» (Tunis) ومساجد «سوسه وصفاقس» ، كما شيدوا الحصون والسدود ، فعم الازدهار والرخاء الاقتصادي في الإقليم ، وقد رافق هذا التحول إيمان عميق بالدين . هكذا أصبحت القيراون في عهد الأغالبة مركزاً كبيراً للعلوم والآداب القرآنية ، وسادها جو ثقافي بفضل مدارسها الدينية والقرآنية ، فانضمت هذه المدينة من حيث شهرتها الدينية إلى شقيقاتها

---

(١) على طراز قصر الرشيد نفسه في الرقة .

بغداد والكوفة والفسطاط والبصرة .

وفي نهاية حكم إبراهيم الأول ، الذي تزامن مع عهد هارون الرشيد ، أصبحت كل إفريقيا خارج حكم الإمبراطورية العباسية ، وكل ما يفعله الخليفة في بغداد هو تقديم الهدايا والمساعدات لضحايا الكوارث الطبيعية من أجل ترديد اسمه عند الرعية أو المشاركة في بناء جامع أو مدرسة دينية ، والهدف كما قلنا تخليد اسمه . . إذن لم تعد سلطة الخليفة في بغداد سوى وجود رمزي وروحي ، وحتى هذا الوجود أخذ بالتناقص بالنسبة للخلفاء الذين جاءوا بعد هارون الرشيد .

بعد أن اجتثت نهائياً بدعة الخوارج من إفريقيا لم تعد تظهر فيها من جديد ، ولكن هذا الحال لا ينطبق على المناطق في الغرب ، وبشكل خاص في الجزء الأوسط من الجزائر الحالية ، وهذه المنطقة التي يسكنها البربر كان الخوارج قد نشروا فيها الإسلام خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، وما زالوا موجودين لحد اليوم وبشكل خاص في «المزاب» (Mzab) . وعلى كل حال فإن فتوحات جيوش الخلفاء العباسيين لم تستطعْ الوصول إلى غرب أفريقيا التي شهدت الرخاء والازدهار إلى جانب عدد من الإمارات التي كان يعتنق سكانها إسلاماً هرطقياً . ومن بين أهم هذه الإمارات ، «طيارة» (Tiaret) التي أسسها الفارسي عبدالرحمن بن رستم (Abderhaman b. Rostem) الذي كان قد طرد من القيروان أثناء المعارك التي أعادت أصول الإسلام إلى هذه المدينة وإلى أفريقيا . وبعد أن وصل رستم إلى الإمارة اختاره الخوارج كإمام للمنطقة . وبعد وفاته اختاروا ورثته من أفراد عائلته ، وأصبحت السلطة العليا وراثية وانتشرت المبادىء الرستمية سريعاً في جزء كبير من شمال أفريقيا . . في هذا النظام ذي الصبغة الدينية حيث يحتل فيه البربر موقعاً كبيراً ، كان الاهتمام بالجانب الاقتصادي يشغل حيزاً مهماً ، فقد كانت سياسة «الرستميون» (Rostemides) التي خرّجت حتى بداية القرن العاشر الميلادي العديد من الأئمة ، تنصب على تعزيز التبادل بين الساحل والداخل ، بل وحتى البلدان الواقعة إلى ما وراء الصحراء وخاصة «السودان» (Soudan) ، هذه الجمهورية الوراثية حرصت على تقوية علاقتها مع البدو والمزارعين وامتد نفوذها ونفوذ الخوارج حتى بلغ إسبانيا والعراق ، واستطاعت مدينة «طحيرت» (Tihert) بازدهارها أن تستقطب المهاجرين القادمين من كل الأنحاء ، في الوقت الذي احتل فيه الرستميون المناصب العالية في بلاط أمراء إسبانيا . . .

وكالعادة ، فإن أي ازدهار اقتصادي في البلاد الإسلامية في العصور الوسطى ، كان يرافقه تقدم علمي وأدبي ورياضيات وفلك وأدب وشعر[1] بالإضافة إلى العلوم الدينية . وكل شيء خاضع للدراسة والتمحيص طوعاً من لدن هذا الشعب الورع ، بعيدين كل البعد عن إسراف وتبذير الأغالبة في القيروان ، الذين لم يكن لهم أي تأثير على طحيرت (Tihert) .

أما بغداد فكانت بعيدة عن هؤلاء البرابرة والفرس ، الذين لم ترق لهم الفتاوى التي يطلقها الخليفة ومستشاروه ، وكانوا يعتقدون أن بلاط العاصمة بغداد لا يتماشى مع أفكارهم ، ولذلك فإن كل منطقة وسط المغرب تحفظت من السلطة المركزية قبل الأغالبة بفترة طويلة ، ولم يستطعْ الرشيد السيطرة على هذه المنطقة رغم إمكانياته الواسعة .

وأذا ما توغلنا نحو الغرب أي في المغرب الحالية ، فإن الإسلام انتشر فيها خلال السنين الاخيرة من القرن السابع . وفي بداية القرن الثامن الميلادي ، وبالأخص بين سكان الجبال الذين أضفوا على الإسلام صفة سطحية ، أضف إلى ذلك فإن كثرة الضرائب على كاهل السكان وتجاوزات الولاة وضعف الإدارة أبعدت السكان ذوي العقيدة الضعيفة عن صلب الإسلام وسلطات الخليفة ، واعتنقت مبادىء الخوارج والمعتزلة بشكل خاص ، كونها تعارض السلطة المركزية وتنتفض كلما سنحت الفرصة . .

ومنذ مطلع عام ٧٤٠ م ، اندلعت انتفاضة في أقصى المغرب ، حيث استولت إحدى القبائل على «طنجة» (Tanger) ثم شملت معظم البلاد . . وعلى كل حال لم يكن العباسيون أحسن حالاً من الأمويين من حيث تقبل السكان لهم ، حيث كانت الفوضى تعم كل القبائل . . إمارات تتكون فتزدهر ثم تضمحل وأخرى تكبر وتنمو لتصبح مملكة ، وإحدى هذه الإمارات أسسها أحد أحفاد الرسول فأصبحت مركز إشعاع إسلامي وحضاري مهم ، وكانت أحد أجمل مدن هذه المملكة ألا وهي «فاس» (Fes) . . . وفي عام ٧٨٦ م وهي السنة التي اعتلى فيها الرشيد عرش الخلافة ، اندلعت ثورة علوية في المدينة بقيادة الحسين بن علي أحد أحفاد الإمام الحسن ، احتل المسجد النبوي واعتصم فيه معلناً نفسه أميراً للمؤمنين ، وكان أنصاره لا يتجاوز عددهم الـ (٢٦) شخصاً من العلويين وعدد من الحجاج ، إلا أن محاولته باءت

---

(١) يقول أحد الرستميين حسبما يروي G . Marsais لم تكن هناك وصيفة لا تعرف رموز الخط . .

بالفشل وسمحت له السلطات بالانسحاب من المسجد النبوي متوجهاً إلى مكة ، والمسألة كانت قد انتهت إلى هنا لولا اصطدام أنصاره بوحدات الخليفة المرافقة له خلال الحج ، فقتل الحسين وسحق أنصاره ، وهكذا هرب العلويون ولجأوا إلى كل مكان خوفاً من مطاردة رجال الخليفة لهم . . ومن بين هؤلاء العلويين يحيى بن عبد الله الذي هرب إلى العراق ثم إلى الري . رغم أن الرشيد كان قد وضع ثمناً لرأسه . . . استطاع أن يصل خراسان ومنها إلى الديلم (Daylam) بالقرب من بحر الخزر ، وهناك أعلن التمرد والثورة ، وقد ذكرنا ان الفضل بن يحيى استطاع إقناعه وإخضاعه ، ثم تطورت الأمور فكان اغتيال يحيى من قبل أزلام الرشيد أحد أسباب البرود والقطيعة بين الرشيد والفضل . فالخليفة اتهم الفضل ـ خطأ ـ بأنه كان السبب في قضية يحيى . . وهناك علوي آخر اسمه إدريس كان حظه أوفر من أولاد عمه ، ورغم مطاردة رجال هارون فقد استطاع الهروب برفقة أحد أنصاره حتى وصل مصر ، ومن هناك تمكن من الوصول إلى المغرب ، حيث لجأ عند عائلة بربرية في «فوليبليس»(volubilis) أو «ليبلا» ، كانت أخلاقه وصفاته المحمدية قد فرضت نفسها فنال الاحترام ، الأمر الذي مكنه من أن يؤسس دولة دامت أكثر من قرن وبشكل خاص في «فاس» .

حرص إدريس الأول على بناء عاصمة تضاهي أو تنافس طحريت والقيروان ، وقد وقع اختياره على مدينة فاس لكونها قريبة من النهر وتقع على ملتقى طرق التجارة والمواصلات ، ولم تمض فترة قصيرة إلا والتف حوله كل البربر ، ثم أخذ يستقطب العرب المهاجرين . . . ومن فاس استطاع إدريس نشر الإسلام في داخل المغرب الذي كان يعتنق سكانها المسيحية واليهودية وحتى الوثنية . . . وفي عام ٧٩١ م توفي ويقال إنه مات مسموماً بأمر الرشيد ، ثم جاء بعده ابنه إدريس الثاني الذي سك العملة واستمر على خطى أبيه ، فنقل مدينة فاس إلى الضفة الأخرى لمجرى النهر ، وفي أعلى الضفة شيد جامع الشريف إلى جانب قصره . وفي عام ٨١٤م وبعد سقوط الانتفاضة ضد الأمويين طردت ثمانية آلاف عائلة عربية من إسبانيا وجاءت تسكن فاس ، وقد أطلق على المنطقة التي أقاموا فيها اسم «حي الاندلس» ولا زالت باقية لحد الآن . . وقد بلغت مملكة الأدارسة ذروتها خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادي ، حيث أصبحت مركزاً تجارياً ومهداً للإشعاع الفكري والحضاري والديني امتد إلى مصر . . . وكون الأدارسة معتدلين فقد احتضنوا كل التيارات الدينية ولم يفكروا في جعل عاصمتهم مركزاً للطائفية ، كما أن تأثير الخلفاء

عليهم كان محدوداً جداً [1] . . .

إن هذا الجزء من المغرب لم يتأثر ولم يقع في فلك العباسيين ، وإسبانيا (بلاد الأندلس)هي الأخرى لم تتأثر بالعباسيين ، فعبدالرحمن الأول ، هذا الأمير الأموي الهارب من الجزرة التي فتكت بأهله ، أعلن نفسه في عام (٧٥٦م) أميراً للأندلس ، ولم يعترف مطلقاً بالعباسيين ، كما لم يقبل مطلقاً أي تدخل لخلفاء بغداد في شؤونه ، واستبعد اللون الأسود من دولته ، وكان يرتدي هو وحاشيته اللباس الأبيض وهو لون الأمويين ، كما ألغيت خطبة الجمعة التي كانت تلقى باسم الخليفة في بدء حكم العباسيين ، بل حتى كلمة العباسيين أصبحت ممقوتة ، حتى إن بعض الأمراء حاولوا عدة مرات تنظيم ثورات ضد الخلفاء ، حيث نرى أن عبد الرحمن الأول كان قد أعد علناً حملة ضد سورية(بلادالشام) لطرد العباسيين منها . . وفي عهد الرشيد لم تكن هناك أي علاقة سياسية بين المملكة العربية في إسبانيا وأمير مؤمني الإمبراطورية[2] العباسية ، والسبب هو أن مناطق مثل أفريقيا «تونس وغرب الجزائر» ، «إسبانيا ، طحيرت» بعيدة عن بغداد ، وتبدل الولاة أو الأمراء فيها لا يشكل أي

---

(١) قيل بأن الادارسة قد اعتنقوا مذهب المعتزلة ولكن غير مؤكد ، وكان هذا المذهب قد استند الى خمسة مبادىء هي ١ ـ القرآن هو كتاب الله وهمزة وصل بين الإله وعبده . ٢ ـ الإنسان يمتلك حرية التحكيم . ٣ ـ عقاب جهنم خالد للذي يدخل فيها . ٤ ـ المسلم المذنب بارتكاب أحد الكبائر يدخل النار إن لم يستغفر ربه . ٥ ـ هدف الحكومة هو إشاعة الخير ومنع الرذيلة ، وهذا يوجب الجهاد ضد الحاكم الجائر .

(٢) رغم القطيعة بين الأمويين في اسبانيا ومركز الخلافة في بغداد ، فإن تأثير العباسيين على إسبانيا المسلمة كان متميزاً بل كبيراً في كثير من المجالات ، وعلى سبيل المثال كان سكان قرطبة وإشبيلية يستمدون نمط عيشهم من بغداد ، إذ إن ترف المسلمين والمسيحيين في إسبانيا يضاهي المجتمع العباسي في بغداد . . وفي القرن التاسع الميلادي زار المغني والموسيقى البغدادي المشهور زرياب قرطبة ، وفيها ساهم كثيراً في تسريع اقتباس العادات الشرقية لدى الإسبان ، حيث سرعان ما اشتهر زرياب بغنائه وموسيقاه ، وفرض صوته الرخيم عل عالم الغناء ، وعَلَّم القرطبيين والقرطبيات كيف يلبسون حسب الفصول ، وكذلك فن الحلاقة والتجميل واستعمال معاجين الأسنان . . الخ . وقد لعب دوراً كبيراً في تغيير فن التأثيث ، وعلمهم هذا العبد السابق للخليفة المهدي فن الطبخ والفن الرفيع في آداب المائدة . .

أهمية بالنسبة لمقدرات الإمبراطورية . أما الحركات التي كانت تنشط في مصر أو سورية فلم تكن على قدر من الخطورة . . وعلى سبيل المثال فقد أخمدت ثورة اليمن عام (٥٩٧م) بسهولة ، أما زعماء الثورة فقد أرسلوا إلى بغداد وتم تصفيتهم هناك خنقاً بناء على أمر الخليفة الرشيد ، الذي عزل الوالي وأعاد الأمن إلى اليمن . . .

أما في خراسان (أي شرق إيران وجزء من إيران وطبرستان) فالأمر مختلف ، ذلك لأن كل ما يحدث هناك ينعكس تأثيره مباشرةً على بغداد وباقي أنحاء الإمبراطورية ، والسبب هو أن موظفي الحكومة معظمهم من الفرس ، كما أن جيش الأبناء والعباسية يضم عدداً كبيراً منهم ، لذلك كان قرار تعيين علي بن عيسى والياً على خراسان قراراً خاطئاً ، والسبب أن ابن عيسى كان يفكر فقط في استغلال هذه المقاطعة لمصالحه ، وكان يبطش بكل من يعارضه ويسلب أموال السكان بالعنف والقوة ليرسلها إلى بغداد . . وبلغ الظلم في عهد علي بن عيسى إلى درجة أدت إلى رفع الشكوى مباشرةً إلى الخليفة في بغداد ، وهروب عدد من الشخصيات المهمة «كهاشم بن فركسرون» (Hashim b.Farkusran) الذي طلب حماية الخليفة ، وآخر تظاهر بالشلل للتخلص من غضب الخليفة . . وبعد أن تفاقمت الحالة تدخل يحيى البرمكي لدى هارون الرشيد لكي ينهى عيسى عن هذه التجاوزات ، إلا أن الخليفة لم يعد يكترث بنصائح يحيى . .

كان ابن عيسى قد شكل قوة ضاربة وموالية له وبعلم الرشيد ، الذي لم يعد يهتم بالبرامكة . بالمقابل كان ابن عيسى يغدق على الخليفة الأموال والهدايا التي كانت تخفف من شكاوى الناس عليه . لقد كان هم هارون الرشيد آنذاك مُنصبّاً على تحجيم نفوذ الشخصيات كالبرامكة مثلاً ، والحصول على الأموال والهدايا التي كانت تنزل عليه مدرارا كالمطر في مقر إقامته الجديد في الرقة (Raqqa) ، ولكن سرعان ما تفاقم الموقف حيث اندلعت عدة ثورات ضد ابن عيسى خلال فترة قصيرة ، ولما كان الجيش الذي يرسله الخليفة لقمع الثورة يخفق مرة بعد مرة ، اختار الخليفة أخيراً التوجه بنفسه إلى خراسان .

سافر الخليفة إلى خراسان بعد أن كلف ابنه القاسم قيادة القوات المرابطة في آسيا الصغرى ، أي على الحدود مع بيزنطة ، وكان بذلك أول خليفة يتوغل بعيداً عن مقر خلافته باتجاه الشرق . . . توقف قليلاً في الري (Ray) ثم في مرو (Merv) دون أن يمر بالعاصمة بغداد . أقام الرشيد في خراسان مسقط رأسه فترة قصيرة لم يستطعْ خلالها

إحراز أي تقدم ، سوى أنه عقد اتفاقات مع رؤساء قبائل القفقاس والخزر حول مسائل بسيطة لم تؤد إلى شيء ، وبعد فترة من هذه الزيارة ، قام ابن عيسى بزيارة الخليفة في مقر إقامته في خراسان ، حاملاً معه الهدايا الثمينة وصور له الحالة على أحسن ما يرام ، الأمر الذي استحسنه الخليفة فمدد له الولاية على خراسان ، ولكن لم تستمر سوى بضعة سنين لتنفجر هذه المرة بصورة أعنف وأشد ، ويضطر الخليفة للتوجه لها ولكن هذه المرة كانت زيارة من دون عودة . . حيث توفي هناك . . .

خطورة مشكلة الخلافة

إجراءات الخلافة في الإمبراطورية الإسلامية لم تحدد مطلقاً بلائحة قانونية بل حتى لم يتم تعريفها بوضوح ، فارتقاء الإمام علي للخلافة أدى إلى مأساة تنعكس نتائجها على المجتمع الإسلامي إلى يومنا هذا . فالأمويون خلال القرن الذي حكموا فيه خاضوا صراعاً طويلاً مع العلويين . . والعباسيون عندما جاؤوا إلى السلطة كان الصراع بينهم شديداً على الحكم ، فنرى المنصور يجهز حملة لمقاتلة عمه عبد الله بن علي الذي طالب بالخلافة . .

«وليلة القدر» لا يمكن نسيانها ، هذه الليلة التي أتت بالرشيد إلى العرش بفضل اغتيال أخيه الهادي من قبل والدته الخيزارن ، التي هي الأخرى كانت مهددة من قبل ولدها الهادي . . . الأمر الذي جعل مسألة الخلافة عند العباسيين تتميز بطابع الاقتتال لكثرة عدد أفراد العائلة وتزايدها ونموها السريع ، والسبب هي الحقوق المكتسبة للأولاد سواء من الزوجات الشرعيات أو الجواري ، الأمر الذي ولد الخلاف والصراع ؛ لذلك كانت مسألة الخلافة تشغل دوماً اهتمامات الخلفاء بالدرجة الأولى ، وهذا ما يفسر الموت المبكر نسبياً لكثير من الأمراء والأميرات في العائلة العباسية . . . وعندما اعتلى هارون الرشيد عرش الخلافة كان له أربعة عشر ولداً ، ولكن لم يرشح للخلافة سوى اثنين منهم فقط ، هما عبد الله (المأمون) ومحمد (الأمين) . . . فالولد الأول الذي ولد في ليلة القدر المأمون هو ابن الجارية الوصيفة الفارسية مراجل (Marajil) التي توفيت في الليلة نفسها ، أما الولد الثاني محمد الأمين الذي ولد بعد سبعة أشهر فهو ابن زبيدة الزوجة الشرعية لهارون الرشيد سليل الملكية أماً وأباً ، وقد نسجت روايات كثيرة عن حب واهتمام هارون بتربية ولديه ، حيث إنه اختار بنفسه الأستاذ الذي يشرف على تدريسهما ، وكان من أشهر علماء زمانه ، العلامة

«الكسائي» (Kisai) أستاذه السابق ، ويصف الكسائي أحد لقاءات الخليفة بولديه : كان الخليفة في مجلسه عندما حضر الأميران الشابان اللذان يشبهان القمر في ليلة تمامه ، وبكل خفة وهدوء تقدما نحو الوالد ورأساهما منحنيان وهما ينظران إلى الأرض ، وعندما اقتربا من والدهما أديا التحية الملكية وقدما التمنيات الرقيقة ، عندئذ لم يتحمل الرشيد فضمهما إلى صدره ، وأجلس محمد (الأمين) إلى يمينه وعبد الله (المأمون) إلى يساره ، ثم دعاني أن أطلب منهما قراءة بعض الآيات القرآنية من إحدى السور وشرح معانيها ، ففعلا على أحسن ما يرام ، وخرجا من الاختبار بنجاح كبير ، فبانت على وجه الرشيد أسارير البهجة والفرح ، بعد ذلك ألقى الأميران الصغيران عدة قصائد . . .

ويستمر الكسائي بالوصف : لم أر في حياتي من بين أطفال الخليفة أميرين شابين بهذه الفصاحة والرشاقة والأناقة والكفاءة والقدرة على إظهار المواهب كولدي الرشيد الأمين والمأمون ، وقد دعوت ربي ألف مرة كي يحفظ هذين الولدين ، وفي كل دعاء كان الرشيد يقول «آمين» ، وبعد انتهاء هذه الفعاليات عانقهما الرشيد عناقاً طويلاً ، وعندما ودعاه سالت الدموع من عيني أمير المؤمنين . . إلا أن حنان وحب الرشيد لولديه لم يكن عائقاً في تقييم كل منهما ، فأخطاء ابن زبيدة كثيرة وخطيرة في حين كان ابن الجارية يتمتع بذكاء وكفاءة عالية . وفي أحد الأيام قال الرشيد في وصف ولديه : الأول أي الأمين عبد لملذاته ونزواته ، التي أصبحت النمط الوحيد في سلوكه وسهولة تبديد ثروته ، ومشاركة النساء بل حتى الوصيفات في مخططاته ومشاريعه ، في حين عبد الله على العكس منه ، حكم سديد ، ويمكن ائتمانه على الأمور المهمة ، يحمل حنكة وحكمة المنصور وورع المهدي وكبرياء الهادي . .

وقال هارون بخصوص المأمون : الحمد لله الذي رزقني الولد الذي يرى بعقله وروحه أكثر مما يرى من خلال رغبات جسده . لقد كان الرشيد حريصاً جداً على ضمان استقرار الإمبراطورية العباسية بعد وفاته . . وخوفاً من أن الخليفة الذي يأتي من بعده لا يكون على مستوى هذه المسؤولية أعلن البيعة في عام ٧٩١م لولده الأمين ، البالغ آنذاك خمس سنين دون أية معارضة ، بل بايع الأمير الصغير عدد من أفراد العائلة العباسية . . وفي الواقع فإنهم كانوا يفكرون في مستقبلهم إذا ما حدث ما لا يحمد عقباه في يوم ما عندما يخلو العرش . . وفي الواقع فقد كان الفضل بن يحيى البرمكي وصياً على الأمين ، وقد نجح في تذليل كل العقبات أمام مبايعة

الأمين وخاصة أهالي خراسان ، الذين قدموا له البيعة وتبعهم الآخرون .

ولكن مع مرور الزمن ونمو الأمين بدأت آمال الرشيد تتبدد في ولي العهد . . وذات يوم صارح الرشيد يحيى البرمكي قائلاً : «أريد ان أترك خلافتي للشخص الذي أثق بسلوكه وأن أحمل المسؤولية إلى رجل أرى فيه صفات القيادة دون أن ينظر إليه من باب الضعف والجبن ، وأتكلم بذلك عن عبد الله (المأمون) ، وأضاف الرشيد ولكن العائلة تفضل أن تكون الخلافة لمحمد «الأمين» واذا ما فضلته على عبد الله المأمون فسوف أثير مشاعر العائلة ضدي» ، إذن كانت المشكلة تكمن في حيرة الرشيد بين العقل والعاطفة ، وكان يمكن للمرء أن يستشف مدى الانقسام الذي كان يعصف بالعباسيين ومن ثم بالإمبراطورية نفسها بعد رحيل الرشيد ، لذلك قرر الخليفة أن يكون المأمون ولي عهد ثانياً ، ولم تمر فترة وجيزة إلا ومنحه لقب والي خراسان ، في حين كلف الأمين بولاية الجزء الغربي من الإمبراطورية ، وأجريت مراسيم البيعة في الرقة أولاً ثم في بغداد . ومع مرور الوقت أخذت أخطاء وهفوات الأمير الأمين تزداد يوماً بعد يوم ، في حين بالمقابل يثبت فيها المأمون جدارة عالية في القيادة ، وكان الأمر طبيعياً لو لم يكن لكل منهما أنصار .

هؤلاء كانوا يؤججون الصراع بين الإخوة علناً ، إلى جانب الأمين العائلة المالكة وعلى رأسها الإمبراطورة زبيدة ، التي كانت تعلم علم اليقين بتفاهة ولدها الخليفة الجديد وعدم صلاحيته لإدارة شؤون الدولة وانصرافه إلى العبث واللهو والمجون ، ومع ذلك فإنها ما إن أحست بتكليف الرشيد لولده المأمون بقيادة جيش خراسان حتى راحت تدق ناقوس الخطر ، ولكن الرشيد كان يردعها ويحاول إبعاد هذه الأفكار عنها قائلاً : ((إذا كان أحدهم يخاف الآخر ، فلا بد للمأمون أن يخشى من ولدك)) ، ولكن مخاوف زبيدة لم تكن في غير محلها ، لأن الرشيد كان في كل لحظة يهم في أن يجعل المأمون ولي عهد أولاً وليس ثانيا . . . حيرة الرشيد هذه قادته في نهاية الأمر إلى إيجاد صيغة جديدة ومقبولة ومضمونة للجميع ، وخاصة لمستقبل العباسيين وزعيمهم «خليفة الرسول» .

كانت مكة هي أفضل مكان مناسب لتثبيت صيغة الخلافة ، ولذلك سافر هارون في كانون الأول عام ٨٠٢م بصحبة الأمراء وعدد كبير من الشخصيات المهمة وكل رجال البلاط ، بالاضافة إلى يحيى البرمكي وولديه الفضل وجعفر مع الحاجب الكبير الفضل بن الربيع باتجاه مكة . . كان الحقوقيون والقضاة قد أعدوا وثيقة اعتلاء

عرش الخلافة والالتزامات المترتبة على الأخوين الأميرين أحدهما للآخر . في الكعبة أقسم الأخوان بالله على وثيقة تنص على عقوبات شديدة وقاسية ضد كل من ينتهك هذه الوثيقة ، من بينها تطليق النساء وعتق العبيد وإنفاق الأموال على الفقراء ، وكان الجميع قد قصدوا مكة سيراً على الأقدام . . انتهت مراسيم الحج ووقع الجميع على الوثيقة بحضور الرشيد وولديه الأمين والمأمون ، وعلقت على جدار الكعبة المقدسة .

وشاءت الصدف أن تهب ريح عاتية فتطايرت الوثيقة من مكانها لتسقط بعد قليل على الأرض ، الأمر الذي جعل البعض يفسرون الحادث بالفأل السيء ، في حين لم يعر الرشيد أي اهتمام لذلك . . . بل العكس ، أرسل الخليفة على الفور الكتب إلى جميع أقاليم الإمبراطورية ، لإبلاغهم بالإجراءات التي اتخذها بخصوص مستقبل الإمبراطورية ، وأمر حراس الكعبة بوضع مضمون الوثيقة في إطارات مذهبة ومطعمة بالعقيق والياقوت ، وتعليقها في أماكن بارزة من الكعبة . . وفي الواقع فإن الوثيقة الموقعة والمعلنة تجاوزت في مضمونها مشكلة وراثة الخليفة ، فالأمين يلتزم باحترام حق الخلافة لأخيه من بعده ، بنفس الوقت يعترف بسلطته على خراسان ، أي كل الجزء الشرقي من الإمبراطورية من «همدان» الى «طبرستان (Transoxiane) مع كرمان وفارس وسيستان» (Seistan) الأمر الذي يعني بأن سلطات المأمون على كل هذه المناطق تتجاوز سلطات الوالي ، لا بل حتى سلطات الأمراء من الزوجات العباسيات الذين يكلفون في بعض الأحيان في بسط نفوذ الدولة على بعض أجزاء الإمبراطورية إثر اندلاع الاضطرابات . . المأمون بموجب هذه الوثيقة يتمتع بسلطات مطلقة على الجيش والمالية والضرائب والعُشر ، وله الحق في التصرف بواردات الضرائب دون إرسالها إلى بغداد ، كما أن الإدارة والدفاع والمخابرات «البريد» مرتبطة به مباشرة . . والخليفة في بغداد ليس له الحق في محاسبته أو إرسال موظفين أو مفتشين عليه ، وليس له الحق في فرض جزية أو أتاوة عليه ، والشيء الوحيد الذي يحدد صلاحياته بصورة شكلية هو الطاعة والولاء للخليفة . هذا النوع من الحكم اللامركزي ساهم في نخر الإمبراطورية العباسية ، وهو المبدأ نفسه الذي يعتمد على السلطة الروحية للخليفة ، الذي مارسه فيما بعد الأغالبة والأدارسة والطحيرية ثم في باقي أنحاء الإمبراطورية .

ورغم فخامة الاحتفال الذي أقيم في مكة ، فإن معظم الناس كانوا على يقين

بأن الأميرين الشابين سوف لايحترمان قسمهما على الوثيقة ، ويقال إن جعفر البرمكي طلب من الأمين في أثناء خروجهم من الكعبة أن يكرر ثلاث مرات (لينتقم الله مني إذا خنت أخي) .

على كل حال ، فإن هذا الخيار الذي قدمه الرشيد لولديه ، كان في نظر الناس آنذاك حلاً خاطئاً ، وقد عبر عن ذلك الشعراء كما هي العادة . . ومما جاء في كلام الناس : (أكبر سلطان يتلقى أخطر نصيحة لتقسيم الخلافة والإمبراطورية) ، (لو كان الذي طرح هذه الفكرة يعلم بما سيؤول عليه الحال لابيض شعر رأسه) ، ويروي المسعودي أنه سمع جمّالاً يدندن بهذه الكلمات «اختيار لا يحترم وحرب نارها لا تؤتمن» . . وعندما سأل الجمال عن معنى هذين البيتين أجاب : ستخرج سيوف من أغمادها وستمزق الخلافات أوصالها ، يقصد الإمبراطورية . . هذه التكهنات والتحليلات طرحت بعد ميثاق مكة وهي تعبير عن الشك في تطبيق الميثاق بصورة صحيحة . . .

وبعد مرور ثلاث سنوات على إعلان الميثاق ، قرر الرشيد تعيين ولده الثالث القاسم كولي عهد ثالث ، ومنحه السلطة على شمال «وادي الرافدين» (Mesopotamie) وأقاليم جنوب الأناضول ، وبهذا التعيين تكون الإمبراطورية قد فتتت تفتيتاً كاملاً . . .

لم يبين الرشيد مطلقاً الأسباب التي دعته لتقسيم ميراث العباسيين ، إلا أن الدلائل كانت تشير إلى خوفه من ضعف قيادة ولده الأمين ، فالرشيد كان يقدر جيداً ما سيحل بالإمبراطورية لو سلم زمام أمرها الى الأمين ، سيما وأن الولاة يتربصون الفرص للتنصل من التزامات مركز الخلافة . واعتقد الرشيد بإجرائه هذا أنه يزيد من السيطرة على هؤلاء الولاة ولسان حاله يقول : أليس من الأفضل أن يكون زمام الموقف بيد أحد أولاد العائلة وخاصة في إقليم مثل خراسان أكثر أقاليم الإمبراطورية اضطراباً ؟ أو ليس المنصور فعل الشيء نفسه عندما عين ولده المهدي والياً عليها مع منحه الصلاحيات المطلقة ؟

إن هارون عندما قسم إمبراطوريته بين ولديه الأمين والمأمون كان يعتقد بسهولة مجابهة القوات المعادية ، التي كانت تتكاثر في الشرق والغرب . ولكن الذي حدث هو العكس تماماً ، فالتقسيم أدى إلى الانقسام والتكتل ثم إلى المجابهة ، ولا شك كانت هناك فرصة في تحاشي هذه المجابهة ولكن قوة الدفع إليها أكبر للأسباب التالية :

* ضخامة ممتلكات الخليفة التي تثير الأطماع .

* المصالح المختلفة حسب اختلاف الأقاليم والطوائف والأديان .
* الخيبة التي أصابت سكان الأقاليم بعد مجيء العباسيين إلى السلطة .

كل هذه الأسباب سارعت إلى تفتيت الإمبراطورية ، ولذلك فإن ميثاق مكة ، إذا لم يكن السبب في إثارة حرب أهلية لتمزيق العائلة العباسية والعرب فإن أقل ما يمكن أن يقال عنه بأنه عديم الفائدة . . .

مأساة البرامكة

«مأساة مليئة بالدموع ، تركت في التأريخ بقعة دم لا تستطيع إزالتها أنهار «دجلة والفرات وبردى والنيل»[1]

أدى الرشيد مناسك الحج خلال أيام وغادر الأراضي المقدسة في كانون الثاني من عام ٨٠٢م المصادف لشهر محرم من عام (١٨٧هـ) عائداً إلى الرقة بصحبة الحاشية والبلاط . . وبعد أن وصل مدينة «العمر» (al-umr) القريبة من الأنبار حط الرحال للاستراحة بضعة أيام . وفي صباح اليوم الرابع كما يروي الطبري : جمع الخليفة المرافقين له خلال السفرة يحيى وأولاده الفضل وجعفر وموسى . وبعد مناقشة شؤون الدولة مع يحيى قدم الرشيد لكل منهم رداء الشرف كرد على إشاعات غضب الخليفة على البرامكة التي كانت قد روجت منذ وقت قصير . خرج البرامكة من الاجتماع وهم مسرورون ومطمئنون من رضى الخليفة عليهم . . . وبعد سويعات هبت أعتى العواصف الدامية في تأريخ الإسلام . . . ما أن أذن لصلاة العصر حتى دعا هارون جعفر وقال له : لو لم أرغب الشراب بمعية جواري ما تركتك هذه الليلة تمضي لأصحابك ، على كل حال ، خذ راحتك وتمتع أنت أيضاً بالشراب مع جواريك ، ثم تركه ومضى إلى حرمه وبدأ بالشراب ، وبعد قليل أرسل الرشيد أحد خدمه ليرى إن كان جعفر يفعل الشيء نفسه . وبعد أن علم ان جعفرا غارق في الحزن أرسل إليه وقال له : أقسم عليك برأسي وبحياتي أن تحتفل وأن تستسلم للأنس والطرب ، فسوف أفقد متعتي في الشراب وخاصة إذا علمت أنك لا تريد الشراب .

كان في خدمة جعفر موسيقي بصير اسمه «أبو زكار» (Abu Zakkar) ، وبعد أن

---

(١) الف ليلة وليلة .

تناول جعفر عدداً من كؤوس الخمر قال للموسيقي : كأن هناك شيئا جاثما على صدري هذه الليلة . فأجابه ابو زكار : أيها الوزير ما أكرمكم أمير المؤمنين قط مثلما فعل هذا اليوم .

جعفر : ولكن أشعر بكآبة عميقة !

ابو زكار : اطرد عنك هذه المخاوف وهذا القلق ومتع نفسك بالأنس والفرح .. وعند صلاة المغرب حمل خادم الرشيد لجعفر طبقاً من الحلوى وآخر من الفواكه المجففة ومجموعة من العطور النادرة . . . وعند صلاة العشاء ، جدد له الخليفة هذه الأطباق وألحقها بثالثة بعد فترة وجيزة . . . وما أن جاء منتصف الليل حتى ترك الخليفة خيمة نسائه ونادى على جلاده مسرور وقال له : اذهب في هذه الساعة وابحث عن جعفر . . . خذه إلى خيمتك واقطع رأسه ! ثم آتني به . وعندما وصل مسرور إلى جعفر ارتعش هذا الأخير ثم قال مسرور : يدعوك أمير المؤمنين .

جعفر : أين هو الآن ؟

مسرور : ها قد ترك نساءه ودخل خيمته .

جعفر : أمهلني لكي أدخل خيمتي وأخبر نسائي ببعض الأمور .

مسرور : غير ممكن . . بلغهم من هنا .

أطاع جعفر ومضى مع مسرور ، وعندما وصل إلى خيمته ، شهر سيفه ، فقال له جعفر : ما الأمر وماذا جرى ؟ !

مسرور : لقد أمرني الخليفة بحمل رأسك إليه .

جعفر : احذر ، لعل الخليفة أمرك بذلك وهو في حالة غضب وأنه سوف يأسف بعد ذلك ، ثم ناشده مذكراً بالصداقة التي تربطهما منذ فترة طويلة . . فقبل مسرور الفكرة وعاد إلى الخليفة فوجده جالساً على سجادة الصلاة منتظراً الجلاد ، وحالما رآه يدخل قال له صارخاً : أين رأس جعفر . . ؟ فأجابه مسرور : لقد أتيت بجعفر يا أمير المؤمنين . فرد عليه الخليفة : لم أطلب منك جعفر بل طلبت رأسه . فعاد مسرور على الفور ففصل رأس جعفر عن جسده بضربة سيف واحدة . . . !! وبعد لحظات حمل الرأس إلى هارون الذي قال لمسرور : «احتفظ بالرأس والجسد لحين أطلبهما منك . . أما الآن . . اذهب على الفور وألق القبض على يحيى وأخيه محمد وأولاده الثلاثة الفضل وعيسى ومحمد ، واقتدهم إلى خيمتك وقيدهم بالسلاسل ثم صادر

أموالهم» نفذ مسرور الأوامر ، وفي الصباح أرسل هارون رأس جعفر إلى بغداد ، وفي اليوم التالي واصل المسيرة إلى الرقة .

سلمت جثة جعفر إلى اللواء هرثمة الذي حملها برفقة عدد من الشخصيات إلى بغداد حسب أمر الخليفة ، وطبقاً لأوامره فقد قسمت الجثة إلى ثلاث قطع ، فوضع الرأس في منتصف جسر بغداد ووضع النصفان الآخران عند مدخلي الجسر ، وبقيت أشلاء جعفر على هذا الوضع على مدى عامين كاملين إلى أن قرر هارون حرقها[1] . . . رافق هذا الإجراء إلقاء القبض على كل المتعاطفين مع البرامكة وخدمهم . . بالنسبة ليحيى البرمكي فقد وضع بادىء الأمر تحت المراقبة ثم سجن في الرقة مع ابنه الفضل ، وكان قد رفض عرض الرشيد اختيار المكان الذي يختاره للإقامة فيه ، قائلاً للخليفة : بأنه يفضل البقاء في المكان الذي كان فيه بانتظار عفو الخليفة . . وكان يعامل تارة باللين وتارة بالشدة والقسوة ، وأخيراً توفي في سجنه بالرقة عام ٨٠٥م وهو في السبعين من عمره . أما الفضل فقد أصيب بالشلل النصفي وتوفي عام ٨٠٨م وهو في الخامسة والأربعين ، أي بنفس عمر جعفر عند قتله ، وكان هارون قد عرضه للتعذيب قبل مرضه وفي أثناء مرضه ، من أجل انتزاع المعلومات عن الأماكن التي أخفوا فيها ثروتهم . وكانت آخر عملية تعذيب له عندما جلده بعشرين سوطاً كاد أن يموت لولا رعاية رفيقه المسجون في الزنزانة نفسها والذي كتب هذه السطور : (مالنا إلا أن نتوجه في مصيبتنا إلى العزيز القدير ، رافعين أيدينا إلى السماء متضرعين إلى الله أن يعيننا في آلامنا وحزننا ولا حول ولا قوة الا بالله ، ومع أننا تركنا هذا العالم ولكن لا زلنا نعيش فيه لامن الأموات ولا من الأحياء) .

توفي الفضل وأقيم له تشييع كبير تحول إلى مظاهرة لأنصاره وأنصار البرامكة ، وشارك في التشييع الأميرة زبيدة (zubayda) وولي العهد الأمين وعدد من كبار الشخصيات والوجهاء . وعندما علم الرشيد بموت الفضل قال : (لقد اقتربت نهايتي) ذلك أن المنجمين كانوا قد تنبؤوا بوفاة الرشيد بعد فترة قليلة من موت أخيه بالرضاعة الفضل وهو ما حدث . . . أما موسى ومحمد ولدا يحيى فقد بقيا في السجن إلى خلافة الأمين (Amin) الذي أطلق سراحهم .كانت كل أموال البرامكة وخدمهم سواء في الرقة أو في بغداد قد صودرت ، ومن بين نساء البرامكة اللواتي تم سجنهن

(١) كان قد أمر الرشيد بإعداد (١٠) قيراطات من النفط والكتان لحرق جثة جعفر .

«زبيدة بنت مانيا» (Zubada bint Mania) والدة الفضل ودنانير (Dananir) المغنية المشهورة ووصيفة يحيى ، التي أعتقها وعدداً آخر من بين وصيفات البرامكة ، ولكن أطفال الفضل وجعفر ومحمد وأم يحيى وأم جعفر أعفوا من السجن . وقد بلغ عدد القتلى من بين وصيفات وجواري[1] وأطفال البرامكة أكثر من ألف شخص ، وهدمت بيوتهم ونقلت أموالهم المنقولة وغير المنقولة إلى خزائن الدولة . . .

وفي الواقع ، فإن سقوط البرامكة والعقاب القاسي لكبار أفراد العائلة كان له دوي كبير في بغداد وكل أنحاء الإمبراطورية . وبدأت تروج الاجتهادات والإشاعات والأقاويل التي تدين تصرف الخليفة . . ويروي الطبري : إن ذكرى هذه المأساة ستبقى خالدة إلى يوم القيامة ، وعندها سيعلم الناس بأن العقوبة التي وجهت إلى البرامكة لم تكن عملاً من السياسة الحكيمة ، كما أن الشعراء من جانبهم عبروا جيداً عن الانفعال العام للناس بقصائد الرثاء التي ما زالت لحد الآن ترن في الآذان ، هذا الرثاء الذي يؤكد أسف الناس على الرحيل المفاجيء لهؤلاء الرجال المعروفين بالحكمة والسخاء ، لدرجة أن أسماءهم أصبحت رمزاً لعصر التقدم والازدهار .

لقد تميزت فترة البرامكة بالعصر الذهبي العباسي ، الذي تزامن وتداخل مع عصر الرشيد ، وفي مقطع مشهور من ألف ليلة وليلة نستذكر هذه السطور التي تصف البرامكة :

كانت عائلة البرامكة زينة عصر الرشيد والتاج المرصع لإمبراطوريته ، لما يتميزون به من كرم الأخلاق وجود النفس والقدرة في إدارة الدولة ، ولذلك نرى أن يحيى وأولاده أصبحوا نجوماً تتلألأ في سماء السخاء والكرم والرحمة والشفقة ، حتى إن كل أرجاء الإمبراطورية غنمت من نفحات جودهم وخيرهم . . . (كانوا البلسم

---

(١) بعد فترة قصيرة من وفاه يحيى استدعى الرشيد دنانير وطلب منها أن تغني قائلاً لها : لقد خان البرامكة أمانة أسيادهم واستحقوا العذاب الأليم ولا بد أن تنسيهم ، فأجابت دنانير بأنها ممتنة لهم حتى أن شرف التقرب من الخليفة كان بفضلهم ، لذلك فهي لا تستطيع الغناء بعد موتهم . في هذه الأثناء سالت الدموع من عينيها والغصة في فمها ، فحشرج صوتها ، وهنا دعا الخليفة مسرور لإجبارها على الغناء بشتى الوسائل ، وبعد أن نفذ صبرها اضطرت للغناء وعيناها تذرف الدموع بسخاء وهي تقول : (أبعدت عنا يا دار السلام ، ولكن ما ابتعدنا عنك ، فأنت حاضرة للأبد في قلوبنا . وعندما تتحول ديارك الى خرائب ، اقتنعت بأن الأيام الحلوة سوف لن تعود أبدا) .

للمظلومين والملجأ للمتشردين والدواء للبائسين والمنهل لليائسين) وقد قال عنهم أبو نواس : يا بني برمك ، منذ أن رحلتم عن هذه الدنيا ، لم تعد الطرق مليئة بالحركة لا عند الغسق ولا عند الشفق .

وفي الواقع ، فإنهم كانوا وزراء محنكين وإداريين مجربين ، ملأوا خزائن الدولة بالمال ، متكلمين ، مثقفين ، صارمين مع الحق وكرماء ، كانوا من نبع سلس ومن نسيم عليل ، حملوا الرخاء والخصب للإمبراطورية ، وبفضلهم انطلق دوي مجد هارون الرشيد من هضاب آسيا الوسطى وحتى أعماق الغابات الشمالية ، ومن المغرب حتى الأندلس مروراً بأقاصي حدود الصين وطرطاري (Tartaric) ، وظل اسمهم يتردد طوال عدة قرون في الشرق حتى أصبحت فترة برمك رمزاً للخير والعطاء . وفي القرن السابع عشر استخدم المؤرخ الإسباني «ماكاري» (Makkari) صفة برمك على كل إنسان طيب في عهد البرامكة[1] . .

لقد مضى على مأساة البرامكة اثنا عشر قرناً ، ولكنها ما زالت موضع العديد من التساؤلات ، ورغم كثرة الروايات التي أكدت قسوة هارون الرشيد تجاه الذين قدموا له الخدمات الجليلة فمنهم من كان يحيى «والده» ومنهم من كان الفضل «أخاه» بالرضاعة ، ومنهم من كان جعفر صديقه الحميم ، إلا أنه مع ذلك يبقى السؤال لماذا هذه المجزرة بأعز الناس . . ؟؟

كل العائلة خدمت العباسيين بولاء وإخلاص على مدى ثلاثة أجيال . ومع أن كل الناس كانوا متلهفين لمعرفة الأسباب إلا أن الرشيد أصر على عدم كشفها . وفي يوم من الايام سألته شقيقته «علية» (Ulaiyah) عن سبب قتله جعفر فأجاب : لو كنت أعلم أن أقرب قطعة من ملابسي ستكشف هذا السر لمزقتها ، وسُئِل مرة اخرى عن السبب فأجاب : لو كنت أعلم أن يدي اليمنى ستعرف السبب لكنت قد قطعتها . إذن لم يكن سبب قتل أعز الناس عند الخليفة سوى انفجار غضبه في لحظة معينة من الزمن .

ولكن هناك العديد من الشهود الذين لا يتفقون مع هذا الرأي ، بل على العكس منه ، وحسبما يروي الجاحظ[2] ، إن أحد المقربين من الخليفة وهو مسرور جلاد

---

(١) الجريدة الاسيوية / الجزء الرابع .

(٢) كتاب التاج .

الخليفة قال : إنهم كانوا بالقرب من الخليفة في أثناء الطواف حول الكعبة ، لدرجة أن ملابسهم قد تداخلت ، وقد سمعوا الخليفة يدعو عند الكعبة «إلهي أطلب منك المغفرة لقتل جعفر بن يحيى» . وهناك حادثة أخرى دفعت الخليفة للتفكير بالتخلص منهم وربما تحول التفكير إلى قرار بتأثير الأشخاص المعادين للبرامكة . «وكل حساد البرامكة كانوا يرصدون تصرفاتهم وينقلون إلى الخليفة أخطاءهم فيتراكم عنده الغيظ والحقد» ، كما يقول الطبري : وقبل سقوطهم بفترة طويلة ، كان جو من القلق يلف البرامكة . وفي يوم من الأيام عاتب الخليفة يحيى دخوله عليه دون إذن مسبق في حين كانت المسألة روتينية ، وفي مناسبة أخرى عبر الخليفة أمام طبيبه الخاص ، عن امتعاضه من القرارات التي يتخذها يحيى دون الرجوع إليه ، وأنه يتصرف لوحده . أما بالنسبة للفضل ، فقد لاحظ بأن الخليفة أخذ يحجم مسؤولياته شيئاً فشيئاً ، والشيء نفسه بالنسبة لجعفر ، فإنه شعر بتغير موقف الخليفة تجاهه قبل فترة طويلة من المأساة . . على هذا الأساس ، فإن الغضبة على البرامكة هي ليست وليدة النزوة العابرة ، ولكن بدون شك نتيجة قرار مدروس منذ وقت طويل ، وكلما كان الحقد يتزايد عليهم ، كان تصرفه تجاههم غير مفهوم وغير مقبول من قبل الآخرين ، بل كان يتصرف الخليفة في معظم الأحيان بشكل يوحي وكأنه يتجاهل وجودهم . وبعد مقتل جعفر وعدم إعلان السبب ، أخذ الشعب ينسج من خياله القصص والروايات عن هذه المأساة ، الأمر الذي كان مادة دسمة للكتاب والمؤرخين من أجل أن يطلقوا العنان لأفكارهم للكتابة عن هذه الحادثة[١] .

يروي لنا الطبري والمسعودي أن هارون الرشيد كان يكن لشقيقته العباسة حباً كبيراً ، وكان يفضل أن يمضي أمسياته برفقتها ، في الوقت نفسه الذي كان فيه لا يستطيع التخلي في المساء عن جعفر . ولما كان من غير المناسب لرجل غريب عن العائلة حضور مجلس الرشيد الذي تحضره غالبا الأميرة الشابة العباسة (abbassa) وجد الرشيد حلاً لإزالة هذا المانع ، فقرر تزويجهما قائلاً لجعفر : أزوجك العباسة بشرط ألاّ تلتقي بها في مكان آخر إلا في مجلسي ، وألاّ تمسها وألاّ تكون لك أي علاقة زوجية معها ، وعندئذ تستطيع حضور مجلسنا دون أي خوف . .

(١) الطبري ، المسعودي ومؤرخون آخرون وكتاب ألف ليلة وليلة ، والمؤرخ العربي جورج زيدان (العباسة أخت الرشيد) ومن المؤرخين الغربيين C.HRARY - Vieille «الوزير الكبير لليل» Paris . 1981

قبل جعفر الشرط ، وأقسم قسماً غليظاً أمام الشهود بألاّ يزورها مطلقاً ولا يقيم معها أي علاقة ، ولا يختلي بها إن لم يكن الرشيد معهما . . . استمر جعفر ملتزماً بشرط الخليفة ، وفي كل مرة كان يرى فيها زوجته وحدها كان يتحاشى النظر إليها ويغض من طرفه ، ولكن الزوجين جعفر والعباسة كانا من الجمال لدرجة تصعب مقاومته . وفيما يخص جمال العباسة يروي الطبري : لم يكن بين نساء القصر من الزوجات أو الجواري أو الوصيفات امرأة أجمل من العباسة[1] . ولذلك ما كان يجب أن يحدث حدث . . كانت عبادة (abbada) أم جعفر المرأة ذات الحس الضعيف والإدراك المحدود ، السبب في وقوع الفأس في الرأس كما يقال ، فقد أغدقت عليها العباسة الهدايا والجواري والحلي ، وكانت متأكدة من أن هذه السيدة تستطيع تحقيق هدفها ، وفعلاً أقنعتها بأن سعادتها تكمن في جمع ولدها بشقيقة الخليفة . وبعد مقاومة بسيطة وافقت عبادة فأعدت فخاً لإيقاع ولدها فيه . . وفي يوم من الأيام قالت عبادة لجعفر : يا ولدي لقد تعرفت على وصيفة مثقفة ، متعلمة ، جميلة وساحرة ، جمالها لا يوصف وقدها يفتح النفس ، وقالت له بأنها سوف تشتريها لتقدمها كهدية له . .

تركت جعفر يحلم بهذه المرأة لفترة من الزمن ، وبدأ ينتظرها بفارغ الصبر ، إلى أن جاءت ليلة القدر المشؤوم . . في تلك الليلة كان جعفر على موعد مع والدته وكانت العباسة في انتظاره عندها . . . وصل جعفر ورأسه مثقل بتأثير الخمر فلم يتعرف عليها أو لشخصها . وبعد أن أخذها قالت له العباسة : والآن ما رأيك بمكر الأميرات العباسيات! ، فقال لها ماذا تقصدين؟ قالت : أقصد نفسي . . أنا العباسة ابنة الخليفة المهدي . .!! فانتفض جعفر وارتعد جسمه قائلا لوالدته : بعتيني بثمن بخس ووضعتيني على شفير الهاوية يا أماه .

حملت العباسة ووضعت صبياً وأودعته فوراً وسراً إلى (خصي وخادمة) لينقلاه على عجل إلى مكة ، ولو لم تكشف زبيدة السر لكان كل شيْ على مايرام . . ففي يوم من الأيام كانت زبيدة متضايقة من يحيى البرمكي بصفته حاجب الخليفة ، وذلك بسبب غلقه أبواب أجنحة قصر الخليفة في المساء ، وصادف أن لاحظ الخليفة انزعاجها من يحيى فصدرت منها بعض الكلمات : لو كان حقاً يراقب الحريم ما

---

(١) الطبري .

كان يسمح لولده ارتكاب الجريمة! فاستغرب الخليفة من كلامها وقال لها : ماذا تقصدين بذلك وضحي . . . وإلا . . ، فكشفت الإمبراطورة السر وأثبتت بالدليل وجود الطفل ، وبعد فترة سافر الخليفة للحج فتأكد من وجود الطفل ، فأمر بقتله وكذلك العباسة أمه . .

وهناك رواية[١] أخرى مفادها أن العباسة أقامت حفلة كبيرة في إحدى الحدائق المطلة على دجلة ودعت إليها شقيقها هارون ، وقد أرسلت إليه في الليلة الأولى جارية جميلة جداً وأخرى إلى جعفر ، وفي الليلة التالية فعلت الشيء نفسه ، إلى أن جاءت الليلة التي استبدلت نفسها بالجارية المخصصة لجعفر ، فأثمر هذا اللقاء طفلين هما الحسن والحسين . كان عمر الأول عشر سنوات والثاني ثماني سنوات من العمر عند مقتل والدهم جعفر ، وقد استثناهم الرشيد من القتل ، بيد أن أحد الرجال المخصصين لزبيدة أكد بأن الخليفة عاقب شقيقته بوضعها مع جواهرها وحليها في صندوق مغلق ودفنها ثم بنى عليها ، حتى إن حاجبها وعشرة من خدمها ذبحوا ذبح النعاج وألقى بأولادها في التنور وهارون يصرخ «النار ولا العار» .

على كل حال فالقصص والروايات كثيرة ، والمسعودي والطبري خطوا أروع لوحة لمأساة عاشقين جميلين واجها حتفهما بهذه الطريقة المفجعة ، ولكن ابن خلدون[٢] لا يتفق مع هذه الآراء فيقول : لا يمكن لهارون الرشيد أن يزوج الأميرة العباسة ، حتى ولو كان زواجاً أبيض إلى جعفر الذي ينحدر من أجداد فرس ووثنيين . كما أن معظم المؤرخين المستحدثين متحفظون ، إذ يقولون بأن المصادر التي اعتمدت في نسج هذه الروايات جاءت متأخرة جداً وبالتالي فإنها لا تحظى بالمصداقية . . .

ولما لم يكن في ذلك الوقت سوى مؤرخين رئيسيين هما المسعودي والطبري ولا يوجد في المقابل من يحقق في الأخبار ، في هذه الحالة ، فإن أخبارهم هي الأخرى مرفوضة تماماً ، لذلك فإنه بالنسبة لنا نحن الغربيين ، نرى أن أحداث الرواية غير مقنعة أبداً وإنما مجرد رواية خيالية بعيدة عن منطق التاريخ ، بيد أننا نعترف بأنها محبوكة جيداً وخاصة بالنسبة لعقاب العشيقين المدانين . كما أنه يجب أن لا ننسى بأن العباسة لم تكن شابة في تلك الفترة ، إذ إن عمرها آنذاك كان يتجاوز الأربعين

---

(١) In Yezditarikh

(٢) مقدمة ابن خلدون .

عاماً . كانت أكبر من شقيقيها الهادي والرشيد ، وكانت متزوجة مرتين . عليه لا يصدق أن تكون قد تزوجت جعفر في ظروف مثل ظروفها ، لذلك فإنهم بهذا الوصف قد انتقصوا من هذه السيدة باختلاق أحداث ساذجة ومعقدة ، وعندما يقولون إنها اقتادت الفتى الجميل إلى مخدعها ، وبما أن هذا الفتى كان ثملاً فإنه لم يتعرف عليها لا قبل المعاشرة ولا بعدها ، وهذا أمر غريب ، ولو صح قول هؤلاء المؤرخين ، يعني أن الرشيد كان بليداً (وهو عكس ما نقله إلينا التاريخ) ، لدرجة أنه لم يلاحظ انتفاخ بطن شقيقته التي لا يمر يوم إلا ويلتقي بها . . علينا إذن أن نجري المزيد من البحث عن أصل الرواية العاطفية الحزينة والرهيبة والتي بطلاها جعفر والعباسة ، وكما يقول الشاعر «وما انتفاع أخ الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلمُ»(١) . .

في هذه الحالة ، ما هي أسباب قتل جعفر وارتكاب هذه المأساة التي هزت العرب على مدى قرون عديدة ؟ يقال إن جعفر كان يتظاهر بالإسلام ولم يقم الجوامع إلا لتمويه الناس ، وكانت تزعجه قراءة القرآن ، فقد ظل مزدكياً(٢) (mazdeen) في أعماقه ويستدلون على ذلك نصحه للخليفة الرشيد في أثناء وجوده في مكة بحرق البخور صباحاً ومساءً في الكعبة ، وكأنه يريد أن يحولها إلى معبد . ويعزى فتور عقيدته في الإسلام إلى تسامحه تجاه العلويين وتجاه البدع والمخالفين للإسلام ، وأن جعفر أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوي الثائر في «الديلم» (daylam) . . وفي الواقع فإن هذا غير صحيح ، فقد علمنا أن الفضل هو الذي وضع نهاية لهذه القضية وأن هارون وجه اللوم له ، إلا أن جعفر كان قد أعدم علوياً آخر هو «عبد الله بن الحسن» (Abduallah. B. Hassan) خلافاً لأمر الخليفة ، كما أن جعفر اتهم بتحويل كمية ضخمة من أموال الدولة لصالح شخص عباسي اسمه «عبد الملك» (Abdel Malik) بن صالح الذي كان موضع شك هارون للإطاحة به ، ولما كان الرشيد دائم

---

(١) كان هناك رجل عربي فصيح اللسان ومتعلم وكان اسمه زارارا بن محمد العربي ، وفي يوم من الأيام وصل القصر فقدمه الحاجب الفضل بن الربيع العدو اللدود للبرامكة الى الخليفة ، وسرعان ما اندمج مع الحاشية وأصبح بالنسبة لجعفر منافساً خطيراً ، ولما هدد بالقتل اختفى ، وقيل للخليفة إنه مات الى . . . أن سنحت له الظروف بالخروج من مخبئه ، عندئذ قال له الخليفة مندهشاً إنك مت ، فقال نعم مت ولكن بعثني الله من جديد حتى يعلم أمير المؤمنين بقذارة المكيدة التي كنت ضحيتها .

(٢) البرامكة من أصل بوذي ولم يعتنقوا المازودية مطلقاً .

الغضب على حرسه فإنه لم يستبعد مشاركة جعفر في هذه المؤامرة . . لقد بدأ جعفر يضايق الخليفة ، وخاصة عندما بدأ الضجيج والأنوار والكلام يشع وينطلق من نوافذ ذلك القصر الفخم الذي بناه جعفر على ضفاف دجلة ، وقد روجت واختلقت العديد من النوادر عن غضب الخليفة على ترف جعفر ومن بينها ، (كان هارون الرشيد متوجهاً في أحد الأيام إلى الصيد في موكب كبير وفخم ، فسأل هارون أحد مرافقيه . . هل رأيتم في حياتكم موكباً للصيد بهذه الفخامة؟ فأجاب المرافق : ليس هناك شيء يقارن بموكب جعفر ، وعندما كان يمر موكب الخليفة بالقرى حيث يشاهد الحدائق الغناء التي تحيط بالقصور الجميلة كان يسأل هذا لمن؟ وذاك لمن؟ وفي كل مرة يأيته الرد إلى البرامكة وإلى البرامكة ، عندئذ قال الخليفة : (خنا أنفسنا عندما فعلنا كل شيء من أجل نمو ثروة البرامكة ، هاهم قد أصبحوا فعلاً عظماء ومن يعلم إلى أي مدى بلغت ثروتهم)(١) . .

ولعل السبب ، الذي يتجاوز في تأثيره حسد الخليفة وانزعاجه من ترف وبطر جعفر هو عداء حاجب الخليفة الفضل بن الربيع له ، إذ إن أحدهما يكره الآخر كرهاً مقيتاً ؛ لأن جعفر كان حجر عثرة أمام طموح الفضل وكان يعلم أنه قادر على تحطيمه . لقد كان الفضل يزيد الكراهية في نفس هارون ويثير شكه في كل تصرف يقوم به جعفر ، وكانت المعارضة ضد البرامكة تلتف حول شخصية الخليفة . . وفي الواقع لم يكن الفضل بن الربيع الشخص الوحيد الذي يكره البرامكة ، فكبرياء وترف النديم الجميل جعفر وأساليبه المتعالية في التعامل هي التي ولدت الحقد الدفين ضده ، فمثلاً زبيدة لم تكن تتعاطف مطلقاً مع نديم الرشيد جعفر ، الذي كان وصياً

---

(١) حسبما يروي المسعودي فإن الأموال غير المنقولة للبرامكة كانت منتشرة في كل أرجاء الامبراطورية . . كان خالد ويحيى يملكان حياً كاملاً في بغداد ، ويستحصلان مبالغ ضخمة من إيجارات بيوته ودكاكينه . . كما أن يحيى شيد قصراً آخر سماه بتواضع قصر «الطين» . وكان يعيش في قصر آخر مقابل قصر الخلد الذي يقيم فيه الخليفة . . أما قصر جعفر الذي أهداه للمأمون فقد كان يطل على دجلة وعلى الضفة نفسها . . كان ليحيى وجعفر بالإضافة إلى ذلك أسواق . . وكانت هناك قناة تسمى بقناة الفضل وساحة باسم خالد البرمكي ، أما في الأقاليم فإن استغلال الأراضي الزراعية كان يدر عليهم أموالاً طائلة في البصرة . كانوا يملكون قصر السيحان وكان لديهم في بلخ وكان عندهم قرية مهمة اسمها رافن ، وهناك في البلخ بوابة يحيى وفي بخارى بوابة الفضل . . الخ .

على المأمون المنافس الكبير لولدها الأمين ، والكل يعلم بتقدير هارون لمواهب المأمون وعزم الخليفة على تقديمه على الأمين في الخلافة ، والإجراءات التي اتخذت في مكة منحت للمأمون حكم خراسان وعززته بقوات ضخمة تحت قيادته ، الأمر الذي زاد في الطين بلة ، هذه الظروف زادت من قلق زبيدة ، وكان كل شيء يشير خلال الأسابيع التي سبقت المأساة بأن إمبراطورة القصر تمارس ضغوطاً كبيرة على الخليفة من أجل الإيقاع بجعفر ذلك المخلص المنافس لولدها . أما العلاقات بين هارون الرشيد والفضل البرمكي ، فإنها كانت ذات طابع آخر ، فالخليفة كان يشيد بكفاءة الولد البكر ليحيى وعلاقته معه شبه رسمية ، فقد نجح نجاحاً باهراً في إدارة إقليم خراسان لمرتين ، وأبدى مهارة فائقة سواء في قيادته للقوات أو الإدارة . والنجاح يثير الحسد ، لذلك فإن حساده كثر وعلى رأسهم أخوه جعفر ، الذي كان يسيء إليه أمام الخليفة أو أمام الأمراء ، والسبب هو أن شعبية الفضل رغم الصرامة المرتسمة على وجهه والكبرياء الذي يظهر عليه ، كانت أكثر من شعبية جعفر .

لقد أظهر الفضل بن يحيى تسامحاً كبيراً مع العلويين ، فقد أخذ على عاتقه إطلاق سراح يحيى بن عبد الله أحد أحفاد الحسن ، كما أنه خالف الرشيد حول مسألة تصفية الإمام موسى الكاظم بل حمايته لفترة من الزمن ، إلى أن نهاه أبوه يحيى البرمكي وبأمر من هارون ، دون أدنى شك ، كما أن هارون كان له مأخذ آخر على الفضل بن يحيى ، ذلك مساعدته لعلوي آخر اسمه «طبطبا» (tabtaba) أحد أحفاد الإمام الحسن ، ونقطة الخلاف بين الرشيد والفضل هي أن الخليفة كان يشك بل يرتعب من كل شيء اسمه تمرد ، رغم أن سلطاته كانت بلا حدود ، في حين كان رأي الفضل على العكس ، إذ كان يعتقد أن من الحكمة ترك العلويين بسلام طالما لايشكلون عليه خطراً حقيقياً . . . وتحت حجة التسامح مع أعداء الخليفة ، وبتأثير من الشخصيات المعادية للبرامكة وعلى رأسهم الفضل بن الربيع ، كان الفضل بن يحيى أول من أعفي من وظائفه ، ولم يحتفظ سوى بوصاية الأمين ولي العهد . لقد كان على يحيى الرحيل عندما وضع الرشيد هذه النهاية المأساوية لعائلته . . . أي ترك الرشيد ، ولعل قول الشاعر ينطبق على حال يحيى : ((علمته الرماية فلما اشتد ساعده رماني)) .

لقد كان الرشيد في سنين حكمه الأولى محاطاً برعاية واهتمام يحيى ، وكان منصرفاً إلى ملذاته وتاركاً عصا قيادة الإمبراطورية إلى يحيى . وبعد تجربته في السلطة

أصبح يحيي عبئاً عليه بل عائقاً أمامه ، والسبب واضح ، فمزاج الرشيد وطباعه تختلف كلياً عن يحيى ، فالخليفة حاد الطباع ، قراراته فورية وقاسية وارتجالية ، في حين نرى يحيى مرناً يفضل النقاش والحوار على العنف والشدة ، وهكذا تحول هذا الرجل العجوز إلى عبء ثقيل على الرشيد ، إلا ان ذلك لا يعني أن الرشيد لم يكن ذكياً ، ولكن كان يرى في البرامكة الخطر الحقيقي على نظامه ، أي أن تنزلق السلطة بشكل غير محسوس الى أيادٍ غريبة لا يملك منها الا المظهر ، وقد نقل العديد من المؤرخين رواية «جبريل» (djibril) طبيب الرشيد : ففي أحد الأيام كان جبريل يعالج الخليفة فسمع ضوضاء في القصر ، فقال الخليفة : ما هذا ؟ فقالوا له : (إنه يحيى الذي يحاكم أحد المتجاوزين ، فرد الخليفة : ليباركه الله ويجزيه ، لقد خفف عني هذا العبء وحل مكاني) وتكرر هذا المشهد بعد عدة سنوات ولكن بشكل آخر ، عندما قال هارون : (لعنه الله ، فإنه يتصرف دون أن يعير لي أي اهتمام ، بل حسب ما يشاء ويشتهي حتى ولو كان ذلك يخالف رأيي) . . وعندما سمعت زبيدة هذا الكلام من الرشيد زادت الطين بله فهاجمت يحيى بعنف[١] . . .

وما من شك فإن يحيى البرمكي لم يكن يزمع أو له النية في إزالة الخليفة حسبما اتهموه بذلك ، ولكن هل كان يحيى البرمكي أو أحد أبنائه أو افراد عائلته يدبرون مؤامرة عندما دب الخلاف مع الرشيد لاستبداله بعباسي آخر أو علوي ، وهو ما كان يخشاه الخليفة؟ وبالنسبة لأمير المؤمنين هل كان يمكن تصفية البرامكة كنتيجة منطقية وحتمية لقرارات مكة؟ وهل إن تقسيم الإمبراطورية كان يمكن تحقيقه والبرامكة في السلطة؟ أو ليس ببعيد أن يكون سبب مأساة البرامكة يكمن في مشكلة الخلافة وليس له علاقة بمسألة الصراع بين العرب والإيرانيين(الفرس) . . كما أن البرامكة نزحوا من خراسان ، موطنهم الأصلي ، وكانوا «بوذيين» (bouddhistes)

---

(١) عكست قصة ألف ليلة وليلة قوة ونفوذ البرامكة . . (كان الكلام كله يدور على البرامكة وعلى مجدهم وقوة نفوذهم ، ولم يكن أحد يستطيع الحصول على امتياز او مكرمة إلا عن طريقهم مباشرة أو غير مباشرة ، من جهة أخرى كان البرامكة يحتلون معظم المناصب الحساسة كالبلاط والجيش والقضاء والولايات والمراكز الحساسة الأخرى . . . كان الناس يتزاحمون على أبواب قصورهم سواء كانوا مهنئين أو معجبين أو محتاجين بأعداد تفوق أولئك الذين يقفون على أبواب قصور الخليفة . .) الليلة ٩٩٦ .

قبل أن يعتنقوا الإسلام وليسوا «زرادشتيين» (zoroastriens) ، ويبدو أن نشرهم للثقافة الفارسية كان محدوداً ، حيث نفوذهم لم يكن يحتاج إلى تعميق التأثير الفارسي في تلك الفترة ، ولذلك فإن تسامحهم مع العلويين العرب وغير الإيرانيين (الفرس) لم يكن له أي علاقة مع أصلهم الخراساني وهذا أمر معروف ، ثم إن أصلهم الخراساني لايشكل انتقاصاً لهم ، فالثورة العباسية انطلقت من خراسان والخراسانيون كانوا من أشد الناس دعماً للنظام العباسي ، ذلك لأن انصهار البرامكة في الثقافة العربية كان كاملاً رغم التأثر بالفلسفة والثقافة والفنون الفارسية . ومع ذلك فإنه لم يوجه أي لوم أو انتقاص إلى البرامكة عن «إيرانيتهم» (iranism) . إن معظم أبناء البرامكة ورثوا ثروات متنوعة من المال والجاه والعلم .. الخ ، وكل الذين سلموا من سيف الرشيد سواء من الذين فروا أو اختبأوا عادوا في عهد المأمون يمارسون حياتهم بصورة طبيعية ، بل عادوا يحتلون مناصب مهمة في الدولة ... من بينهم «محمد ابن يحيى» الذي عين والياً «للبصرة» وعباس بن فهد والياً لخراسان ، وموسى والياً للسند ، ثم عين ولده «عمران» للإقليم نفسه بعد والده ، كما أن أحد أحفاد «موسى» واسمه «عبد الحسن» الذي برع في الشعر والتاريخ عين نديما عند الخليفة «المقتدر» (Muktadir) . ومن أحفاد البرامكة المشهورين نذكر النسابة المشهور «ابن خلكان» (Ibn Khalikan) الذي توفي في دمشق عام ١٢٨٢ م وهو من سلالة جعفر البرمكي ، كما ارتقى منهم الوزارة والسلك الدبلوماسي والقضاء . وصار لقب «برمكي» يطلق على كل من يتعاطى معهم ، وادعى البعض أنهم من أحفاد البرامكة «كالبوراميك» Borami و«البورامات» (Boramat) الذين استوطنوا في البداية في طرابلس الغرب ثم في «طواط» (Touat) . ويروي المؤرخ جيرار دونيرفال (Gerard de Nerval) في كتابه «رحلة الى الشرق» عن راقصات ومغنيات وفنانين كانوا يؤكدون برمكيتهم ..

الفصل الخامس

هارون الرشيد وعلاقاته الدولية

«علاقات شارلمان مع ملك العرب(١) الذي ملك الشرق عدا الهند ، كانت ودية ، لدرجة أن شارلمان كان يحرص على كسب وده ورضاه أكثر من أي ملك أو أمير في العالم»

Eginhard

«ما من شك ، فسوف تفتحون القسطنطينية ، طوبى لذلك الجيش والأمير الذي سيستولي عليها»

محمد ﷺ (حديث شريف - بتصرف)

---

(١) الكلمة باللاتينية Perse تعني الفرس ، وقد ترجمناها الى الحالة الصحيحة وهي «العرب» .

أكثر العالم قرباً وتأثيراً بالعرب الذي تربطه وإياه علاقات مباشرة هو ذلك الذي يتناثر على ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط ، حيث كان العرب يمارسون سياساتهم الخارجية مع هذه الدول ، إن كانت هناك سياسة خارجية بالمعنى الحديث . كان خليفة المسلمين واسع النفوذ لدرجة أن ممتلكاته تمتد بعيداً في كل الاتجاهات حتى لتمس الآفاق ؛ لذلك كان يحتقر كل شيء لا يعود إلى دار السلام ، بل إن كل سلاطين العالم بالنسبة له أتباع . . .

وكان يتفضل باستقبال الشعراء في المناسبات وخاصة شعراء بيزنطة .

فالعرب انتزعوا كل ممتلكات بيزنطة الشرقية خاصة تلك التي في شمال أفريقيا ، ولم يعد البحر الأبيض المتوسط «البحر البيزنطي» ، وانتهت سيطرة الملك الإغريقي على إيطاليا في الشمال . وبدأت موجات السلاف التي عبرت الدانوب تدق أسوار القسطنطينية . وكان مصير بيزنطة يعتمد لعدة قرون على تشتت أعدائها وعلى تفوقها التكنولوجي ، وعلى رجالها المتميزين عند الحاجة لإنقاذ تراث قسطنطين Constantin وجوستنين Justinien ، وفي الحقيقة فإن القرن الثامن الميلادي يتميز بالتمزق والانحطاط للإمبراطورية البيزنطية ، فقد شهد تغير ثمانية أباطرة وحرق وزيرين وهما أحياء خلال حكم الإمبراطور JustienII جوستين الثاني ، ثم تكررت الكوارث والثورات والانتفاضات في كل أجزاء الإمبراطورية البيزنطية فكانت تنتظر المنقذ ، وكان ليون اسورين « Leon Isourien» قائد الأناضول Anatole الذي انتفض ضد الإمبراطورية قد أعلن إمبراطوراً من قبل مجلس الشيوخ والجيش والشعب . . .

كانت أول مهمة أمام الإمبراطور الجديد هي إيقاف المد العربي ، وقد استطاع ليون الثالث Leon III الوصول إلى هذا الهدف من خلال دسيسة حاذقة خدع بها اللواء مسلمة (Maslama) الذي كان الخليفة الأموي قد أرسله ضد بيزنطة . فكانت نتيجة هذه الدسيسة أن مسلمة Maslama قد رفع الحصار عن القسطنطينية . ولكن تعرضت للهجوم بعد عدة سنوات حتى بلغ مدينة Nicee التي تقع على مقربة من العاصمة ، وكأنهم يريدون القول بأن المدينة التي تحظى برعاية الله تبارك بالفتح الإسلامي . . .

ومن الأحداث التي عصفت بحكم الإمبراطور Leon III ليون الثالث وابنه قسطنطين هي حرب الأصنام ، التي كانوا الأساس فيها ، ويا ترى هل كانت

الأسباب دينية أم سياسية؟

على كل حال ، كان الهدف فيها وضع حد لتنامي نفوذ الأديرة وثورتها وتقليص عدد الرهبان ، إذ كان الإمبراطور ليون الثالث Leon III ينحدر من أصول شرقية ، وربما كان متأثراً بتقاليد اليهود والإسلام الذين يرفضون عبادة الأصنام . وبعد أن دفع الإمبراطور الخطر العربي ، أمر بتحطيم أكبر تمثال للمسيح كان قد أقيم على واجهة قصر الإمبراطورية للقسطنطينية ، فثارت الجماهير ضد هذا الإجراء ومورست أعمال عنف واضطهاد ، وبلغ الحال إلى القطيعة مع البابوية «Papoute» وتمزقت أصول الإمبراطورية البيزنطية لحساب المملكة الفرنجية التي كان يتعاظم نفوذها في الغرب . . .

وقد أَمَرَ كركوار الثاني Gregoire II بمقاطعة كل شخص يخضع لأمر الإمبراطور البيزنطي . وكان رد فعل ليون Leon III سريعاً ، فقد أمر بفصل الكنيسة عن بطركية روما وربطها بالقسطنطينية الأليركية «Lillyricum» أي الدالماس Dalmatie ، وكل شبه جزيرة البلقان «Balkanique» ونيقوسيا وكالابر «Calabre» وبذلك تكون إيطاليا قد انقطعت عن الإمبراطورية البيزنطية . وما أن حدث ذلك حتى انتقل البابا من حماية بيزنطة إلى حماية ببين «Pepin» ملك الفرنج ، الذي عهد في عام ٧٥٤ م ، إلى اتين الثاني «Etienne» «تحمل مسؤولية القديس Pierre أي مركز البابوية وجمهورية الرومان «La Republique de Romains» رغم إرادة الإمبراطور البيزنطي الذي كان يأمل توحيد إمبراطوريته ، ولكن مع ذلك لم يكن يستطيع أن يمنع ظهور إمبراطورية منافسة له . . .

بعد أقل من خمسين عاماً ، توج شارلمان ، في روما إمبراطوراً للغرب ، هذا الغرب الذي عاش قروناً من الظلام وتعرض لغزو البرابرة «La barabare» ، عاد لكي يحتل مكانه في عالم لم يزل ضيقاً آنذاك .

اذن ، أصبحت هناك إمبراطورية في شرق البحر الأبيض المتوسط بالرغم من الأزمة التي مرت بها ولكنها قوية وكبيرة ، وإمبراطورية ثانية تظهر إلى الوجود في أوربا . وهناك في خاصرة الغرب إمارة قرطبة التي أفرزتها دار الخلافة في دمشق ، حيث آخر أمراء بني أمية يقيمون فيها صرحاً ويفرضون إعجاب العالم بهم بل وحتى إعجاب أعدائهم ، وهكذا تغير الوضع الدولي وأصبحت هناك إمبراطوريات ودول ، وعلى العباسيين اختيار الحليف المناسب لإقامة العلاقات الدبلوماسية التجارية ،

فيا ترى من تختار ؟

بطبيعة الحال ، فإن هذه الدول ، إذا استثنينا منها البعيدة ، لا يمكن أن تقارن مع قوة العباسيين آنذاك ، فاليابان كانت في أوج تحولاتها التاريخية حيث تمكنت في عصر نورا «Nora» من توحيد البلاد وفتحها على البحر ، إلا أن التبادل التجاري كان محصوراً بشكل خاص في الشرق الأقصى . . .

في الصين ،كانت سلالة تانك – Tang – عرضة للانتفاضات والثورات التي كانت تتذبذب بين الفوضى والاستبدادية ، أما هزيمة الطلاس «Talas» في عام ١٥٧م وهي إحدى الحوادث التاريخية التي حددت مستقبل الشرق الأوسط وربما أوربا ، فإنها أبعدت وبشكل نهائي الصينيين في آسيا الوسطى ، وانتهت وإلى الأبد فرصة الصين للتدخل في مصير البلدان الواقعة بين التين – شان Tien- Chan والبحر المتوسط ، فيما كانت القبائل التركية تواصل ضغوطها باتجاه الغرب ، حيث توجه أوكيز «Oghuz» وكارلوك «Karluk» باتجاه بحيرة البلخ «Balach» وخانا أوكير «Khanatuygure» ، الذي كان يعتنق المانوية «Manuicheenne» فإنه قد راقت له شمال مونكوليا «Mongolie» ثم أقام في واحة تاريم «Tarim» أما الخزر فإنهم استقروا في الوادي الممتد بين الأورال Oural والدون Don ، وكان قسم منهم قد اعتنق اليهودية وامتد تأثيرهم نحو الشمال ، وقد استغلهم الإمبراطور البيزنطي كقوة ضد العرب . . .

وفي شمال القارة الأوربية بدأ الإسكندنافيون والأمراء الأنكلو- ساكسون «Angla - Saxen» بإقامة علاقات تجارية مع سكان البحر الأبيض المتوسط والشرق ، مع كيف «Kiev» والأنهار الروسية والماينس – Mayence – وغرباً طريق الميز «Meuse» ومدن البلطق«Baltique» .

وفي الواقع ، فإن العلاقات الحقيقية بين العالم الإسلامي والغرب ، بشماله وغربه ،لم تقم إلا بعد فترة من الزمن ، وقد توثقت هذه العلاقات فيما بعد مع بلدان جنوب شرقي آسيا وجزر المحيط الهندي . في كل هذه البلدان ، وخاصة في الهند ، حيث تسود فيها سلالات قوية وتجار ، لعبت دوراً كبيراً في تعرف الشعوب بعضها ببعض من خلال التجارة . . . لذلك عرفت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً اقتصادياً كبيراً ، كالذي عرفته أوربا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، وهذا يعني أن النهضة الإسلامية كانت نتيجة زمن التلاقي . . .

في تلك القرون السحيقة حيث الإيمان يملأ الروح والقلب .. هل كان من الممكن للمعارك أن تستمر بين الصليبيين والمسلمين دون أن تؤثر عليها اعتبارات أخرى؟ عندما تنمو المصالح وتفرض نفسها ، فإنها تحتل الأولوية وتتقدم على الاعتبارات الأخرى ، وتتحول الحروب شيئاً فشيئاً من الهدف الديني إلى الهدف المادي والسياسي ، وعند ذلك تتلاشى العوائق في إقامة العلاقات مع أي كان في سبيل مصلحة الشعوب . هذا هو المبدأ الذي انطلق منه شارلمان في إقامة العلاقات آنذاك مع بغداد عاصمة الخلافة العباسية . . . وهكذا بدأت تتغير الموازين والتحالفات ، إذ نرى أن البيزنطيين كانوا مستعدين لدعم الأمويين في إسبانيا «أعداء الأمس» ضد العباسيين الذين حاولوا وبذلوا كل جهودهم لقلب نظام حكم «الفرع» الأموي في إسبانيا . . .

في الطرف الآخر ، المملكة الفرنجية التي تساند البابا في صراعه ضد إمبراطورية بيزنطة ، تراقب بارتياح كل هزيمة يلحقها العباسيون بالإمبراطور البيزنطي ، فقد كانت جيوش بني العباس تتدفق كالسيل على حدود بيزنطة لدك مدنها . . .

الفرنجيون والعباسيون إذن ، كان من مصلحتهم مقاومة أمويي إسبانيا ، فالملك الفرنجي ببين «Pepin» انحاز إلى جانب البابا ضد الإمبراطور البيزنطي في معارك الأصنام ، ووجد نفسه ((حليفاً)) إلى جانب الخليفة . وإذا ما علمنا أن أمويي إسبانيا كانوا قد غزوا بواتيه «Poitiers» عام (٧٣٢ م) ومكثوا فيها قرابة عشرين عاماً ، ولم يستطع الفرنج إخراجهم من ناربون «Narbonne» إلا في عام ٧٥١م ، عندئذ نفهم هذا التعاون بين الفرنسيين والعباسيين ، وهكذا نرى تكتلاً إسلامياً - مسيحياً ضد تكتل آخر إسلامي مسيحي[١] .

تجسد هذا التعاون الفرنسي - العباسي لأول مرة عبر تبادل البعثات الدبلوماسية بين الزعيمين الفرنجي ببين القصير «Pepin le Bref» والعباسي الخليفة المنصور عام (٧٦٥ م) . . .

في تلك السنة أرسلت العائلة الملكية الفرنسية آل كارولنجين La Carolingien سفراءها إلى بغداد ، الذين عادوا إلى بلادهم مصطحبين معهم سفراء الخليفة

(١) هذا التعاون تعزز بعد فشل تمرد علاء بن مغيط «Ala ibn Maghit» المدفوع من قبل العباسيين ضد أمير قرطبة .

ومحملين بالهدايا الثمينة إلى جلالة الملك ببين Pepin ، وبعد إقامة قصيرة عاد سفراء المنصور بحراً إلى بلادهم محملين أيضاً بهدايا الملك Pepin . ويقول المؤرخون إن الملك Pepin استقبل سفراء الخليفة بحفاوة بالغة في حديقة ميتز Metz الفرنسية . ويقول المؤرخ الفرنسي F. W. Buckler : «هكذا ظهرت كُتل التحالف ، البابا والخليفة العباسي وملك الفرنج من جهة والأمويون و القسطنطينيون من جهة أخرى ، ويقصد البيزنطيين» تحالف على قاعدة المثل القائل «عدو عدوي صديقي» . . . إذن كانت هناك مصالح مشتركة بين الزعماء الثلاثة : المنصور ، ملك الفرنج ، والبابا ، وكل منهم كان يدعم الآخر عند الحاجة . . . مثلاً ، اعترف المنصور بسيادة الملك Pepin على مناطق السراكوس Saragosse وبرشلونة Barcelone ، وفي عام ٧٥٢ م أصبح والي هذه المدينة تابعاً للملك Pepin . . .

بالمقابل ، كانت العائلة المالكة الفرنجية تساعد العباسيين ضد الأمير الأموي في إسبانيا ، رغم انها أي العائلة الفرنجية كانت تعلق آمالاً كبيرة على هذه المنطقة قبل مجيء الأمويين إليها . . . وهذه الآمال يفسرها المنطق بأن الفرنج كانوا يطمحون في الوصول إلى ما وراء جبال البرنس Pyrenees ، وقد استغل العباسيون هذا الطموح ضد الغاصب الأموي وحسب الظروف . . هذا النوع من الاعتراف المتبادل على الأقاليم والمناطق بين دولتين بعيدتين كل البعد الواحدة عن الأخرى كانت له معانٍ كثيرة . . .

في الرابع والعشرين من أيلول (٧٦٨ م) توفي الملك Pepin في سانت دني «Saint - Denis» و دفن في دير المدينة حسب رغبته . . . كان ببين Pepin قبيل وفاته ببضعة أيام قد قسم الإمبراطورية بين ولديه شارل «Charles» وكارلومان «Carlomane» ، استلم الأول شمال المملكة واستلم الثاني جنوبها الشرقي ، وهكذا توج شارل في نويون «Noyon» وتوج أخوه في سواسون «Soisson» . . .

لم يدم الوفاق طويلاً بين الأخوين ، إلا أن المنية عاجلت كارلومان «Carloman» بعد ثلاث سنوات من توليه العرش ، وكانت خير حل لتسوية الأمور بينهما ، فانضم أنصاره إلى أخيه شارل الذي أصبح فيما بعد شارلمان «Charlemagne» ، وهذا المصطلح تعبير حي لنجاحه المطلق في دمج العناصر الرومانية والكولوازية gaulois والجيرمانية «germanique» فيما يسمى بأوربا «Europe»[1] .

---

(١) الأصول K. F. Werner.

وهكذا ، فإنه ، بصفته الإمبراطور المسيحي والأوربي ، سار على خطى والده نفسها ، فيما يخص سياسته تجاه الشرق .

انشغل الملك الشاب شارلمان في بداية حكمه بالأمور الداخلية ، وبعد مضي سنين عديدة ركز نشاطه الخارجي على مسألتين مهمتين ، الأولى كانت إيطاليا والثانية كانت فتح ساكسون «Saxon» . . .

فبالنسبة لإيطاليا ، فإنه قتل ملكها ديديه «Didier» بعد أن طرد زوجته التي هي ابنة الملك اللومبارد «des lombarde» ثم استفاد من اللقب الذي كان يحمله والده «ملك الرومان» ، فأباح لنفسه التدخل في الشؤون الداخلية للبابوية ، فتوج ابنه Pepin ملكاً على إيطاليا وجعلها مرتبطة بمملكة الفرنج . . .

أما بالنسبة للساكسونيين فإن شارل Charles استعمل معهم القوة والشدة في بعض الأحيان ، ولم يمارس السياسة معهم إلا قليلاً ، كان فتحاً حقيقياً لهذه المنطقة التي استغرق الاستيلاء عليها وقتاً طويلاً ، ولم يستتب السلام فيها إلا عام (٨٠٤م) بعد أن أخضع اليه كل سكان المنطقة الساكسونية ، وكانوا قد بدأوا الاستسلام منذ عام ٧٧٧م في بادروبورن «Paderborn» . وصادف في العام نفسه وصول سليمان ابن العربي والي ساراكوس إلى أكس لاشابل الذي أصبح تابعاً له بعد أن اعترف المنصور بها لوالده «Pepin» . كان سليمان بطبيعة الحال على خلاف مع أمير قرطبة ، ولذلك فإن زيارته للملك شارلمان كانت تهدف إلى إقناعه بشن حملة عليه في شمال إسبانيا ، ولم يتأخر الملك الفرنجي عن تلبية هذا الطلب ، فشن عليه في ربيع عام ٧٧٨م حملة بقيادته مخترقاً جبال البيرينيه «Pyrenée» . ولما لم تصل إليه الإمدادات التي وعده بها والي الساركوس سليمان بن العربي ، اضطر إلى التراجع وفشلت الحملة . وبما أنه لم يستطع الاستيلاء على الساركوس شهدت مدينة رونسيفو «Roncevoux» مجزرة كبيرة لكل قوات الحماية في المؤخرة . . .

في الحقيقة كانت هذه الهزيمة درساً بليغاً لشارلمان ، وعلم أن القتال فيما وراء جبال البرنس «Pyrencees» يكلف أكثر مما توقع ، واكتشف أن سكان جبال تلك المناطق شرهون للغنائم ولا يؤتمن جانبهم ، والأمرّ والأدهى من ذلك فإن مصداقية التحالف مع الزعماء المسلمين غير مضمون بل خاضع لتذبذب العلاقات فيما بينهم - أي فيما بين المسلمين - كما أن السكان ينفرون من الانضمام تحت لواء قائد كافر يدفع للاقتتال بين المسلمين . . . هذه التجربة التي كلفت الكثير من

الخسائر جعلت شارلمان يغير أفكاره وخططه في التوسع إلى ما وراء جبال البرنس ، ورأى أنه من الأحسن لأمن دولته أن يقيم المواقع على طول الحدود ليتمكن من مراقبة العرب ويوقفهم إذا حاولوا التقدم نحو الشمال ، بفضل القوة العسكرية التي أنشأها . . . وهكذا عاد شارلمان لينظم شؤونه الداخلية . فأقام مملكة صغيرة في فرنسا أطلق عليها «Aquitaine» وعين ابنه لويس Louis ملكاً عليها ، وقد عرف بلويس الورع «Louis pieux» . وكلما كانت السنين تمر كان الملك شارلمان يزداد خبرة وتجربة في السياسة الخارجية ، حيث أصبح أكثر حذراً في مسألة التوسع ، حتى إن والي برشلونة التمس بضم برشلونه مؤكداً بأنها تُسلم دون قتال ، إلا أن شارلمان لم يرد عليه . في مثل هذه الظروف قرر شارلمان إرسال وفد إلى بغداد لمقابلة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

شارلمان يرسل أول بعثة دبلوماسية إلى هارون الرشيد

في الوقت الذي كان الرشيد في أوج مجده وشهرته التي عبرت البحار والقفار ، وكان الكل يعلم بأن الفتى الأمير يقود حملة على البسفور ، وقواته تتوغل في عمق أراضي بيزنطة ، كان شارلمان يعلم ذلك ويعلم أيضاً أنه بالرغم من نقاط ضعفه والمشاكل التي تعصف بقصره والأخطار التي تحدق به ، فإن الأمير الشاب يعتبر بيزنطة أكبر وأخطر أعدائه ، فدسائس اليونانيين في إيطاليا أزعجت الملك الفرنجي ، وما حدث في القسطنطينية أثار اشمئزازه ، حيث استولت امرأة على الحكم بعد أن قلعت عيون ولدها لتحل محله ، وكانت الكنيسة أو البابوية بيد شخص ضعيف ومهزوز هو ليون الثالث «Leon III» الذي كان متهماً بغرامه مع النساء (حيث كتب له شارلمان رسالة يحثه فيها على العيش بنزاهة وشرف) . في مثل هذه الظروف ومثل هذا الوضع المضطرب ، كان إمبراطور الغرب وخليفة بغداد (دعامتين) رئيسيتين في عالم ذلك العصر ، يطمح شارلمان إلى التحالف مع هارون الرشيد وإن تعذر عليه ذلك فإن إقامة العلاقات الدبلوماسية معه تتيح له التعرف على آرائه وأهدافه وخططه . . .

إذن ، ماذا سلم السفراء المعتمدون من تعليمات محددة إلى خليفة المسلمين ؟

لا تتوفر أية معلومات حول مضمون هذه التعليمات ، ولكن الخطوط العريضة لا تخرج عن الإطار السياسي العام للزعيمين . . .

ومما لا شك فيه ، فإن مسألة إسبانيا كانت من ضمن النقاط التي كان شارلمان

يرجو من الخليفة توضيحها ، فالوجود الإسلامي في الجزيرة كان يشغل الفرنج منذ فترة طويلة ، كما ان شارلمان لم ينس هزيمته التي مني بها فيما وراء جبال البرنس Pyrennce والخسائر الكبيرة التي لحقت بجيشه وجيش ولده خلال العمليات العسكرية . العباسيون من جانبهم رغم تخليهم عن فكرة قلب نظام حكم الأمير الأموي في إسبانيا فإنهم اعتبروا أنفسهم في حرب مستمرة معه ، وبقيت بغداد تراقب نشاطاته كلما سنحت لها الفرصة .

في الواقع ، فإن كل أعداء الأمير عبد الرحمن الداخل ومن جاء بعده لا يمكن أن يكونوا سوى أصدقاء للخليفة ، إضافة إلى ذلك فإن العباسيين كان لديهم في إسبانيا صداقات مع رؤساء القبائل العربية ، الذين كانوا يتعاونون مع شارلمان ضد الأمويين . أما علاقات شارلمان مع بيزنطة فكانت أكثر تذبذباً ، فالقوتان المسيحيتان في أكس لاشابل Aix-la-Chapelle والقسطنطينية تتنافسان من أجل التفوق الإمبريالي ، ومما زاد الطين بلة قيام البابا في مثل هذه الظروف بتتويج شارلمان ملكاً للرومان ، الأمر الذي نتج عنه توتر شديد بين الإمبراطوريتين ، وكانت قد أجريت مراسيم التتويج في ٢٥ كانون الأول في عام (٨٠٠) م أي بعد ثلاث سنوات من سفر البعثة الدبلوماسية إلى بغداد . ولما تأزمت العلاقات مع بيزنطة ، فإن شارلمان كان يهمه جداً أن يعرف تطورات العلاقة بين الخليفة الرشيد وملك بيزنطة ، مع أن شارلمان كان يعلم بأن للخليفة مصلحة في تصعيد الأزمة بين القوتين المسيحيتين .

وكان قد حدث في أثناء قرار إرسال السفراء الفرنج إلى بغداد أن بلغ شارلمان بخبر مزعج ، مفاده أن عدداً من البدو قد شنوا غارات على مدينة اكس لاشابل Aix-la-chapelle وسلبوا السكان وقتلوا ثمانية عشر قساً ، فتأثر شارلمان كثيراً لهذا الحادث وأوصى سفراءه بالتدخل لدى الخليفة لوضع حد لهذه التجاوزات ورعاية المسيحيين قدر الإمكان في مصر وشمال أفريقيا وسوريا والقدس . .

تشكيل البعثة الدبلوماسية إلى بغداد

اختار الملك شارلمان شخصيتين علمانيتين هما لانتفريد «Lantfreied» وسجيس موند «Sigis Mond» مع مترجم يهودي اسمه إسحق «Isaac» . توجه الوفد إلى بغداد نهاية عام ٧٩٧ م حاملين معهم رسالة من شارلمان إلى هارون الرشيد ، ولكن أي طريق سلك الوفد !؟

كان الطريق الأمثل في ذلك الوقت للسفر إلى الشرق هو الإبحار إلى مصر ، ومن هناك براً إلى القدس وسوريا أو إلى بيروت ثم حلب ، والنزول إلى الرقة عبر الفرات ومنها إلى بغداد . ويبدو أن البعثة الدبلوماسية أخذت هذا الطريق . . .

بعد سفر الوفد حدثت أمور مهمة ، وبقي ملك الفرنج ينتظر موقف الخليفة ولكن دون جدوى ، وبعد ثلاث سنوات عاد إسحق من السفر وحده ، أما السفراء فقد لاقوا حتفهم في طريق العودة[١] .

هدية الرشيد الغريبة إلى ملك الفرنج

عندما عاد اليهودي إسحق المترجم ضمن البعثة الدبلوماسية إلى شواطئ أفريقيا الشمالية وكان بصحبته مرافق مزعج ، طلب من الملك إرسال زورق لنقله ، فأمر شارلمان سكرتيرته أركانبالد «Ercanbald» بتسهيل مهمة إسحق . وفي تشرين أول من عام ٨٠١ م وصل إسحق بصحبة «أبو العباس»[٢] بورتوفينر «Perto Venere» ثم إلى لكيري «Ligurie» ليمضي «أبو العباس» الشتاء في مدينة فيرسي «Vercei» .

وفي ٢٠ تموز من عام ٨٠٢م وصل الضيف المزعج (الهدية) اكس لاشابل «Aix-la-chapelle» ، حيث مقر الإمبراطور الذي استقبله مع جمع غفير من الناس وقد أدهشهم منظره . . . وفي الواقع لم يكن (أبو العباس) هذا سوى فيل هدية من الرشيد إلى شارلمان . . .!!

وقد روى المؤرخون أن الهدف الأساسي من إرسال البعثة الدبلوماسية كان يكمن في جلب هذا الحيوان الإسطوري لكي يزين القصر الإمبراطوري ، وهذا غير وارد ، فالملك الفرنجي أرسل سفراءه إلى الخليفة لأسباب أخرى مهمة كما ذكرنا . وربما كانت الهدية من اجتهاد الرشيد ليظهر صداقته إلى شارلمان ، وللأهمية الكبيرة التي يعلقها الرشيد على دولة الفرنج على كل حال . اجتمع شارلمان بالمترجم إسحق فور وصوله ، وكان ذلك اللقاء أول تكريم يحظى به يهودي في تلك

---

(١) لم تعرف الظروف التي توفي فيها سفراء الملك شارلمان ، ومن المحتمل أنهم ماتوا بسبب المرض . ولو كانوا قد اغتيلوا لكان قد ذكر .

(٢) حسب ما بين فاسليف «Vasiliev» كان امتلاك الفيلة حصراً بالخليفة وكانت تجلب له من الهند .

الفترة[١] . أما (أبو العباس) فلم يلائمه جو أوربا البارد فمات عام ٨١٠م . وقد جرت تطورات مهمة على صعيد العلاقات الدولية خلال الثلاث سنوات التي استغرقت رحلة الوفد الدبلوماسي إلى بغداد ، وكانت تصب في صالح الشرق ، ففي نهاية عام ٧٩٩م وصل إلى اكس لاشابل Aix-la-chapell مبعوث بطريك القدس الأب جورج «George» حاملاً رسالة إلى ملك الفرنج تتضمن شكر وتقدير بطريك القدس على اهتمام شارلمان بالمدينة المقدسة وإرساله ثلاثة «سفراء» محملين بالعطايا . . . وقد أرسل مع المبعوث حفنة من رفات القديس سوبالكر «Saint-Sepalcre» ..

بعد عدة أسابيع ، عاد مبعوث البطريك مصطحباً زميلاً له من قساوسة قصر شارلمان اسمه زاشاري «Zacharie» ويحمل أيضاً هدايا وعطايا إلى الأماكن المقدسة ثم عاد إلى بلاده . . . في يوم ٢٣ كانون الأول من عام ٨٠٠م أي قبل يومين من حفل تتويجه في روما ، استقبل شارلمان زاشاري «Zacharie» مع اثنين من رهبان القدس أرسلهم معه الأب جورج «Gorge» بطريك القدس ، وكانا يحملان (مفاتيح القديس سبيكر) «Saint Sepuchre» ومفاتيح مدينة جبل (صيون) «Sion» مع شعار الصليب [٢] وتمثال المسيح المصلوب .

استضاف الملك المبعوثين ومكثوا عنده في أكس بعض الوقت ، وعادوا إلى القدس في نيسان من عام ٨٠١م ، يقول مؤرخو ومحللو ذلك الزمان ، بأن إرسال هذه المفاتيح لها معان سياسية أكبر من أن تكون مجرد هدية . . . وهو في الواقع اجتهاد لا أساس له من الصحة ، والسبب أن تقديم مفاتيح مدينة إلى مسؤول كبير أو ضيف إنما هو من باب الاحتفاء به وهو تقليد معمول به حتى اليوم . . وكان البابا منذ القدم ، يوزع مثل هذه المفاتيح الصغيرة التي ترمز إلى مدينة سانت بير «Saint-Piere» على الشخصيات المهمة التي كان يريد تكريمها ، وعليه فإن مفاتيح بطريك القديس قدمت انطلاقاً من هذا التقليد ، أما شعار الصليب ، فإنه كان بلا شك قطعة صنعت وطعمت ببعض الأجزاء من الصليب الحقيقي [٣] . . .

---

(١) G. Musac

(٢) حسب سجلات المملكة الفرنجية .

(٣) حسب A. Kleninchausa

والواقع ، فإن قساوسة القدس إن كانوا يعبرون عن امتنانهم لشارلمان فإنه ليس فقط للهدايا والتبرعات التي كان يرسلها إلى القدس ، ولكن ربما كان الامتنان لتدخل سفرائه لصالح مسيحيي الشرق في ذلك الوقت ومستقبلاً ، إذن هذه المفاتيح كانت مجرد رمز لا أكثر ، وفي كل الأحوال فإنها لاتهدف إلى تعيين شارلمان والياً للقدس ، كما توهم البعض .

شارلمان يستقبل مبعوثي الخليفة وابن الأغلب

كان وصول وفد بمستوى رفيع يتألف من شخصيتين إسلاميتين أهم بكثير من هدايا قساوسة القدس ووصول (أبو العباس) الفيل ، وهاتان الشخصيتان كان أحدهما من قبل الرشيد والآخر من قبل أمير القيروان إبراهيم بن الأغلب أقوى أمراء شمال أفريقيا ، الذي ذكرنا الدور الذي لعبه هناك . لم يكن من باب العبث أن يرسل ابن الأغلب مبعوثه إلى الملك شارلمان ، وإنما كان الهدف إقامة علاقات مع الحاكم الذي يسيطر على الجانب الآخر من البحر المتوسط . استقبل شارلمان السفراء في منطقة «Verceil» في شمال إيطاليا ، حيث كان هناك آنذاك ، وقد حملوا إليه الهدايا الثمينة من جانب الخليفة الرشيد أو من جانب ابن الأغلب ، ومن جملتها قردة ومراهم وعطور وأدوية وكل ما كان ثميناً آنذاك ، وبكميات كبيرة وكأنهم نقلوا كل ما في الشرق والغرب كما يروي القس سانت كال «Saint-Gall» . . .

بالنسبة لمبعوث الرشيد فإنه جاء رداً على البعثة الدبلوماسية التي أرسلها شارلمان عام ٧٩٧ م التي كان من نتائجها الفيل (أبو العباس) . . .

كانت تلك الأيام التي وصل فيها الوفد دقيقة ومصيرية بالنسبة لمستقبل الإمبراطوريتين . . . حيث البابا وأمير الشرق هارون الرشيد يمران بأزمة حادة وخطيرة ، والسبب هو أن تتويج شارلمان أثار مخاوف البيزنطيين من احتمال هجوم مباغت يشنه الإمبراطور الجديد على القسطنطينية لطرد ايرين «Irene» مغتصبة عرش «Cesar» . كما أن الرشيد ، كغيره من الحكام المسلمين ، كان يطمح هو الآخر بالاستيلاء على القسطنطينية ، عليه كان مهتماً جداً لمعرفة مشاريع شارلمان . . . هل سيتزوج ايرين «Irene» ؟ أو سيجيش عليها الجيوش؟ وماذا سيحدث؟ وما هو مضمون رسالة السفيرين؟ هل كانت تتضمن اقتراحات الرشيد وابن الأغلب لإمبراطور الغرب؟ كل هذه الأسئلة لازالت أجوبتها غير معروفة لحد الآن . . . إلا أن معطيات السياسة تبين

لنا أن بيزنطة كانت النقطة الأساسية التي تشغل اهتمام الخليفة الرشيد ، فقد كان مستمراً في استعداداته وتحشداته على الحدود ، أما بالنسبة لإبراهيم بن الأغلب ، كان هو الآخر له حدود بحرية مع بيزنطة ، وبالتالي فهو يهتم بما يجري فيها . . .

وقد أثبتت الأحداث ، بعد ثلاثين سنة ، عندما نزلت قوات الأغالبة في نيفوسيا ، إحدى الموانئ البيزنطية ، التي اجتاحت جنوب إيطاليا . . . أن الأغالبة كانوا في ذلك الوقت يرصدون ويراقبون الأحداث ويتقصون الأخبار . .

وهناك نقطة أخرى هي أن إسبانيا القاسم المشترك بين اهتمامات شارلمان – الرشيد – إبراهيم الأغلب ، إذن ، هاتان النقطتان تستحقان هذا الاهتمام الذي يوليه الزعماء الثلاثة كل حسب مصلحته . . . أمضى المبعوثان المسلمان عدة أشهر في بلاط الملك شارلمان حسب ما يروي نوتكر «Notker» راهب مدينة كال «Saint-Call» . يقول بأنهما قد صُعقا مما شاهداه من جمال خلاب في كل مكان . . ففي يوم عيد الفصح حضرا القداس في الكاتدرائية وأمر الملك اعتبارهم ضيوف شرف ، ودعاهم إلى مائدته ، ولكن (فقدوا شهيتهم للطعام لكثرة الروائع التي شاهداها)[1] .

بعثة دبلوماسية ثانية

لم تمر بضعة أسابيع إلا وقد أرسل شارلمان ، في عام ٨٠٢ م على وجه التحديد ، سفيراً جديداً آخر إلى هارون الرشيد . كانت البعثة الدبلوماسية برئاسة رادبيرت «Radbert» أحد مستشاري الملك شارلمان . ولم يبين السجل اليومي للقصر الملكي أية تفاصيل عن إقامة رادبيرت «Radbert» في العراق ، ولا عن السفرة ، عدا أن رادبيرت «Radbert» استطاع أن ينفذ بجلده عندما عبر من وسط الأسطول الإغريقي دون أن يلقى القبض عليه . ومع ذلك لم تؤدِ هذه المهمة أية فائدة لوفاة رادبيرت في إيطاليا عند عودته . . . وفي الوقت نفسه وصلت إلى شارلمان بعثتان دبلوماسيتان ، الأولى من قبل هارون الرشيد برئاسة الأمير عبدالله و الثانية من قبل البطريك ثوماس «Thomas» بطريك القدس ، الذي خلف البطريك جورج

---

(١) هذه الرواية حتماً مختلقة من قبل الراهب بكل تفاصيلها ، لأنه كتبها بعد خمسين عاماً في كتاب اسمه «Gesta Caroli Magni» الذي يتضمن مدحاً طويلاً لشارلمان .

«George» ، وكان مؤلفاً من راهبين ، الأول اسمه فلكس «Felix» والثاني اسمه جورج «George» من أصل ألماني وهو قس طائفة جبل الزيتون ، وهذان الراهبان أبلغا شارلمان رسالة مفادها التماس بطريك القدس الجديد «Thomas» إعانة مالية لصيانة الممتلكات المسيحية في الأراضي المقدسة . . .

أما عبد الله ممثل الرشيد ، فقد كان محملاً بهدايا كثيرة ، من بينها خيمة وبسط من كتان مطرز بألوان جذابة وكميات من الأقمشة الحريرية والعطور والمراهم والعقاقير النادرة ، وشمعدانان عموديان من النحاس المطلي بالذهب ، وساعة من النحاس مذهبة أدهشت كل من رآها[(١)] .

البعثة الأولى كانت مكلفة بمهمة دينية ولم يكن لها طابع خاص أو استثنائي ، ولكن ربما كانت مهمة الأمير عبد الله تشكل حدثاً مهماً ، وهي لا تختلف في طبيعتها عن البعثة التي سبقتها و كانت مرسلة من قبل الرشيد نفسه . من المحتمل أن يكون الأمير عبد الله مبعوث الرشيد قد أكد لشارلمان المطالب التي عرضها سلفه ، التي كانت موضوع بحث السفراء السابقين ، والنص الوحيد المعول عليه هو سجل (Anna les Regnifrancorum) ، ولكن ايجنهارد Eginhard كان قد دون في يومياته معلومات متضاربة لا تتيح معرفة الأحداث أو المصالح التي كان يعلقها الخليفة على شارلمان حتى دون أن يذكر التواريخ . وقد كتب مؤرخ شارلمان باختصار هذه اليوميات (لم يكن الرشيد يعلم برغبات شارلمان فقط بحيث يمنحه كل ما يريد ، وانما وضع تحت سلطته المكان المقدس الذي انبثق منه خلاص البشر) أي السلطة فقط على قبر سيدنا المسيح ، المنقذ ، ومكان نشر رسالته «وبعد حوالي ستين سنة ، كتب راهب «Saint-Calle» في مذكراته خطاباً مختلقاً باسم هارون الرشيد موجها لمبعوثي شارلمان يؤكد لهم استعداده لوضع «أرض الميعاد» تحت سيطرة شارلمان وإدارتها «كوكيل» عن الخليفة» . . . هذه مقتطفات قصيرة من مذكرات هذين الراهبين التي قادت المؤرخين المحدثين للاعتقاد بأن الرشيد كان قد منح شارلمان حق الحماية «Protectorat» على فلسطين . ودون أن ندخل في تفاصيل هذه الخلافات[(٢)] فإنه مما لا شك فيه بأن

---

(١) يشير القصر الملكي أنها ساعة مائية ، وكانت ترمي في كل ساعة كرة ملونة في حوض مع رنة جرس . . في الظهر يظهر ١٢ فارساً من خلال (١٢) نافذة .

(٢) انظر الملحق رقم (٥) .

كلمة حماية «Protectorat» غير واردة في ذلك العصر، ذلك لأن هذه الصيغة لم تكن مألوفة آنذاك لا في الغرب ولا في الشرق، وخاصة في القرن التاسع الميلادي، وعليه فإنه ما ورد هنا عار عن الصحة. وعلى كل حال ماذا يعني أن يضع الرشيد مرقد السيد المسيح تحت سيطرة شارلمان، لقد منحه «سلطة» ولكن السلطة على ماذا؟ على المكان الذي يرقد فيه المسيح ملفوفاً بكفن لا يزيد طوله على سبعة أقدام حسبما ذرعه الأسقف Arculfe[1] أركليف بيده شخصياً، وهذا يعني أن كل المساحة المعروضة لشارلمان لا تزيد على المساحة التي يشغلها سرير لشخص واحد مستلق على ظهره.

إذن، ليس هناك في النصوص الغربية المحفوظة شيء يمكن لنا أن نذهب إليه أبعد من هذا التفسير؛ ذلك أن الخليفة قد منح شارلمان «السلطة» على المرقد نفسه وليس على غيره.. أما وأن تمتد هذه السلطة إلى الضريح وبالتالي إلى الكنيسة مرقد السيد المسيح فهو أمر يحتاج إلى نقاش...!

مهما تكن المصالح السياسية التي تدفع الرشيد لإرضاء شارلمان، فإنه ما من شك في أن الخليفة كان يجامل ملك الفرنج بقصد التكريم الرمزي فقط...

ذلك لأن المعروف عن الرشيد حرصه على الدين، وكان الدين هو الحجة التي طردوا بها الأمويين من السلطة من أجل الدفاع عن الإسلام والمؤمنين. وهذا الحرص هو سبب وجودهم في السلطة، خاصة في الفترة العباسية الأولى. إذن، كيف يمكن لأمير المؤمنين أن يمنح السلطة إلى كافر لكي يسيطر على مكان يضم قبر السيد المسيح؟ هذا التصرف كان يشكل خطراً جسيماً على نظام حكمه بل على كل أركان الدولة العباسية... وأول هذه الأخطار يكمن عند العلويين، إذ سوف يمنحهم الفرصة لاستغلال هذا التجاوز والخرق الديني ضد بني العباس... إضافة إلى ذلك أن الرشيد كان رجلاً حذراً وقلقاً وحريصاً على نظامه. عليه فإن مسالة الحماية «Protectoarat» على فلسطين غير صحيحة ولا توجد أية وثيقة تؤكد هذا الطرح...

إن هذه «الهيبة» لقبر السيد المسيح، رغم غياب الوثائق العربية، لم تكن سوى مسألة رمزية، مع ذلك فإنها بالنسبة لشارلمان والمسيحيين الآخرين كانت تعني شيئاً

---

(١) اركلف الأول حسبما ذكره كلاينكلوز «Kleinclausz» بأنه أول أسقف فرنجي زار الأراضي المقدسة ووصفها وصفاً دقيقاً وخاصة القبر.

آخر ، ذلك لأن القيمة الدينية لقبر المسيح لا تقدر بثمن ، وخاصة إذا ما أصبح شارلمان «السادن» الوهمي لقبر المسيح . هذه الصفة الشكلية تساعد جداً في استقطاب مسيحيي العالم ، عليه ، فإن شارلمان داعب أحلام المسيحيين ودعاهم للذهاب ، رجالاً ونساء ، لزيارة القدس ، الأمر الذي زاد في رصيد شارلمان وتعزيز مكانته الدينية بالإضافة إلى الجانب السياسي . . .

وهناك رواية أخرى مختلفة بالكامل من قبل قس Saint-Call سانت كال ، وهو يتخيل سفرة لشارلمان إلى الشرق ، واصفاً وصول الإمبراطور للقدس «هبة» الرشيد وصفاً مبالغاً فيه ، حتى عودته وهو يحمل رفات القديس «Andre» .

وتروي لنا إحدى القصائد ، التي كتبت في القرن الثاني عشر الميلادي ، تفاصيل أخرى لسفرة شارلمان إلى الشرق ، تخص مآثر الإمبراطور وجيشه وشجاعتهم ومروءتهم من الحجاج الذين أزالوا كل مظاهر الوثنية في المدينة المقدسة ، وقد جعلوا من شارلمان أول صليبي يدخل القدس . وقد بقي هذا المعتقد سائداً في كل العالم حتى نهاية القرون الوسطى . . .

يبدو أن شارلمان قد انهال عليه الكرم العربي الإسلامي ، فإن السلطات الإسلامية من المحتمل أن تكون قد منحته ، إضافة إلى الهدية الرمزية لقبر السيد المسيح ، صلاحية «حمايته» المؤسسات الدينية للتدريس ، أي توسيعها وصيانتها وترميمها لاستقبال أكبر عدد من الحجاج وتسهيل إقامتهم . . . وقد وجدت في سجلات ذلك العصر آثار تدل على وجود سبعة عشر قساً فرنجياً في مدينة القدس . ويبدو أن خلفاء شارلمان استمروا في هذا الإعمار ، حيث شيدوا فندقاً كبيراً وسوقاً ومكتبةً للحجاج ، كما ان الإمبراطور شارلمان اشترى في حياته مزرعة كروم وبساتين في وادي «Josphat» التي يطلق عليها (حقل الدم) ، وهي الأرض التي امتلكها يهودا «Judas» بثلاثين درهماً لقاء خيانته .

ما إن ترك الرشيد الدنيا عام (٨٠٩) م إلا وعمت الاضطرابات والفتن في كل أرجاء الإمبراطورية ، واستمرت على مدى عشر سنوات عانى خلالها المسيحيون الكثير من الويلات والمآسي ، شأنهم شأن باقي الأقليات في مثل هذه الظروف [1] ثم

---

(١) في عام (٨١٠) م أمر أحد مساعدي شارلمان بجمع التبرعات لإصلاح كنائس القدس التي نُهبت خلال الحرب الأهلية .

عادت حياة المسيحيين إلى طبيعتها ، يتخللها اليسر والعسر حسب الظروف وحسب أمزجة الولاة والموظفين الذين هم على علاقة مباشرة بالمواطنين . . .

أما الامتيازات التي منحها الرشيد لشارلمان فقد بقيت محصورة بالإعمار والترميم ، وهي الأعمال التي استمر بها خلفاء شارلمان من بعده ، ولا يستبعد أن تكون زيادة عدد الرهبان والقساوسة الفرنجيين في الأراضي المقدسة قد حصلت في تلك الفترة ، وقد استمرت هذه النشاطات العمرانية والدينية لفترة طويلة بعد رحيل الإمبراطوريتين حتى إنها أصبحت تقليداً . .

بعد أقل من سنتين على إقامة الأمير عبد الله ومرافقيه في بلاط الملك شارلمان توفي هارون الرشيد في خراسان ، في وقت وصل فيه عبد الله ليطلع الرشيد على نتائج مباحثاته مع شارلمان ، حتى إنه لم يدركه في الرقة «Raqqa» لأنه كان تركها إلى خراسان قبل وصول عبد الله . . . وفي الحقيقة فإننا لم نعثر على أي نص عربي بخصوص تفاصيل العلاقات بين الرشيد وشارلمان ، ذلك لأن انتقال الخليفة إلى رحمة الله والحرب الأهلية التي تبعت وفاته أدت إلى قطع العلاقات الدبلوماسية . كما أن التغيرات والانقلابات التي حدثت في الإمبراطورية العباسية خلقت وضعاً جديداً ، في حين لم يتخذ خلفاء الرشيد الأمين والمأمون أية مبادرة لإعادة العلاقات مع الخارج[1] . ورغم أن المأمون قد بدأ بحملة جديدة ضد بيزنطة قبل وفاته إلا أنها توقفت ، وكان شارلمان قد توفي في عام ٨١٤ م .

إعادة كتابة التاريخ كلفت دائماً ثمناً باهظاً على الأمم والشعوب . . . تُرى ماذا كان عليه الحال لو لم ينته حكم الرشيد بالشكل المفاجئ بسبب وفاته ، سواء كان ذلك بالنسبة لبيزنطة التي كان يعد لها الحرب أو بالنسبة لإمبراطور الفرنج الذي كان ينتظر منه الرد . . .؟

في ضوء سير الأحداث السياسية في المنطقة في ذلك الوقت ، من المحتمل جداً أن المباحثات كانت تدور حول خلق محور أكس لاشابل - بغداد Aix-La-Chapelle-Bagdad رغم المسافات الطويلة التي كانت تفصلهم واختلاف

---

(١) أرسل المأمون في عام (٨٣١) م إلى لويس الورع «Louis le Pieux» ابن شارلمان وفدين ، الأول مسلم والثاني مسيحي ، وذلك لجس نبض الملك الفرنجي في وقت كان الخليفة يعتزم شن حملة جديدة ضد بيزنطة .

وجهات النظر ، وليس من المستبعد أن يكون الاتفاق الشكلي بين الإمبراطورين قد وقع . ومن الأكيد كذلك أن هذا التعاون لم يذهب بعيداً ، بل هو يكمن في جوهر المنافسة «التي يؤججها الصراع» . . . كان الرشيد وشارلمان يكنّان العداء نفسه إلى قرطبة والريبة نفسها تجاه بيزنطة ، الأمر الذي جعلهم ينظرون إلى الوضع الدولي بمنظار واحد وخاصة تجاه المنطقة المطلة على البحر الأبيض . وفي الواقع فإن الإمبراطورين يتمنيان بيزنطة ضعيفة . كان الرشيد يحرص أن لا يقام تعاون بين بيزنطة والفرنج ، كما أنه يخشى ، رغم بعده عن إسبانيا ، انتشار إسلام جديد يمكن أن يتطور سريعاً ويشكل خطورة لا تقل عن بيزنطة . . .

في خضم هذا الصراع الإقليمي والدولي ، أطل القرن التاسع الميلادي والدولة العباسية تواجه خطر المحاولات الانفصالية في عدة أقاليم ، وكان الرشيد يعلم بأن الإمبراطور ، في الجهة الأخرى من العالم ، يمكن أن يكون له صديقاً عند الشدة . .

ولكن عاد الأمير عبد الله دون أن يسلم الرشيد جواب شارلمان ، وهنا توقفت الصداقة بين الرجلين بل بين الدولتين . . لا حلف دبلوماسياً ولا مشاريع عسكرية ، سوى أن كل طرف أمن جانب الطرف الثاني طالما العدو مشترك وخاصة عند التهديد بالخطر . . .

ومهما تجر الأحداث فإن بيزنطة هي الجار الوحيد للعرب ، أما الشعوب الأخرى فإنه يفصلها عن العرب مسافات بعيدة تستغرق أشهراً وسنين ، لذلك فإن إقامة العلاقات بين العرب والبلدان البعيدة تضاعفها المسافات وتخلف وسائل المواصلات ، ثم إن الشرع الإسلامي يعتبر السفر إلى بلاد الكفر عملاً ذميماً غير مرغوب فيه ولا يكون مقبولاً إلا عند شراء الأسرى . . . أما الذي يتجاوز هذا العرف ويسافر إلى بلاد الكفار فإنه يعتبر من الزنادقة [1] وهؤلاء فقط يتخذون هذا المانع النفسي فيسافرون طلباً للتجارة والإثراء السريع ، أما عامة الناس فكانوا يجهلون كل شيء عن آسيا ولا يعرفون عن أوربا سوى أفكار عامة . أما بالنسبة لأفريقيا فإنهم يقفون في حدودها عند المغرب وجزء من الساحل الشرقي وبقية العالم .

أما البيزنطيون ، فإن الأفكار التي لديهم عن بلدان الغرب والشمال أكثر وضوحاً

---

(١) هذا المبدأ لم يبق على ما هو عليه ، فقد اجتهد به العلماء وارتبط بضرورة الأحكام بإيجاد حل وسط يتيح لغير المسلم التجارة في بلد المسلم .

بالمقارنة مع العرب ، فهم يقيمون علاقات تجارية وسياسية مع النظام الكارولنجي «Carolingien» الفرنجي ، وكانت إيطاليا الوسطى تشكل جزءاً من الإمبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن الثامن ، ومع ذلك فالبيزنطيون كانوا نادراً ما يغامرون خارج حدودهم ، وتقلصت أكثر عندما احتل العرب السواحل الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط ، بعد أن أصبحت التجارة في هذه المناطق بيد العرب . . . إذن ، الإمبراطوريتان المتجاورتان العربية والبيزنطية محكومتان ، إذا صح القول ، بتبادل العلاقات ، وهذه العلاقات مهددة بالقطيعة كلما قامت حرب بينهما ، ومع ذلك يؤول قسم منها إلى (الضرورية) وخاصة التبادل التجاري بكل أنواعه الذي يفرض نفسه . . . ولكن هل كان التفاهم قائماً على صعيد الشعوب بين العرب وبيزنطة . . .؟ بالطبع لا . . فالدين يختلف تماماً ، والموقع يختلف ، فكل من العربي والبيزنطي يعتقد بتفوقه على الآخر ، رغم أن الاثنين كانا في ذلك الوقت يقتسمان العالم . . . فالمسلمون يعتقدون بأن دينهم الوحيد على حق ، ولابد من أنه سيعم العالم في يوم ما ، وبأنهم أمة فضلها الله ، وينظرون إلى البيزنطيين ككفرة مشركين بالله .(الثالوث) الرب والابن وروح القدس مرتكبو المعاصي بخلاء ، لا يحترمون كلامهم ، نساؤهم قذرات وفاسدات ، طعامهم رديء ورجالهم أخناث[١] .

أما البيزنطيون ، فإنهم يعتقدون بأن إمبراطوريتهم وحدها التي باركها الله ، وهي التي حققت المثالية في الدين والفكر والأخلاق . هذه القيم التي يعمل من أجلها الإنسان على هذه الأرض ، وإن من يعيش داخل الامبراطورية فإنه يحيا في عالم متحضر ، أما فيما وراء هذا العالم فإنه التخلف والفراغ «لقد ضرب المسلمون الإمبراطورية التي أنعم الله عليها . . . لقد فرقوا وحدة العالم التي كادت أن تتحقق ، إنهم ملحدون» [٢] .

اذن ، سواء كانوا بيزنطيين أو مسلمين ، فإن كلاً منهم يعتبر الآخر من الهمج والبرابرة ، ولكن شعور الفريق الأول في التفوق أقوى مما عليه لدى الفريق الثاني . ومع ذلك فإن التعايش كان مكتوباً عليهم ، فهم محكومون بالجيرة بسبب حدودهم المشتركة . . . .

---

(١) في الواقع فإن عملية الإخصاء كان يمارسها اليهود بالذات .

(٢) إسلام العصور الوسطى «GruneBaum»

كـانت العلاقات التجارية بيـن عرب الجزيـرة وإغريق الإمبراطورية المسيحية قائمـة قبل الإسلام ، فالنبي ﷺ والخليفة عمر احترما حقـوق الكمارك عنـد دخول الأراضي البيزنطية . وفـي عهد الأمويين كـان التبادل يجري عـن طريق البحر ، وكانت البضائع والمنتوجات ترسل إلـى القسطنطينية مـن جميع أنحاء العالم ، فـي وقت كـان التوسع الاقتصادي للعبـاسيين فـي ازدياد مستمر ، ولكـن خـط التجارة كـان يمر دوماً عبـر القسطنطينية حيث يوجد فيهـا جامع للتجار المسلمين ، ومكـان لاستراحتـهم . أما الخـط الآخر لطريق التجارة فكانت موانىء طربوزن ولاموز «Trebizond et Lamos» فـي تركيـا الحـاليـة . وعلـى طول طريق التـجارة ، كـانت تقـام المعارض والأسـواق وفيـهـا يتبادلون السلع بكـل أنواعها . . . كمـا أنها تستخدم كمركز لتبادل الأسرى اليونانيين والعرب ، ولـم تكن التـجارة مطلقة بيـن البلدين ، فكـان هنـاك حظر علـى بعض المواد لكلا البلدين ، فالتجار الأجانب لا يستطيعون استيراد كتب القرآن الكريم ولا عطـور البخور . بالمقابل منـع البيزنطيون من إخـراج أي نوع مـن أنواع الزيوت مـن بلـدهم . . .

وبشكل عام ، كان الحكام العرب والبيزنطيون يتبادلون الهدايا في المناسبات . . . ففي إحدى المناسبات قدم معاوية إلى إمبراطور اليونان خمسين فرساً من نوع أصيل (علماً أن تصدير الخيول العـربية كان يخضع لرقابة شـديدة) . . . أما المأمـون فكانت جل هداياه من المسك وفـرو السـمـور . وفي إحـدى المناسـبـات قـدم هارون الرشـيـد للإمبراطور نيسفور «Nicephore» كمية من العطور النادرة وخيمة من الفواكه الجافة ، بالمقابل أرسل نيسفور إمبراطور بيزنطة مئتي بدلة نسائية من القماش الثمين مع عدد من الصقور وكلاب الصيـد . . . أمـا الإمبـراطورة البيـزنطية «Irene» فقد أرسلت له (١٥) طن قـمـاش من نسـيج الوبر ، وكـان تبادل الهـدايا يشـمـل كل شيء ، كـالحرير والملابس النادرة والمجوهرات الثمينة والعبيد من كلا الجنسين . . .

وتروي لنا ألف ليلة وليلة[1] الكثير من تبادل الهدايا الأسطورية بين أمير المؤمنين وإمبراطور بيزنطة وهذه نماذج منها . . .

((كـانت هدايا الملك أفـريدونيـوس «Aphridonies» حـاكم القـسطنطينيـة نادرة وفريدة من نوعها ، ومن بينها هدية تتكون من خمسين فتاة عذراء من أجمل فتيات الروم ، وخمسين اختيروا من أفضل وأجمل فتيان بيزنطة ، وهم في قيافة رائعة في

---

(١) ص ٢٣ / من ألف ليلة وليلة .

جلباب من الحرير مطرز بالذهب ، وعلى الخصر حزام من ذهب مرصع بالفضة ، ويتدلى من أعلى أكتافهم إيزار من المخمل الملون يتداخل مع نهايات الجلباب ، فتلتف حول سيقانهم البيضاء ، كما تتدلى إلى جانب وجناتهم أقراط مطعمة باللؤلؤ الثمين ، فيختلط جمالهم بجمال زينتهم فيؤخذ الناظر إليهم . أما الفتيات فكانت كل واحدة منهن تحمل ثروة من الزينة لا تقدر بثمن . وهناك ، بالطبع ، هدايا أخرى أثمن ليس لها مثيل ، فقد أرسل أحد الأباطرة إلى الخليفة معاوية شخصين ، أحدهما عملاق والآخر ذو قوة خارقة (هرقلية) ، وكان يتم تبادل الهدايا ، بشكل خاص ، في مناسبات توقيع المعاهدات وتسليم الأسرى وتتويج الأباطرة وتنصيب الخلفاء . . . ولكن من يحمل هذه الهدايا ؟

يحمل الهدايا إلى الأباطرة والخلفاء سفراؤهم ومبعوثوهم ، وهؤلاء عند العودة يحملون بالهدايا ، مقابلة بالمثل . والسفراء يتمتعون دوماً بالحصانة الدبلوماسية والاحترام والتكريم ، وعندما يريد السفير مزيداً من التعرف على بلد يمكث فترة أطول . وفي هذه الفترة لايترك السفير أية فرصة للالتقاء بالشخصيات المهمة في البلد أو المقربين من الخليفة أو الإمبراطور ، ويستغل الفراغ المتبقي لزيارة المدن والأماكن البعيدة عن البلاد . . .

ويدعو الخليفة أو الإمبراطور عادة ، هؤلاء المبعوثين إلى مائدته ، وعندئذ تكون المائدة غنية بما لذ وطاب من أجل إبهار مبعوثي الإمبراطور أو الخليفة ، لكي ينقلوا عظمة الفخفخة إلى رؤسائهم ، وهكذا كانت بغداد والقسطنطينية تتباريان بالأبهة والترف . . . وقد حدث أن التقى المأمون بإمبراطور بيزنطة جون لو سبنسل «Jean le Spncelle» في دمشق عام ٨٣١م ، وفي هذه المناسبة وزع سبنسل مبالغ ضخمة على الشخصيات والمهنئين ، بل حتى على الناس في الشارع ، وقد أبدت القسطنطينية ارتياحها من كرم إمبراطورها أمام العرب والأجانب .

أما المراسلات بين زعماء البلدان فكانت تجري تبعاً للظروف والأحداث ، أي عندما يطالب أحد الزعيمين بتبادل الأسرى أو اقتراح عقد هدنة . في هذه الحالة يكون مضمون الرسالة ودياً ومليئة بالمجاملات ، ولكن عندما تتضمن الرسالة إعلان حرب فإن اللهجة تكون شديدة ، وفي بعض الأحيان تتضمن شتائم ، كالمراسلات التي جرت بين الرشيد ونيسفور إمبراطور بيزنطة «Nicephore» . وفي الحالات الاعتيادية يتبادلون الرسائل الشخصية الخالية من السياسة ، كأن تكون حول هدية

معينة أو شخص مرموق . . . الخ .

ففي إحدى الرسائل المتبادلة بين الرشيد ونيسفور ، طلب الأخير أن يرسل الشاعر أبا العتاهية مقابل أي عدد من الرجال يطلب الخليفة كرهائن لحين عودة الشاعر ، إلا أن أبا العتاهية رفض رغم إلحاح الرشيد عليه .

والخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك كان قد كتب إلى جوستينين «Justinien» أشهر أباطرة بيزنطة يطلب منه أن يرسل اليه أحد المعماريين والمهندسين من أجل بناء الجامع الأموي في دمشق ، وفي حالة الرفض هدد بهدم الكنائس الموجودة في دمشق ، فاضطر الإمبراطور للخضوع أمام طلب الخليفة حفاظاً على الكنائس . وهناك مثل آخر هو أن الخليفة المتوكل أحد مؤسسي الإمبراطورية العباسية طلب من فنانين بيزنطيين من الرسامين أن يزينوا جدران قصره في سامراء بلوحات تتضمن صور الكنائس والرهبان . . .

وهناك الكثير من الطرائف والألغاز التي يرويها المؤرخون عن العلاقات بين زعماء الإمبراطوريتين ، ولا سيما بين مفكري ذلك العصر ، التي يقول عنها لويس ماسينون «Massignon Louis» و«سراب يعكسه سراب حار» .

وفي هذين القرنين الثامن والتاسع ، كان العرب يحفظون في ذاكرتهم مجد بيزنطة وقدماء اليونانيين ، واكتشفوا معيناً غنياً من الفكر والثقافة ، لدرجة أنهم انكبوا على ترجمتها ، لذلك كان الخلفاء حريصين على اقتناء كتبهم والتعرف على مؤلفي الإغريق القدماء ، كما قاموا بإرسال المثقفين والمفكرين العرب إلى القسطنطينية للبحث عن النصوص الإغريقية . . . وعندما أرسل البابا ديوسكومي «Dioscomi» معاهدة إلى أمير قرطبة ، حملها أحد القساوسة من المترجمين ليفسرها ويشرحها للأمير ، كما أن المأمون طلب من الإمبراطور تيوفيل «Theophile» أن يرسل له المهندس الفلكي ليون «Leon» .

وفي كل هذه الرسائل من جانب الخليفة تبدأ بالبسملة ودعوة الإمبراطور إلى الهداية بالإسلام ، وغالباً ما تأخذ المراسلات الجدل اللاهوتي : فالخليفة عمر بن الخطاب (رض) دعا ليون الثالث الآشوري «Isaurien» إلى الإسلام ، وهارون الرشيد دعا الإمبراطور قسطنطين السادس إلى اعتناق الإسلام ، والخليفة الواثق أرسل في أواسط القرن التاسع الميلادي وبموافقة ميشيل الثالث «Michel III» بعثة علمية إلى مدينة الفيز «Ephse» الواقعة على ضفاف بحر إيجة لدراسة آثار أصحاب الكهف

السبعة [١] ويبدو أن الخليفة الواثق كان مولعاً بإرسال البعثات العلمية والاستكشافية ، حيث نظم بعثة إلى آسيا الوسطى للبحث عن السور الذي شيده الإكسندر (ذو القرنين) لحماية الناس من يأجوج ومأجوج «Gog et de Magog» . . .

ترى من خلال هذا العرض أنه بالرغم من الحروب المستمرة سجالاً بين الدولتين ، كانت هناك علاقات ودية بين زعيمي الدولتين أو الإمبراطوريتين . . . وقد منحت بيزنطة العرب نوعاً من التفوق على الغربيين حسبما يروي لنا المؤرخ فاسيلير «Vasilier» ، الذي أكد هذه الميزة بالوثائق : كان إمبراطور بيزنطة عندما يقيم حفلة غداء أو عشاء فإن البروتوكول يقضي بتقديم مدعوي الإمبراطورية العباسية على مدعوي الفرنج ، كما أن سفراء الشرق يتقدمون على سفراء الغرب . أما على صعيد العلاقات[٢] بين الشعبين فكان هناك تداخل وتزاوج ومصاهرة وتبادل في العيش والإقامة ، وكان ينتج من هذا التبادل والتزاوج الكثير من المشاكل الاجتماعية بل وحتى السياسية ، فالعرب تجذبهم بعض مظاهر الحرية في الطعام والشراب ، وتدفعهم إلى تسلل الحدود ، وعندما يقترف المتسلل جريمة أو جنحة يضطر للعودة هرباً من ملاحقة القانون . . . والأمثلة كثيرة عن البيزنطيين ، وأغلبهم كانوا يطلبون اللجوء السياسي ، وفي هذه الحالة يحتضنهم الخليفة ويعينهم في مناصب رفيعة ، فكان قسم منهم يعتنق الإسلام ويحلو له العيش في ربوع الإمبراطورية العباسية ، وقسم آخر كان يحاول العودة إلى بلاده . . . وقد يحدث أن قبائل كاملة تهاجر هرباً من التعسف والاضطهاد هنا وهناك ، أو أن يختار الأسرى البقاء في بلد الآسر ، وهؤلاء إن كانوا في الإمبراطورية العباسية فإنهم يمنحون الأراضي ، أما في بيزنطة فيستخدم قسم منهم للترجمة . . .

ونذكر أيضاً عدداً من الشخصيات التي تجندت لخدمة العرب ، ومن بينهم القائد الستراتيجي تاتزاتة «Tatzatae» الذي هرب من بلاده عام (٧٨٤)م ، والقائد البيديوس

---

(١) واستناداً إلى القصة المعروفة فإن هناك سبعة شباب كانوا قد لجأوا الى الكهف في منطقة الـ«Ephese» هرباً من ظلم الإمبراطور دسيوز «Decius» واضطهاده ، وذلك في القرن الثالث بعد الميلاد ، وأغلقوا الكهف عليهم . . ثم ناموا ، وبعد مئتي سنة استيقظوا ، ولما لم يرق لهم الحال عادوا إلى النوم ثانية وأصبح هذا الكهف مزاراً لجميع شعوب الشرق الأوسط . . .

(٢) في نظام المراسيم والتشريفات لدى البيزنطيين ، كان اسم الخليفة يتقدم في المخاطبة على اسم الإمبراطور ، ولكن في مخاطبة ملوك الغرب كان يجري العكس .

«Elpidios» ، الذي كان قد اتهم بعلاقة غرامية مع الإمبراطورة ايرين «Irene» ، كما هرب أيضاً قائد القوة البحرية لينيقوسيا «Sieile» ايفوميوس «Euphmios» كونه قد تزوج من راهبة . . . وكذلك القائد اندرونيك دوكاس «Andronic Doukas» الذي هرب واعتنق الإسلام . . .

أما النساء الإغريقيات فقد لعبن دوراً كبيراً في حياة العرب في بغداد ، وكثيرات من أمهات الخلفاء من أصل يوناني . . .

منهن والدة الواثق حفيد الرشيد ، اسمها قراطيس «Garatis» ، والحبشية أم المنتصر «Habashiyya » ، وقرب «Gurb» أم المهتدي ، وديرار «Dirar»[1] أم المعتضد «Mutathid» ، وشغب «Shagab» أم الخليفة المقتدر ، حيث قصره كان مليئاً بالرجال والنساء من أصل يوناني ، والواقع فإن «شغب» تركت ذكريات جارية من أكثر الجاريات شغفاً بالترف والرخاء .

أما السجناء الذين كانوا يعيشون في وسط السكان ، فإنهم كانوا يلعبون دوراً جيداً في تعريف عادات وتقاليد بلدهم ومقارنة بتلك التي يتعلمونها في بلد الآسر ، وهناك المعتقلون الذين هم تحت الإقامة الجبرية وهم من كبار المسؤولين والشخصيات ، ويتمتعون بامتيازات ، حيث لهم الحق باستقبال من يشاءون ، كما أن السجناء يتم تشغيلهم في المعامل ، وهؤلاء بالنتيجة يقيمون علاقات واسعة مع زملائهم من العمال ، ومن خلال هذه العلاقات يتم تبادل الخبرات والعادات والتقاليد ، والثقافات . وهذه الظاهرة تتجسد بشكل واضح في المناطق الحدودية ، حيث كل سكان هذه المناطق يتكلمون لغتي البلدين . والمشكلة الرئيسية التي تقلق الحكومات في هذه الحالة هو التهريب والتجسس .

ويمكن أن يلمس المرء بوضوح التأثيرات التي تتركها الحروب المستمرة وما تفرزه من ويلات ومآس على الإمبراطوريتين وشعبيهما . . . وبخصوص العلاقات بين العرب المسيحيين بشكل عام ، فإن الحج للقدس كان أكبر سياسة لتوغل المسيحيين في العام العربي ، هذا العالم الذي سمعوا عنه الكثير دون أن يتعرفوا عليه جيداً . . . .

ومع أن الفترة العباسية متذبذبة ، ولكن كما يبدو فإن رعايا الإمبراطورية البيزنطية كان بإمكانهم زيارة الأماكن المقدسة بسهولة ، حيث الإجراءات لا تتعدى شكليات عبور الحدود أي الكمارك ، وهي مناسبة للمزيد من التعارف بين المسلمين والمسيحيين . . .

---

(١) اسمها حرز أو ضرار - المراجع .

لقد فرضت الجغرافية على العرب والبيزنطيين التعايش بحكم الجيرة ، وكان هذا التعايش يشهد تقارباً وتباعداً ، سلاماً وحرباً ، حباً وبغضاً ، ولكن عقيدة التوحيد كانت دائماً القاسم المشترك الأعظم فيما بينهم ، وهو الذي كان يخفف من وطأة العداء بين العرب والبيزنطيين ، إضافة إلى ذلك فإنهم كانوا مقتنعين بأنهم أفضل شعبين في العالم ، وما عدا هذين الشعبين فالجميع يتخبطون في دياجير الجهل والهمجية مع قليل من الاحترام للفرس والهنود . وقد سبق لكسرى ملك الفرس كسروس «Chosroes» أن كتب للإمبراطور Mauric موريس قائلاً : «لا يوجد في العالم سوى مصباحين خصهما الإله لإنارة العالم ، هما قوة الملكية لدى الرومان والشعوب الفارسية عندما تتوفر لها القيادة الحكيمة» . وبعد أن اضمحلت الإمبراطورية الفارسية ظهر العرب لينيروا بدورهم العالم . .

هارون الرشيد في حرب مع إمبراطور بيزنطة

كان السفاح والمنصور قد أظهرا أهمية محدودة في الحرب مع بيزنطة ، إذ كان اهتمامهم الأول منصباً على توطيد دعائم حكمهم . بالمقابل كان أعداؤهم البيزنطيون منشغلين في مجابهة قبائل السلاف في طراس «Thrace» وفي مقدونيا «Macedoine» ، وبالأخص ضد هجمات البلغار التي تشكل خطراً أشد من تهديدات العرب ، إلا أنه نادراً ما تحصل مجابهة بين قوات المنصور وقوات قسطنطين الخامس في معارك مهمة . وهذه القوات تشن غارات تدمر خلالها المدن مثل ملتن «Mliten» ، ماسيا «Massisa» ، أدنه «Adana» ، ومرج «Marach» ويرحل سكانها . . .

وفي عام ٧٧١م شن الأسطول العربي غارة على قبرص «Chypre» واعتقلوا الوالي البيزنطي . . . أما عندما وصل الخليفة إلى السلطة فإن الهجوم ضد بيزنطة احتل أهمية أكبر ، وبدأت الحرب سجالاً بين المهدي وليون الرابع «Leon IV» الذي استولى على مدينة ساموسات «Samosat» في عام ٧٧٨م ، الأمر الذي دفع المهدي لتشكيل قوة كبيرة بقيادة العباس بن محمد الذي استولى على مدينة مرج «Marach» ، التي عاد البيزنطيون واحتلوها من جديد ليقتادوا اليهود إلى طراس «Thrace» ، وفي السنة التالية استعيدت مدينة مرج «Marach» إذ جهز جيش قوامه ثلاثون ألف رجل بقيادة حسن بن قحطبة ومئات المتطوعين توغلوا في الأراضي البيزنطية حتى وصلوا أموريوم «Amorium» ودوريلة «Dorylee» التي تسمى

اليوم أسكي شهر «Eskichehir» وتقع على بعد (٣٥٠) كيلو متراً . وقد حرق ابن قحطبة كل شيء في طريقه ودمر المدينة ، دون أن يواجه أية مقاومة تذكر ، مما اضطر الإمبراطور لإصدار أوامره إلى قواته للانسحاب دون قتال ... وفي عام ٧٨٠م أصبح التهديد العربي جدياً ، إذ شرع الخليفة المهدي بإنشاء خطوط دفاعية محصنة على طول الحدود ، تراقبها مراكز حماية خاصة ، وذلك بعد هجوم البيزنطيين على مرج «Marach» . وزيادة في الحيطة أسس المهدي مدينة (الحدث) «Hadath» لكي تكون حاجزاً أمام البيزنطين من جهة الشمال ، مكوناً خطاً محصناً يمتد على جانبي سوريا حتى تخوم أرمينيا «Armenie» ، أطلق عليه اسم الثغور «Thughur» . أما القوات التي تقيم في هذه المراكز الحدودية ، سواء كانوا من الجيش أم المتطوعين ، فإنهم يعيشون على السلب والنهب . ومن الصدقات يخوضون «الجهاد» الحرب المقدسة أمام العدو على الجانب الآخر من الحدود ...

أما البيزنطيون فإنهم أيضاً يعتقدون بأنهم يدافعون عن المسيحية ، ومن الأموال نفسها التي يدافع بها العرب عن الإسلام ، أي من الغزوات والسلب والنهب . هذا العدد الكبير من الرجال المجندين لحماية الحدود ، سواء من طرف العرب أو البيزنطيين ، يمضون حياتهم على حدود بلدانهم ، بعيدين عن سلطتهم ، معزولين عن شعبهم ، ليس لهم علاقة إلا مع سكان تلك المناطق ، يتقاتلون تارة ويتآخون أخرى ، يتزاورون فيما بينهم ويتصاهرون ... هذه العلاقات والتبادل بين الأعداء على الحدود كان مدار قصص وروايات وأساطير نسجتها مخيلات الكتاب والأدباء الإغريق والعرب والفرس ... نعم ، وبعد أن اطمأن المهدي الى خطوطه الدفاعية على الحدود ، شن أول حملة واسعة وكبيرة على الروم عام ٧٧٩ م ...

وفي تلك الحملة عين المهدي ولده هارون قائد الحملة ، وهذا مايفسر بأن الخليفة المهدي كان ينوي تهيئة ولده الرشيد للعرش كما فعل أبوه المنصور عندما كان يكلفه بقيادة الحملات العسكرية ، ولكن الأمير هارون الذي لم يكن يبلغ آنذاك سوى خمسة عشر عاماً ، كان محاطاً بقادة ومستشارين ، على رأسهم خالد البرمكي وأولاده ، بالإضافة إلى الحاجب الربيع بن يونس ، وهذا يعني أن الرشيد في صباه كان في أيد أمينة ورعاية برمكية ، مع أن الخليفة المهدي والأمراء العباسيين كانوا قد رافقوا الرشيد إلى سيحان «Ceyhan» [1] عبر مضايق جبال طوروس ، وهناك اختار

(١) سيحان هو نهر ينبع من خلف جبال طوروس ويصب في خليج الاسكندرونة .

موقعاً أطلق عليه اسم «المهدية» جعلها نقطة انطلاق لولده هارون باتجاه أراضي العدو ، وقد سحب المهدي قسماً من قطعاته المرابطة في خراسان وأعداداً كبيرة من المتطوعين وضمهم إلى جيش الأمير الشاب الرشيد . ومن الواضح ، فإن المهدي كان يهدف من هذه الحملة إعلاء شأن ولده هارون ، وهي مناورة عسكرية أكثر من أن تكون حالة حرب . فالرشيد محاط بخيرة القادة والمستشارين والآلاف من الرجال ، الأمر الذي يجعل من احتمالات الخطر عليه ضعيفةً جداً ، هذا بالإضافة إلى أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين انذاك لخوض حرب حقيقية مع العباسيين ، حيث كانوا يعانون من الصراع على السلطة ، وكانت معظم جيوشهم مرابطة في صقلية لسحق تمرد هلبيديوس «Helpidius» قائد الجزيرة . والعملية الوحيدة التي قام بها الأمير هارون هو فرض الحصار على موقع مدينة سامالو «Samalu» حيث استسلم سكانها بعد ثمانية وثلاثين يوماً نتيجة لنقص المياه والغذاء . ومن أجل تفادي قتل عدد كبير من المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم ، فقد قبل هارون شروط سكان المدينة ، التي كانت تؤكد على عدم قتل سكانها وتشريدهم ، واصطحبهم إلى بغداد حاملاً راية النصر . كانت هذه الحملة تجريبية بالنسبة للرشيد ، إذ قاد بعد سنتين حملة حقيقية ضد البيزنطيين تقدمت خلالها جيوشه وتوغلت في عمق الأناضول حتى وصلت إلى آخر نقطة ، بل حتى «القسطنطينية» .

وفي الواقع فإن الخليفة المهدي لم يكن يفكر بالاستيلاء على القسطنطينية كما حاول الأمويون لأربع مرات [1] وإن كانت له مثل هذه النية لقاد الحملة بنفسه ، سيما وأن أسطوله كان يستطيع صد الهجمات البرية للبيزنطيين ، ولكن فكرة إخضاع المدينة لم تغب عنه . في تلك الفترة كانت الإمبراطورة ايرين «Irene»[2] تتربع على عرش بيزنطة ، وهذه الإمبراطورة القروية المتخلفة ورثت الإمبراطورية بعد وفاة زوجها الإمبراطور ليون الرابع «Leon IV» فاستولت على السلطة على حساب ولدها قسطنطين البالغ من العمر عشر سنوات . كان حكمها ضعيفاً وأعداؤها من أنصار التعصب الديني يمثلون المراكز الحساسة في الدولة ، لكن الذي مكنها من السيطرة على الدولة هو دهاؤها ومكرها .

(١) معاوية ٦٥٥ ، ٦٦٨ ، ٦٧٤ ، وفي زمن سليمان بن عبد الملك ٧١٥ م .

(٢) حسب بيرهير «Brehier» .

أما الجيش فقد بقي موالياً أمام التهديدات الخارجية . والفضل في ذلك يعود إلى القواعد والأسس المتينة التي وضعها الإمبراطور ليون الثالث «Leon III» في تنظيم الجيش ، وقد أدت مفعولها بعد وفاته[1] .

استلم الرشيد قيادة الحملة كما فعل في الحملة الأولى ، ولكن هذه المرة كان برفقة الربيع بن يونس وعدد من البرامكة ، وكان تحت إمرته القائد المعروف يزيد بن مزيد «Yazid b. Mazyad» مع قوة قوامها (٥٩٧٩) رجلاً وعدد كبير من المتطوعين حسبما يروي الطبري . انطلقت الحملة أواخر الشتاء ودخلت أرض العدو في يوم ٩ شباط (٧٨١م) ، وبعد أن تساقطت الأسوار والتحصينات ، وأولها أسوار مجيدة ، «Magida» حصلت أول مجابهة مع كتيبة الخيالة البيزنطية . وحسب التقاليد الشرقية راح القائد يزيد بن مزيد يبارز القائد البيزنطي كونت الكونتات نيكيتا «Niketa Conte des Contes» . لم يستطع القائد البيزنطي مجابهة ابن مزيد ، ففر من الميدان وأمر جيشه بالانسحاب السريع ، ولكن العرب طاردوهم في عمق أرض الأناضول حتى وصل نيكو ميدي «Nico-Mediu» أي ازمير «Izmit» يقول الطبري . لقد تقدم الرشيد حتى بلغ قناة البسفور «Bosphore» في كريسوبوليس «Chrysoplis» وأوسكيدا «Uskidar» في الوقت نفسه الذي استمرت وحدات أخرى من جيشه في عمليات عسكرية في الأناضول وفي مناطق الباراميس واسبارتا[2] «Barisk,» Isparta» وهكذا يقف العرب وللمرة الخامسة أمام القسطنطينية دون أن يقتحموها . . .! ولربما يكمن السبب في حرصهم على حقن الدماء وبعدهم عن قواعدهم رغم الدعم والاسناد القويين اللذين كان يتمتع بهما الخليفة . على كل حال أخفقوا في تحقيق الهدف إذا ما أردنا تصديق الشاعر مروان بن أبي حفصة Merwan bin Hafsa . يقول مولاي (حاصرت القسطنطينية وصوبت رمحك نحوها ، وألبست أسوارها لباس الذل . . . ثم تركتها . . .! وفضلت استلام الأتاوات من ملوكها في وقت كان أتون الحرب لا زال يغلي . . .) .

ويبدو لنا الأسف ظاهراً على كلام الشاعر مروان ، ففي الوقت الذي تردد الرشيد في الاستيلاء على القسطنطينية ، كانت بيزنطة على وشك السقوط

(١) ليون الثالث هو والد ليون الرابع زوج الإمبراطورة (المترجم) .

(٢) حسب تيوفان «Theophane» .

والاندماج ، حيث قوات الإمبراطورة إيرين «Irene» كانت تحارب في مقدونيا «Macedonni» وفي اليونان وفي بيلويونس «Peloponnes» في محاولة لإخماد ثورات السلاف ، وهذا يعني أن منطقة القسطنطينية كانت دون حماية ، وكانت إيرين «Irene» مدركة تماماً هذا الموقف ، وتعلم بأن عرشها مهزوز لا محالة ، وكانت تخشى من أن حصار جيش الرشيد سيدوم طويلاً ، فراحت تطلب السلام ، وقد وافق الرشيد على وقف القتال والبدء بإجراء المفاوضات وتبادل البعثات ، ولكن سرعان ما تعثرت هذه المفاوضات بسبب اعتقال الرشيد لثلاثة من مبعوثي الإمبراطورة البيزنطية . . . واخيراً تعهدت الإمبراطورة ايرين «Irene» بدفع إتاوة سنوية قيمتها سبعون ألف دينار وإطلاق سراح (٥٦٤٣) عربيا كانوا في الأسر عندها . . .

ويروي الطبري بأن الإغريق فقدوا في هذه المعارك أربعة وخمسين ألف رجل ، واحتاج الرشيد إلى عشرين ألف دابة لحمل الغنائم النفيسة التي سقطت بأيدي جنوده ، أما تلك التي لا تستحق النقل إلى بغداد فقد أحرقت ووزعت في المكان ، وبلغت كميات الغنائم إلى درجة أن أصبح سعر الجواد دينارا واحدا ، وسعر الحسام درهماً والدرع بأقل من ذلك . ومع ذلك فإن الهدنة التي وقعت حددت بثلاث سنوات فقط على سبيل التجربة . . .

في ٣١ آب من عام ٧٨٢ م عاد هارون الرشيد إلى بغداد وسط هتافات وأهازيج جماهير مدينة بغداد ، واعتبر المؤرخون عودته هذه إلى العاصمة العباسية حدثاً كبيراً . في ذلك العام وبهذه المناسبة أطلق عليه والده لقب الرشيد . . .

وهكذا يخوض الرشيد حربين ضد بيزنطة وهو لم يتجاوز بعد العشرين من عمره ، وتركت فيه أثراً كبيراً ، وهذه التجربة ، أي محاربة أعداء الإسلام ، أصبحت فيما بعد الشغل الشاغل للخليفة خلال فترة حكمه . . .

تحصينات وغزوات

لم تصمد الهدنة بين الرشيد وإيرين «Irene» سوى اثنين وثلاثين شهراً ، كما يروي الطبري ، وكان خرق الهدنة هذه المرة من قبل الإغريق . . . وفي شهر رمضان من عام (٧٨٥) ، كما يروي المؤرخون ، عاجلهم الرشيد بالرد ، حيث شن الفرسان العرب هجوماً مباغتاً على البيزنطيين وعادوا منتصرين ومحملين بالغنائم الكثيرة . وفي السنة التالية أي عام (٧٨٦) م شن البيزنطيون هجوماً على مدينة الحدث

«Hadath» وهي مدينة كان قد بناها الخليفة المهدي في منطقة مرج «Marach» ، وجيرمانسيا «Geremanciea» ، مما أدى إلى تشريد سكانها وتخريب اقتصادها ، إلا أن العرب استعادوها في السنة نفسها واحتلوا مدينة خرشنا «Ushna» الواقعة على الحدود مع أرمينيا .

الإغريقيون من جانبهم استولوا على مدن أخرى في الأراضي العربية ، إلا أن العرب استعادوها وأعادوا تشييدها ، من بينها طرسوس «Tarsus» التي أعاد بناءها أبو سليمان فرج «Abu Suleyman Faradj» في السنة التي اعتلى الرشيد فيها عرش الخلافة . . . شهدت الفترة الأخيرة من حكم المهدي وبداية حكم الرشيد الكثير من الغزوات والغنائم والأسرى ، ولم تكن سنة تمضي دون أن يقوم الأمير هارون الرشيد بشن غزوة أو اثنتين ولكن دون تأثير كبير . كان همه الوحيد إكمال الخط المحصن الذي يحيط شمال سوريا وتطويره ، وصد ومجابهة تهديد بيزنطة من جهة أرمينيا «Armenier» وأذربيجان «Azerbaidjan» ، وكان حريصاً على أمن حدوده ، يزور من وقت لآخر مراكز المراقبة والحراسة على الحدود . هذه الزيارات قادته إلى إعادة النظر في نظام الثغور العسكري «Thaghur» التي تطورت إلى مراكز للتجارة والتهريب مع بيزنطة ، نتيجة سوء تصرف الحرس الذين كان معظمهم من سوريا والجزيرة ، وقد أضر ذلك كثيراً بخزينة الدولة . . .

اضطر الرشيد أمام هذه الحالة أن يستبدل الحرس بآخرين من الأبناء أكثر بأساً وشدة ، وبناء تحصينات إضافية على طول الخط جنوب جبال طوروس «Tauraus» حتى ضفاف خليج الإسكندرونة فحلب وما بعدها ، وأقام في طوروس «Tauraus» حامية كبيرة واستبدل مصطلح الثغور بمصطلح العواصم «awasim» التي تطلق على المنطقة المتاخمة للحدود مع بيزنطة وحتى نهر الفرات ، ثم أجرى الرشيد تنقلات واسعة وتحركات على الحدود وخاصة في مدن الحدث ، والمصيصة الواقعة على سيحان «Cyhan» وعين زربة «Ayn Zerba» وزبطرة Zibatra والهارونية [1] ، ممبج «Membidj» ، ايربوليس القديمة «Hierplis» حيث أقام فيها القائد العباسي عبد الملك ثكنة عسكرية .

البيزنطيون من طرفهم لم يفعلوا شيئاً لمنع العرب من بناء هذا السد المحصن الذي

---

(١) لازالت اثارها شاخصة إلى اليوم .

كان يشكل تهديداً مستمراً ضد أباطرة الروم . ولا بد من القول بأن البيزنطيين كانوا يمرون بأزمة خطيرة ، فالصراع بين إيرين «Irene» وولدها قد بلغ ذروته ، إضافة الى الدسائس الدامية وثورات القصر التي هزت الإمبراطورية . لقد قيدت ولدها قسطنطين بوصاية حديدية إضافة إلى أنها فسخت خطوبته من روتيرد «Roturd» بنت الإمبراطور شارلمان ، وبهذه العملية غيرت مجرى التاريخ ، أو على الأقل أقدار الإمبراطوريتين الشرقية والغربية . لقد تسببت إيرين «Irene» في تمزيق الإمبراطورية ، واستمرت كذلك إلى اليوم الذي جاء فيه إمبراطور جديد إثر انقلاب نظامها وتوجه بالهجوم على العرب . . .

مازلنا في أيام بعيدة جداً عن يومنا هذا ، ففي عام ٧٩٠ م كان خط الدفاع الذي بناه هارون لم يزل يصلح لصد هجمات الروم وشن حملات جديدة . . . ذلك لأن قادة الخليفة لم يتعودوا على الكسل ، ففي كل يوم لهم صولات وجولات وغارات وغزوات . . . استولوا على العرقوب «Urgup» في كبادوس «Cappadoce» وأمورويوم «Amorium» وفيرجي «Phyrgie» نحو سمسون «Samsun» على البحر الأسود . . . في عام (٧٩٧) م أي بعد عام واحد من إقامته في الرقة «Raqqa» عبر الرشيد على رأس قواته الحدود ، في الوقت نفسه الذي اخترقت قواته الأخرى النصير «Alnceyre» و «Ankara» أنقرة ، وإيفيز «Ephese» على بحر إيجة أو مرمرة «Marmara» .جابهت بيزنطة هذا الهجوم بهجوم مقابل متتال ، ولكن باء بالفشل ، إذ لم يستطيعوا مجابهة العرب الذين استمرو لفترة طويلة يجوبون بقاع الأرض يقاتلون ويحاربون ويغزون في كل آسيا الصغرى . . . ومن يزر تلك البلاد يلاحظ بوضوح نتائج الحملات والغزوات التي تعرضت لها الشعوب ، حيث امتزجت أصولها وعروقها وتغيرت معالمها وخصائصها واقتصادها ونمط عيشها ، حتى إن أشكالهم وألوانهم قد تبدلت ، فقد تحولت مناطق مزدهرة إلى فقيرة ، وأخرى مهملة إلى متطورة(١) . هذا التغير الاجتماعي الاقتصادي الذي دفع الشعوب إلى الترحال طوعاً أو كرهاً ميز الأناضول بتركيبة اجتماعية متنوعة ، لدرجة أن الأتراك عند مجيئهم لم

---

(١) هناك مدن في الداخل مثل النصير «Ancyre» وأنقرة «Ankara» القيصرية «Cesaree» ونيسة «Nicee» وغيرها بسبب أسوارها الضخمة لم يتأثر سكانها ، بل ازدادت أهميتها دون أن تتغير حتى في العهد العثماني في حين اختفت اخرى .

يستطيعوا القضاء على هذه الظاهرة بشكل نهائي . من جهة أخرى ، فإن الحروب المستمرة ضد المسلمين التي تزامنت مع قطع العلاقات مع إيطاليا أفقدت بيزنطة مكانتها الدولية . ففي حين كانت إمبراطورية مهاجمة في القرون الأولى ، تحولت إلى إمبراطورية مدافعة مع إطلالة القرن الثامن الميلادي ، وخير دليل على ذلك هي تلك الإصلاحات التي أدخلت على الجيش وإعادة تنظيمه على أسس جديدة تؤمن مشاركة الشعب في الدفاع عن الوطن . وعلى كل حال فالجيش البيزنطي لم يعد جيش الفتوحات ، ولم يعد كذلك عندما انسلخت المقاطعات في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين لتتحول إلى عربية في ظل الإسلام .

غضب الخليفة

في عام ٨٠٢ م أطاح الانقلاب بالإمبراطورة إيرين «Irene» وتوج «نيسفور» (نقفور) وزير ماليتها إمبراطوراً لبيزنطة ، وتم اعتقال «Irene» في دير برنبكو «Prunpko» الواقع في بحيرة مرمرة «Marmara» ، ثم انتقلت إلى ليبوس «Lesbos» وتوفيت هناك بعد فترة قليلة .

نيسفور «Nicephore» الإمبراطور الجديد من أصل عربي .كان أول اهتمامه غسل العار الذي لحق بالإمبراطورية البيزنطية جراء سياسة الإمبراطورة السابقة إيرين «Irene» ، ولذلك فقد أسرع بإدخال الإصلاحات على الدولة والجيش اللذين ساد فيهما الفساد والرشوة في زمن الإمبراطورة إيرين «Irene» .

ومن أجل استعادة هيبة بيزنطة ، فقد رفض الإمبراطور الجديد مقترحات شارلمان حول حمله لقب إمبراطور والسيادة على مدينة البندقية مقابل السلام في الغرب ، ولو لفترة من الزمن . وكان قد حمل هذه المقترحات سفراء شارلمان إلى إمبراطور بيزنطة ، أما بخصوص العلاقات مع الرشيد فقد أعلمه بأنه غير مستعد لدفع الإتاوة التي فرضها على الإمبراطورة إيرين «Irene» وذلك ضمن رسالة شتيمة فيما يلي نصها :-

(من نيسفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، لقد منحتك الإمبراطورة التي حكمت البلاد قبلي المكانة العليا ووضعت نفسها في الحضيض ، وأعطتك أموالاً كان يجب أن تدفعها أنت لها . . . وإن الذي جرى ليس إلا مجرد ضعف وحماقة امرأة . . . عندما ستقرأ رسالتي ارجع الأموال التي أخذتها منها ، واشتر نفسك بدفع ما ترتب عليك إلينا ، وإلا فالسيف سيكون الحكم بيننا) .

في هذه الرسالة كان نيسفور قد اخطأ العنوان . فالكتابة بهذه اللهجة إلى أمير المؤمنين في الأرض كانت أكثر من إعلان حرب . كانت شتيمة كبيرة لا يمكن أن يتفوه بها سلطان كبير يمتلك قوة عسكرية صارمة . ما إن وصلت الرسالة إلى يد الرشيد الا واشتد به الغضب ، حيث يصف الطبري حالة الخليفة في تلك اللحظات . . .

«لم يتجرأ أحد على النظر اليه أو الكلام معه . . . فالكل واجفون يخشون من أية حركة أو كلمة ينطقون بها تزيد في غضبه ، حتى إن الوزير نفسه كان حائراً في أن يتدخل أو يترك أمير المؤمنين يهدأ ويتخذ القرار بنفسه» . وفجأة أمر الرشيد بالدواة وكتب بنفسه على ظهر رسالة إمبراطور بيزنطة :

(من هارون الرشيد إلى نقفور كلب الروم . . . قرأت رسالتك يا ابن الكافر ، وسترى جوابي إليك أسرع من أن تسمعه والسلام) .

ثم أمر الجيش بالاستعداد للمعركة . . . في غضون أيام عبرت كتيبتان الحدود الأولى بقيادة القاسم نجل الرشيد من الجارية قصيف «Kasif» ، وتوغلت باتجاه كبادوس «Cappadoce» حيث حوصرت كورا «Kurra» واسمها اليوم كورون «Korron» وفيها مركز الوالي ، والكتيبة الثانية بقيادة الضابط عباس بن جعفر التي طوقت قواته أسوار مدينة سنان «Sinan» وسناسوس «Sinases» في منطقة العرقوب «Urgup» . وبعد معارك عنيفة ودامية انسحبت الكتيبتان بعد تبادل إطلاق سراح الأسرى . . . أما هارون الرشيد فقد توجه على رأس جيشه إلى أبواب الأناضول (منطقة جنوب تركيا حالياً) باتجاه حديثة هيراكله «Heraclee» والمعروفة اليوم باسم ايركلي «Eregli» الواقعة شمال غرب تركيا الحالية . . .

لم يكن نيسفور يتوقع رد الرشيد بهذه السرعة ، فاضطر إلى التراجع وإبلاغ الخليفة استعداده لتوقيع معاهدة جديدة يدفع بموجبها إتاوة سنوية ، فقبل الخليفة عرضه وانسحب إلى الرقة تاركاً قادته لمشاغلة الروم في الأناضول . . . .

في هذه المشاغلة استطاع القائد إبراهيم بن جبريل «Ibrahim b. Djibril» أن يستولي على حصون مدن صفصاف «Safsaf» وطبازا «Thebasa» بالقرب من انصر «Ancyre» أنقرة الحالية وتهديها . عندئذ رد نيسفور «Nicephore» بالهجوم على الجيش العربي في كراسوس «Krasos» في منطقة فيرجي «Phrygie» ولولا مغامرات ضباطه لكان قد أسر بعد أن أصيب بجروح بليغة .

يروي المؤرخون المسلمون بأن أكثر من خمسين ألف رجل قتل في هذا المعركة ،

أما الخسائر في الأموال فتقدر بأربعين ألف حمل بعير . ورغم أن هذه الأرقام مبالغ فيها فالخسائر بدون شك كبيرة ، الأمر الذي دفع الطرفين إلى إعلان الهدنة . . .

على كل حال فإن نيسفور هو الذي بدأ في خرق الاتفاق ، وكان الوقت آنذاك شتاء ، وقد خشيت حاشية الخليفة وأية شخصية أخرى إبلاغ الخليفة تجاوز نيسفور هذا تحاشياً من أن يؤدي ذلك إلى مجابهة خطيره وسريعة ، إلا أن أحد الشعراء والمكنى بأبي محمد نقل إليه الخبر شعراً :

نيسفور خرق السلام بعد الأمان

وعلى العاصي تدور الدوائر

تمتع يا أمير المؤمنين بنعمة الله الفضيلة التي أنعم الله بها عليك . . .

رعيتك ستفرح إذا ماجاءها خبر تجاوز الأعداء عليك (١)

لأنها واثقة بأن يدك ستطولهم من دون تأخير لتشفي غليلك وتبارك منازلهم

نيسفور عندما تخون فإن أمير المؤمنين غير بعيد عنك ، وإلا فهو الجهل الأعمى . . . الخ

ما أن علم الخليفة بتجاوزات نيسفور حتى قرر الحرب ، وللأسف لم تتوفر تفاصيل كافية عن هذه الحملة ، الا أن المؤرخين العرب بينوا في رواياتهم بأنها شديدة جداً وخلفت وراءها ويلات وآلاماً ومآسي عميقة جداً ، وهنا يتساءل المرء إلى أين تريد أن تذهب القوات العباسية . . .؟

بعد هذه الانتصارات تعهد نيسفور من جديد بدفع الإتاوات السنوية ، ويقول الشاعر أبو العتاهية بهذا الصدد :

(لقد أظهر العالم قبوله لهارون ، وأصبح نيسفور بالنسبة إليه كأحد الذميين «Dhimmi» ، وقد أشفى غليله منه بل راح الرشيد أبعد مما كان يريد) .

ومع ذلك ، فقد كانت الحملة مكلفة للطرفين ، فإذا انتصر هارون على أعدائه فهذا يعني أنه خلف وراءه في الأناضول Anatolie آلاف القتلى والجرحى والأسرى لا يعلم عددهم إلا الله ، ويكفي ، حسبما يروي المؤرخون العرب ، أن عدد الأسرى بلغ حداً اضطر معه الخليفة أن يبني لهم سجوناً واسعة ، فالحملات على هضبة

---

(١) الشاعر اسمه أبو محمد بن عبدالله بن يوسف وهو القائل :

نقض الذي أعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور

أبشـر أمير المؤمنين فإنه فتح أتاك به الإله كبير (المراجع)

الأناضول جرت في مناخ قاس وظروف صعبة سببت ويلات للشعوب ، وبشكل خاص على الصعيد البشري .

ومهما تكن الهزائم التي منيت بها الإمبراطورية البيزنطية في كل مواجهة عسكرية مع قوات الخليفة الرشيد ، فإن نيسفور الذي كان يعاني من المشاكل الداخلية لم يلق السلاح ولم يستسلم . ومن يعلم فربما كان يعتقد بأنه يستطيع حل المشاكل الداخلية من خلال إحراز انتصارات ضد المسلمين . . .؟ أو خوفه من هجوم مباغت عباسي كاسح ينهي إمبراطوريته إلى الأبد؟

في هذه الفترة كان الخليفة الرشيد قد طور القوة البحرية[1] الأمر الذي أرق الإمبراطور البيزنطي ، الذي كان يدرك خطورة تزامن الهجوم البري والبحري ضد عاصمته[2] . كانت الإمبراطورية العباسية ثرية لدرجة أنها تستطيع خلال فترة وجيزة أن تجند وتجهز أي عدد من الرجال الذين تحتاجهم لمقابلة الكفار . . . فالخليفة الرشيد كان قد أقام الحصون على طول الحدود بحيث يتمكن من أن يشن غاراته في أي وقت يشاء في عمق أراضي الأناضول ثم ينسحب خلف أسواره المحصنة بالعواصم «awasim» . وحسب استقراء المنطق فإنه يبدو أن حلم الرشيد الكبير كان يأمل أن يكون قوة كبرى في العالم ، وهو أمر لا يتحقق إلا بعد أن يتوج مجده بالاستيلاء على العاصمة البيزنطية التي كانت محط أنظار العالم .

ونيسفور كان يدرك ذلك الخطر ، الأمر الذي يفسر هجماته المتكررة ومضايقاته للقوات العباسية في وقت كانت قواته في حالة لا تحسد عليها . . . لقد كان الإمبراطور البيزنطي بمناوراته هذه يهدف إلى تخويف العرب بعدم التوغل في بلاد الأناضول ، وبالتالي تثبيط عزم الخليفة من شن حملة كبيرة نحو الغرب أو الشمال أو على الأقل عرقلتها . . .

وما من شك فإن حسابات الإمبراطور البيزنطي لم تكن خاطئة ، فقد تلاشت مخاوفه عندما تحولت أنظار الرشيد نحو الأحداث الخطيرة في خراسان بسبب سوء إدارة واليها علي ابن عيسى . . . هذه الأحداث أجبرت الرشيد أن يوقف معاركه في

---

(١) ظهر تاثير هذه القوة واضحاً عام (٨٠٦) م عندما شن العرب هجوماً عنيفاً ضد قبرص Chypre .

(٢) في عام ٨٠٥ شن الأغالبة في القيروان غارات على جنوب اليونان ، وساعدوا السلاف في حصارهم لميناء Patras باتريس اليوناني .

آسيا الوسطى ليتوجه إلى إقليم الشرق حيث تفاقمت الأمور فيها . . .

استفاد نيسفور من هذه الفرصة ليصلح ويرمم التحصينات التي دمرها العرب خلال غاراتهم السابقة .

الرشيد على رأس حملة جديدة

ما كاد نيسفور يستعيد أنفاسه إلا واستعد له الرشيد . خلال شهر مايس من عام ٨٠٦ م ، سافر الخليفة من جديد إلى الحرب ، وكانت تلك السفرة لقيادة حملة واسعة كبيرة تضم مئة وخمسة وثلاثين ألف رجل من قوات نظامية ، في طليعتهم قوات الأبناء العباسية ، وآخرون من وحدات الأقاليم ، ومتطوعون ونظاميون ، ولا أحد يعلم ماذا كان هدف الرشيد من تحشيد هذه القوة الضخمة . أهو إيقاع أكبر الخسائر في وحدات العدو ليدمرها ثم يتوغل نحو البسفور ؟ أم مجرد غزو واسع للأناضول وتحويلها إلى صحراء جرداء ؟

تحشدت الألوية والكتائب حول مراكز التحصينات «العواصم» . وفي الحادي عشر من حزيران من العام نفسه أي ٨٠٦م انطلقت القوات بشكل نظامي في الأناضول . .

كان على رأس الجيش قوات الطليعة ، ثم تشكيل في الوسط (جند) ومنه الجناح الأيمن ثم الجناح الأيسر ثم المؤخرة ، يتجحفل مع الجيش سرية المخابرة ، مهمتها الإنارة ومراقبة كل حركة مشبوهة في المنطقة وإيصال الأخبار إلى القيادة .

وكان قد اختير مسبقاً موقع المعسكر في مكان يؤمن سهولة إيصال التموين والوقود . . . وعندما وصلت جحافل الجيش كانت القيادة قد عسكرت وأخذت مواضعها الرئيسية . . . وفي اليوم التالي تحرك الجيش نحو الموقع الآخر المعين ، وهكذا إلى أن بلغوا موقع القتال ، وقد تم درس الموقع ومسحه مسبقاً ، آخذين بنظر الاعتبار طبيعة الأرض ، مجاري الأنهار ، اتجاه شروق الشمس ، مستعينين برجال الفلك المتواجدين دائماً في حاشية الخليفة . .

النظام العسكري في جيش الرشيد

كان يطلق على كل وحدة من وحدات الجيش اسم (خامس) «Khamis» ، توضع تحت إمرة قائد أعلى يستلم أوامره من رئيس الأركان العام ، ويحمل لقب أمير ويعين من قبل الخليفة نفسه . والأمير هو السيد المطلق على قواته ، أما الفصائل من

عشرة إلى مئة رجل فإنها ترتبط مباشرة بقادتها .

رئيس الخامس «khamis» يشبه إلى حد ما آمر الفوج ، وهو حر في تكتيكه ومناوراته في ساحة القتال ، ولكن في حدود الخطة العامة للقيادة العليا .

في بعض المعارك تشكل القوات نظام الأرتال ، وفي البعض الآخر تقاتل على شكل فرق صغيرة .

تصنيف السلاح في المعركة

كانت القيادة تضع في الصف الأول قوات النبالين والقذافين والرماة مع ذخيرة متنوعة من حيث الحجم والتأثير .

وسلاح المشاة قديم جداً وبقي على حاله إلى عهود متقدمة ، فالقوس استخدمه فيما بعد الخيالة والصيادون و الفرسان ، وهكذا بالنسبة لبقية الأسلحة القديمة ، وقد برع الأتراك في رمي السهام من على ظهر الجواد ، وقد ظلوا متفوقين إلى أن انتقلت إلى الايرانيين ثم العرب الذين برعوا في استعمال السيف .

أما القذيفة فكانت تستعمل منذ بداية القرن التاسع الميلادي ، وكانوا يستعملون أيضاً القذائف المدببة ، وتطلق عادة بقوة الضغط أو بالفتائل ، والكبيرة منها تصل إلى ٣٠٠ متر بعداً ، وهي مخصصة لإحداث الفجوات في الأسوار . وأما النبال والقذائف اليدوية التي يستعملها المشاة فتعتبر من الأسلحة الخفيفة ، ويمكن أن يناور بها شخص واحد . الصف الثاني مخصص لقوات راجلة ومسلحة بالرماح والسيوف أو الحراب ، وفي زمن الأتراك كانت النبال ترمى على العدو بهدف تثبيط عزائمهم ومعنوياتهم ، وهي تشل حركتهم وتبعثرهم كبعثرة النحل عن خلاياها حسبما يروي المؤرخون .

كانت التجهيزات العسكرية للفارس تتركز على وسائل الحماية الشخصية له كالدروع المقاومة للنبال ، والسيوف ، والخفيفة كالزرد والترس المصنوع من صحيفة فولاذية رقيقة ويزود بالسيف والهراوة .

كل هذه التجهيزات والأسلحة بأنواعها وأشكالها وبأسها لم تخضع إلى تغيير أساسي حتى الحروب الصليبية ومجيء المغول . وعلى كل حال فإن أسلحة الشرق بشكل عام هي أسلحة خفيفة . . أما صف الخيالة فقد لعب دوراً بارزاً في المعارك وبقي كذلك إلى أن ظهرت الأسلحة النارية .

خطة الهجوم

كانت خطة الهجوم تعتمد على الكر والفر ، إذ يبدأ القواسون والمشاة بالكر والفر على صفوف العدو ، مرة ومرتين وثلاثاً إلى أن يتم اختراقهم ، في حين تهتم القوات الأخرى في صد الهجوم المقابل وتحطيم قواته ، وبعد أن يتم اختراق صفوف العدو يهجم الخيالة ويتوغلون في صفوف العدو لمقاتلة خيالتهم وخلق الفوضى والرعب في صفوفهم ، ثم ينسحبون قليلاً لجرهم للقتال ، وما أن يستدرجوا حتى يعاود الخيالة الهجوم لاستيعابهم وسحقهم .

وبشكل عام فإن المسلمين كانوا يحرصون على حقن الدماء وتبادل الأسرى مقابل فدية عينية أو نقدية أو إطلاق سراح مسلمين وقعوا في الأسر عند العدو ، وهذا الأمر كان يؤكد عليه القادة المسلمون ، والشيء الوحيد المسموح به في الحرب هو النهب والسلب ، بل هو الهدف الأساس من شن الهجوم ، فكل جندي له حق بأن يستولي على كل ما هو ثمين وخاصة الفتيان والفتيات الذي يتم بيعهم فيما بعد كعبيد . . .

ونادراً ما تحدث مجازر كبيرة ، إلا في حالة عقد النية لإيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو ، وليس هناك شيء اسمه تعويض من أي طرف كان . . .

و بخصوص الغنائم فإن للحاكم حق الخمس ، والسيطرة على هذا الخمس تتم بصعوبة بالغة ، حيث أن هم الجميع ، مسلمين ومسيحيين ، جمع الغنائم ، فإن كان من المتطوعين فإنه يستفيد مباشرة وإن كان من الجيش فإنه كلما زادت الغنائم زاد الراتب[1] .

وفي أثناء الغزو يقوم البدو بتخريب كل شيء لايستطيعون حمله ، أما القوات النظامية فإنها من أجل أن تضعف العدو تحرق محاصيله وتقتل مواشيه ، ولكنها لا تقتلع الأشجار ولا تردم قنوات الري . . .

وفي الحقيقة فإن الحرب لا يمكن أن تستمر طويلاً إلا في ظروف استثنائية ، وفي أبعد احتمال تطول فصلاً واحداً أو فصلين ، والسبب يكمن في الصعوبات السوقية والتموينية .

فالشتاء قاس في هضاب آسيا وجبالها ، والقوات العباسية غير مهيأة للبقاء

---

(١) راتب المشاة أعلى نسبياً من راتب العامل ، فهو ضعف الى ثلاثة أضعاف راتب العامل في بغداد ، والفارس يصل راتبه الى ثلاثة اضعاف C. CAHEN

طويلاً ، حيث عوائلهم بانتظارهم لأن الغياب يطول إلى أشهر ، إذ لا يتمكن الجندي من التمتع بإجازة لزيارة الأهل والعودة بسبب بطء المواصلات .

ثم إن كميات الغنائم ضخمة ولا يمكن خزنها لفترة طويلة ، فالجيش ينسحب بعد أن يحرز النصر ويعقد الهدنة مع العدو وبعد أن يفرض الإتاوة ، عينية أو نقدية . . . وعلى سبيل المثال ، كانت الإمبراطورة إيرين «Irene» تدفع إتاوة عينية من الصوف لهارون الرشيد ، وعلى كل حال فإنه من النادر جداً أن لا يكون النصر حليف جيش الخليفة ، وعندما يعود الجيش ، يستقبل بأقواس النصر ومعالم الزينة والهتافات وتنظيم الاحتفالات وتوزيع الهدايا على القادة ، وزيادة في إنارة الطرق والأماكن العامة . . .

حصار مدينة هرقلة Heraclee وسقوطها

كان اليونانيون يتوقعون حرباً جديدة ، ولذلك فقد قاموا بهجوم مباغت على المناطق العربية قبل دخول الجيش العربي الأراضي البيزنطية عام (٨٠٥ – ٨٠٦م) .

في هذه الفترة توجه الرشيد على رأس جيش جرار نحو مدينة طيان «Tyane» حيث يعسكر جنده ، وفي الوقت نفسه حاصر القائد عبد الملك بن مالك «Abdallah b. Malik» ظل –كيلا «Dhul-kila» الواقعة بين طيان والقيصرية «Cesaree» إلى جانب القائد داود بن عيسى ، الذي كان يتوغل في المنطقة مع (٧٠٠٠٠) سبعين ألف رجل ويسحقون كل ما يجدونه أمامهم من قوات العدو . . . وممتلكاتهم «حصن الصقالبة «Hisan al- sakalibu» والمعروفة اليوم بالانصاكاليزي «Anasakalesi» وتباز «Thabaze» التي كان الرشيد يريد اكتساحها . . .

يقول المسعودي . . . (ومع ذلك فالخليفة هارون الرشيد كان قد تردد أمام فتح هرقلة «Heraclee» وهو في الطريق نحو أي كونيوم «Iconium» ودوريلة Dorylee باتجاه الشمال ، وهنا سأل الرشيد اثنين من قواده في العواصم «Awasim» . .

(ماذا تعتقد في فرض الحصار على هذا الموقع يا مخلد بن الحسين ؟) فأجابه بما يلي :

(إنها أول مدينة محصنة تجابهها يا أمير المؤمنين على الحدود اليونانية ، وهي أقوى مدينة ذات دفاعات محكمة . . . فإذا ما أردت مهاجمتها والاستيلاء عليها بعون الله ، فسوف لاتعصى عليك أي مدينة أخرى ولايوقفك أي حصن آخر) .

ثم سأل الرشيد القائد أبا إسحق «AbuIshak» فأجاب :
(ياأمير المؤمنين ، إن هذه القلعة كانت قد شيدت من قبل اليونانيين لمراقبة الطرق الرئيسية وحماية مخارجها وهي قليلة السكان ، وفي حالة فتحها فإن غنائمها لاتكفي للتوزيع على كل المسلمين . . . فإذا ما قاومتكم المدينة فإن هذا الفشل سيؤثر سلباً على خطة الحماية بكاملها ، والطريقة المثلى حسب رأيي هو أن يهاجم أمير المؤمنين أكبر مدن الامبراطورية اليونانية ، فاذا ما استولى عليها ، فإن كل القوات ستنال من الغنائم ، وإذا ما فشل فعذره وارد ومقبول) . وكان إسحق محقا في جوابه .

اعتقد الرشيد أن هرقلة لا تستطيع المقاومة أمام القوة التي كانت بإمرته ، الا أن الذي حصل هو العكس . لقد ظهر أن فرض الحصار على المدينة كان صعباً ، وللأسف لاتتوفر المعلومات الكافية عن تحصينات مدينة هرقلة Heraclee ، وهذه المدينة تطل على واد سحيق ويحيط بها خندق من جهاتها الأربع ، ويبدو أنها كانت تمتلك قوة كبيرة . .

في المقابل كان الرشيد ، وبدون شك ، يمتلك كل المعدات العسكرية والحربية للإجهاز على المدينة مهما كانت قوة دفاعاتها ، ومن بينها المعدات الثقيلة الخاصة بفرض الحصار والأجهزة الخاصة بقذف المشاعل النارية ، والمنجنيق والنفط والقذائف . . . والفرق الخاصة بتسلق الأسوار . . . إلخ وبعد سبعة عشر يوماً من الحصار لم تستطع قوات الرشيد خلق أي فجوة بسبب قوة تحصينها ، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الخسائر ، في الوقت نفسه أخذ القحط يزداد في المواد الغذائية وعلف الحيوانات ، مما سبب قلقاً كبيراً للرشيد ، ثم عاد واستشار القائد أبا إسحق الذي فضل استمرار الحصار قائلاً :

(إن انسحابنا ، ياأمير المؤمنين يعد إهانة لعظمة الإمبراطورية ويضعف مكانتها الدينية ، ويشجع المدن الأخرى على المقاومة والمجابهة أكثر فأكثر) ثم اقترح بناء مدينة في مواجهة هرقلة (إلى أن يقدر الله النصر عليها) .

استحسن الرشيد الفكرة ، وبدأ فعلاً بالبناء من أجل أن يخيف المحاصرين من جهته ، ويظهر للقوات صلابة موقفه في استمرار الحصار مهما طال الزمن . . . عندئذ حصل مالم يكن في الحسبان في تأريخ العصور الوسطى ، حيث يروي المسعودي :

(فتحت أبواب المدينة فجأة على مصراعيها ، وظهر رجل جميل يرتدي لباساً رائعاً في زركشته ، ويحمل درعاً وسيفاً منادياً بصوت عال : «أيتها القوات العربية ها

قد مضى وقت طويل ونحن في مواجهتكم . . . فليتقدم أحدكم أو عشرة منكم بل عشرون وليجرب حظه معي . . . !»)

كان الرشيد نائماً في ذلك الوقت ، ولم يجرؤ أحد على إيقاظه ليأمر أحد قادته مقاتلة هذا المتحدي . . .

عاد اليوناني في اليوم التالي وكرر التحدي ، فانتفض العديد من القادة لمقاتلته ، إلا أن الرشيد فضل اختيار جندي بسيط لمقاتلته «والسر في ذلك هو عدم تثبيط معنويات جيشه في حالة انتصار اليوناني» وبدأت معركة طويلة بين اليوناني والجندي البسيط من حرس الحدود ، والذي كان يطلق عليه بالغازي «gazi» والمكنى بابن الجرزي «Ibn al Djurzi» والمشهور بشجاعته .

بدأت المبارزة وكل واحد منهم كان يعتقد بأنه سيوجه الضربة القاضية لخصمه . . وبعد قليل انجلت الغبرة وظهر ابن الجرزي وهو يتراجع أمام اليوناني ثم فر منه ، ولكن لم تكن إلا خدعة يمارسها فرسان الرشيد مع خصومهم ليدفعوهم إلى ملاحقتهم ، وما أن يهم العدو بضربه وهو متعب ، حتى يسبقه بضربة واحدة ويسقطه من على جواده وفي الثانية يقطع رأسه . . كان هذا النصر قد دعم المسلمين وقاد الكفار إلى الخوف والوجوم . . .

شدد العرب حصارهم وضغطهم على هرقلة ، وأمر الخليفة بإطلاق النار عليهم ، وأخذت أعداد المنجنيق تتوزع على أركان السور ، حيث لم تعد هناك مقاومة ، في حين أخذ رجال (المدفعية) يعملون ، كما أمرهم الخليفة ، بإعداد القنابل التي هي عبارة عن كرة من الحجر مغلفة بالصوف ومغمسة بالنفط ، ثم تقذف وهي مشتعلة بالنار ، وما أن تقع على السور حتى يتساقط من تلقاء نفسه ، وعندما أخذت الحرائق تلتهم المدينة من كل حدب وصوب فتح المحاصرون الأبواب وطلبوا الأمان [1]

ويصف الشاعر ابن جامي «Ibn Djami» اختراق المدينة بهذين البيتين . . .

استسلمت هرقلة حين رأت عجبا
النار والنفط من فوقهم حمما

كانت النيران من فوق القلعة كقطع ملونة من القماش تغطي سماء المدينة ، وبعد

---

(١) أبو الفرج ، وقد ذكر الرواية نفسها مرسيه «Mercier» .

أن انهارت المدينة واستسلم سكانها ، قرر نيسفور «Nicephore» أن لايعيد بناءها ولا يرم حصن مدن ظل -كيلا «Dhul-Kilas» ، وسامالو Samalu وحصينة Hissina .
والشيء الوحيد الذي قام به هو افتداء شعبه بخمسين ألف دينار . لقد كان الجانب العاطفي يلعب دوراً كبيراً في مسار العلاقات بين الخليفة والإمبراطور . . . وفي أحد الأيام دخل على الخليفة في معسكره اثنان من موفدي الإمبراطور البيزنطي ، حاملين إليه رسالة يطلب فيها الإمبراطور إطلاق سراح فتاة من هرقلة Heracle وهي بنت أحد النبلاء الروم والمخطوبة إلى ابن الإمبراطور . ويقول نيسفور في الرسالة :

(إن هذا الطلب لايسيء إلى الدين ولا إليك شخصياً ، واذا ماوجدت هذا الإجراء ملائماً فوافق عليه ونفذه) . . . وما أن انتهى الرشيد من قراءة الرسالة إلا وأمر بإحضار الفتاة وأجلسها على العرش في الخيمة نفسها المخصصة لها . وكانت هذه الفتاة من غنائم أحد النبلاء العباسيين ، فاشتراها الرشيد منه بثمن باهظ ثم أرسلها إلى نيسفور مع خيمتها وأثاثها وحليها وأمتعتها ، ثم شيد بعد ذلك حصنا على الفرات بالقرب من الرقة raqqa أطلق عليه اسم هرقلة تيمناً بتلك الفتاة . . .

ذات يوم طلب نيسفور مجموعة من العطور والتمور وحلوى بغدادية اسمها الخابز ، وهي عجينة من الطحين والحليب والعسل كان يحملها السفراء إلى الإمبراطور ، وعند العودة يحملهم بالمال ، وقد عادوا ومعهم خيول تحمل أكياساً من الدراهم (خمسين ألفاً ، ومئة بدلة مطرزة ، ومئتي بدلة من الحرير المطرز ، واثني عشر صقراً ، وأربعة كلاب صيد وثلاثة خيول أصيلة) .

على كل حال اعتبر الاستيلاء على هرقلة نصراً عظيماً ، وقد احتفل الرشيد بهذه المناسبة ، في حين لم يعر البيزنطون أي اهتمام ، وأقيمت في بغداد المهرجانات ونظمت مباراة للفروسية استقطبت أحسن الشعراء ، وفي مقدمتهم أبو العتاهية الذي القى القصيدة التالية :

هرقلة لاتعجبي بالهزيمة فقد هاجمك ملك باركته السماء !
وعيده صادق عتابه شديد وبأسه سريع كالبرق
راياته منصورة ترفرف عالياً مثل السحاب
عش يا أمير المؤمنين لقد فزت وتمتع بنصرك . .
هذه الغنائم لك وهذا طريق العودة لك . .!!

اليونانيون تعهدوا بأن لايعيدوا بناء الحصون التي هدمت في ما وراء طوروس «Taurus» خلال الحملة ، ومع ذلك كاد العرب أن يجتازوا الحدود التي رممها نيسفور .

وفي بداية عام (٨٠٧) م أمر الرشيد بإعداد حملة جديدة ، أي بعد عدة أشهر من حملته تلك على هرقلة ، ولكن توجه هذه المرة نحو مدينة أداتا «Adata» على الحدود ، إلا أن الرشيد لم يستطع الذهاب اكثر ، ولذلك فقد ضاعف نيسفور مضايقاته واستفزازاته ، فأرسل له الخليفة القائد هرثمة «Harthama» على رأس ثلاثين ألف رجل ، وأمر باصلاح الثغور والاستفادة منها في الدفاع عن الحدود ، وعاد إلى الرقة ليعد حملة أكبر بعد أن يستريح . .

ولكن الأوضاع في خراسان كانت تقلق الخليفة كثيراً . . .

الفصل السادس

الوفاة في خراسان

﴿قُل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتُذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾

(صدق الله العظيم)

سورة آل عمران الآية (٢٥)

السفرة التي قام بها الرشيد إلى خراسان عام ٨٠٥م لم تحسم أية مشكلة من مشاكلها . . . فعلي بن عيسى لم يضع حداً لتجاوزاته وأخذ امتعاض السكان يزداد أكثر فأكثر .

في هذه الأثناء اندلع تمرد جديد شكل أكثر خطورة . . . إذ ظهرت على المسرح السياسي شخصية قوية من عائلة أموية اسمه رافع بن الليث Rafi b. Layt استطاع أن يجمع من حوله كل المستائين من النظام . . .

والواقع فإن هذا التمرد سببه «امرأة» ، حيث يروي الطبري «أن رافع بن ليث Rafi b. Layt أحد الضباط اللامعين في ثكنة سمرقند ، وهو بهي الطلعة ، وكان يحب النساء كثيراً ولاسيما الخمر ويمضي كل وقته في التسلية» .

هذا الضابط وقع في غرام امرأة رومية هي زوجة يحيى بن الشاذلي Yahya b. Achatli الذي كان متواجداً حينذاك في قصر الرشيد . . . وتحت ضغط تأثيرات ونصائح رافع ، ارتدت هذه المرأة وفسخت زواجها ثم دخلت الإسلام ، وبعد انقضاء العدة تزوجها رافع .

وعندما علم يحيى بن الشاذلي Yahya b. Achatli ، اشتكى عند هارون الذي كتب إلى علي بن عيسى يأمره بمعاقبة رافع وزجه في السجن ، وتسويد وجهه ووضعه على حمار والطواف به في المدينة لكي يكون عبرة للآخرين ، وتطليق المرأة منه بالقوة ، وقد كلف علي بن عيسى والي سمرقند لتنفيذ أوامر الخليفة .

أجبر الوالي رافع بطرد امرأته وزجه في السجن ، ولكن عامله برفق في الوقت نفسه ، وبعد حين هرب رافع من السجن وذهب إلى بلخ Balkh حيث تخفى فيها طالباً من علي بن عيسى الأمان . منحه علي بن عيسى الأمان ونقله إلى سمرقند Samarcand ولما لم يستطع استعادة زوجته علناً ، ترأس حركة الثوار في سمرقند واستولى على المدينة ثم استعاد زوجته ، واحتضنه سكان سمرقند الذين كانوا ممتعضين جداً من علي بن عيسى وعملائه .

وفي الواقع ، فإن اتهام رافع بالزنا من قبل علي بن عيسى لم يكن سوى حجة لتبرر إبعاده عن السلطة لكونه حفيد آخر وال أموي كان له نفوذ واسع .

اجتمع حول رافع عدد كبير من السكان الذين كانوا يرصدون تجاوزات علي بن عيسى ، كما أيد رافع رؤساء عشائر سوكديان Sogdian وتوخارستان Tokharestan وترانسوكسيان Transoxiane ، ولما استفحل أمره جهز ابن عيسى حملة عسكرية

بقيادة ولده الذي قتل في أثناء الاشتباك بعد أن تبعثر جيشه شذر مذر ، عندئذ تدخل علي شخصياً ولكنه انهزم وهرب إلى مرو . . شرارة ثورة رافع انتقلت إلى بلخ حيث ثار سكانها وقتلوا ممثل الوالي ، ثم تفاقمت الأمور لدرجة خطيرة واشتعلت الثورة في كل شرق الإمبراطورية وأخذت تهدد بالانفصال . . . عندئذ استنجد علي ابن عيسى بالخليفة الذي أيقن أن واليه عاجزٌ عن إخماد الثورة ولابد من تبديله ، ولكن سلطات ابن عيسى كانت واسعة ونفوذه كبير ، لذلك كان من الخطر عزله بشكل مفاجئ .

وقع الاختيار على القائد هرثمة Harthama «رجل المهمات الصعبة» حيث كلفه الرشيد بمهمة إقصاء علي بن عيسى من ولاية خراسان . . . وحمله رسالة بدأت بالعبارة التالية :

«يا ابن الخنا ، أغدقت عليك الحسنات وأنت تظلم وتُرعب المسلمين وتذل رعيتي . . . لقد أرسلت إليك هرثمة Harthama الذي يقبض عليك ويأخذ منك بيت المال ويحاسبك على أعمالك . . .»

توجه القائد هرثمة Harthama إلى مرو على رأس قوة من عشرين ألف رجل ، وعندما وصل المدينة توجه فوراً إلى القصر وقد أعد له ابن عيسى مأدبة غداء ، وخلال المأدبة سلمه رسالة الرشيد ، وأمر بإلقاء القبض عليه وإجباره على إعادة كل الأموال والممتلكات التي استولى عليها ثم أرسله مخفوراً إلى بغداد . . .

وفي الواقع كان إلقاء القبض على ابن عيسى وإيداعه السجن قد خلص خراسان من حاكم سيء ، ولكن هذا الإجراء لم يضع حداً للتمرد ، فالانتفاضة امتدت إلى أذربيجان وإلى كيركان ومناطق أخرى من خراسان .

أدرك الرشيد الخطر ، وكان عليه التصرف سريعاً إذ لم يكن هرثمة Harthama سوى ممثل للخليفة ولايتمتع بصلاحياته . . .

أما بالنسبة للوزير الفضل بن الربيع الذي حل محل يحيى ، فإنه الآخر لم يكن يتمتع بدهاء البرمكي الفضل بن يحيى ، وكانت مسؤولياته محدودة . . . إذن الخليفة وحده الذي يستطيع اتخاذ القرارات الكبيرة ، هذه الأسباب هي التي دفعت الرشيد في نهاية الأمر إلى اتخاذ قرار السفر إلى موقع الأحداث . . .

السفر إلى خراسان في الحالة المرضية التي كان عليها الخليفة قرار لا تنقصه الشجاعة ، فقد كان الخليفة يعاني من آلام في المعدة ، وقطع مسافات شاسعة على

الجواد يشكل عليه خطراً بليغاً سيما وأنه من المحتمل أن يكون مصاباً بالسرطان(١) . . .
ولكنه كان يعتقد بأن واجب خليفة المسلمين تأدية دوره كقائد إسلامي وحرصه في الحفاظ على صرح الدولة العباسية ، هذه الأسباب أزالت كل تردد كان يراوده . . .
ترك الرشيد الرقة Raqqa وعيّن في مكانه ولده الثالث القاسم الذي كان قد ولاه ولاية سوريا -العواصم- ، توجه إلى بغداد حيث أناط مسؤوليتها في أثناء غيابه إلى ولده الأمين ، ولما رأى المأمون الإعياء على محيا والده لم يشأ أن يتركه يرحل إلى خراسان لوحده ، ثم إنه خشي أن يكون غيابه ذريعة لفقدان خراسان التي قررها والده له بموجب وثيقة مكة ، لذلك أصرّ على السفر معه سيما وأنه والي الولايات الشرقية ، كما رافقه في السفرة الوزير الفضل بن الربيع وكبار مستشاري الخليفة . . .
كانت السفرة صعبة ومتعبة ، وكل ولد من أولاده كان قد أرسل خلسة جاسوساً مع حاشية الوالد ليراقب عن كثب تدهور حالته الصحية . . . فالجلاد مسرور كان يعمل لحساب المأمون ، والطبيب جبريل كان يعمل لحساب الأمين ، وآخر لحساب القاسم ، وكل من كان يحيطه كان يتمنى هلاك الخليفة بأسرع وقت ، بل كان لايتورع أي منهم عن إعطاء أمير المؤمنين أخطر العقاقير التي تجعله يعاني من أشد الآلام . . .
في هذه الأثناء ، بلغ مسامع الخليفة بأن أحد ملوك الهند له طبيب خاص بلغت شهرته أرجاء المعمورة ، فأرسل يبحث عنه على جناح السرعة ، وفعلاً فقد أدى العلاج مردوده ولكن لبعض الوقت ، واتخذ عدة إجراءات ، منها أن أرسل فوراً ولده المأمون إلى مرو Merv ، أما هو فقد بقي مع قواته في العاصمة متنقلاً بين الري Ray وكركان Gurgan بحثاً عن الراحة والاستجمام ، ثم توجه إلى طوس Tus حيث ثقل عليه المرض ، وتوقف هناك ولم يعد باستطاعته الاستمرار في الطريق . وفي طوس Tus اقتادوا إليه شقيق رافع بن ليث Rafi b. Layt الذي وقع في الأسر في أثناء إحدى المعارك ، فقال له الخليفة . . .
«ياعدو الله ، لقد قلبتم خراسان أنت وأخوك واضطررتموني للقيام بهذه السفرة الطويلة والمجيء إلى هنا وأنا في هذه الحالة من المرض . . . فوالله لأجعلك تموت ميتةً لم يرها أحد قبلك .»
وأخذ أمير المؤمنين يتمتع بتعذيب الرجل وتقطيعه إرباً إرباً ، حيث تولى أمره

(١) مرض السرطان لم يكن معروفاً في ذلك الوقت ، وانما المعنى من استنتاج المؤلف . المترجم

قصاب ماهر خلع عظامه عن الجسد بما فيها سلاميات القدمين والكتفين ، ثم تقطيعه إلى أربع قطع . ورغم قساوة الرشيد وغلاظة قلبه في مثل هذه المواقف فإن الشعر لم يعجز من إثارة مشاعر هارون ، وهكذا خطت هذه الأبيات :

أين الملوك والأباطرة الذين رحلوا قبلك؟

وانت ياأمير المؤمنين ، يامن اخترت الدنيا وبهرجها

ويامن كنت تبغي سماع المديح . . .

استنفد كل ملذات هذه الدنيا . . . فالموت هو الذي يضع حداً لها .(١)

فقال الرشيد :

«هذا الكلام موجه لي؟»

في ٢٤ آذار ، جمع الرشيد كل العباسيين المتواجدين تحت السلاح وخطب فيهم الخطبة التالية :

«كل حي لابد له أن يموت ، وكل شاب يشيخ : ترون مافعل بي الزمن وما آل بي القدر . . . أوصيكم بثلاث :

حافظوا على دينكم ، أطيعوا أئمتكم ، وتوحدوا فيما بينكم ، ارعوا الأمين والمأمون ، وإذا ما ثار أحدهم ضد أخيه فاخمدوا ثورته وردوا حماقته وخيانته ، ثم وزع جزءاً من ثروته ، وعندما شاع خبر احتضاره ، جاءوا له بحمار وحاول امتطاءه إلا أن ساقيه سقطتا مشلولتين ، ولم يستطع الجلوس على السرج ، فمدوا أمامه عدة أكفان اختار واحداً منها لنفسه وهو يردد الآية الكريمة التالية :

﴿ما أغنى عني ماليه * هلكَ عنّي سلطانَيه﴾(٢)

وبعد أن أنهى الخطبة واختار الكفن انتقل إلى رحمة ربه في اليوم نفسه في ٢٤ آذار من عام ٨٠٩ م الموافق لليوم الثالث من شهر جمادى الآخرة من عام ١٩٣ هجرية ، وقد حضر الوفاة ولده صالح والوزير الفضل بن الربيع وخدمه المقربون ، وجرت مراسيم الغسل والتكفين في طوس Tus ودفن في حديقة السناباد Sanabad ، والتي عرفت فيما بعد بمدينة مشهد Meched (المزار) ، وهو ليس لإحياء ذكرى الخليفة وإنما لإحياء ذكرى الإمام علي الرضا ثامن أئمة الشيعة الذي توفي هو الآخر في طوس

---

(١) أبو العتاهية

(٢) سورة الحاقة (الاية ٢٨ ، ٢٩) .

Tus عام ٨١٨م ودفن إلى جانب قبر الرشيد . . .

وقد أقيم فيما بعد ضريح فخم يضم رفات الإمام الرضا يزوره المسلمون الشيعة من كل أنحاء العالم في حين اختفى قبر الرشيد . . .

هكذا كانت نهاية الرشيد بعيداً عن بغداد . وهكذا انتهى عصر الرشيد الذي وصف بالذهبي لما ازدهرت فيه الثقافة والحضارة العربية الإسلامية . . .

ولكن بعد أن رحل الرشيد ، وبدأ التمزق يسود الإمبراطورية ، كان أصدقاء الرشيد الذين عاصروه يتأسفون ويتحسرون على عهده ، الذي تميز بالقوة والأبهة والهيمنة والرخاء الذي لم يتكرر في أي عهد آخر . . .

لقد عرف سكان بغداد خلال ثلاثة وعشرين عاماً من حكم الرشيد والسنين التي تلتها أحسن وضع اقتصادي بالرغم من التباين الطبقي . . . إذ نرى بغداد بعد ثلاثين سنة فقط من تأسيسها تصبح مركزاً تجارياً مهماً في العالم يُشار لها بالبنان . . . يفد إليها تجار وعلماء وقادة ، وتشحن صوبها وصوب مدنها المنتشرة في أنحاء وادي الرافدين كل أنواع البضائع ، وتصدر مختلف المواد الأولية المصنعة إلى كل أنحاء العالم . كان ذلك في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديين ، وهي الفترة المحصورة بين عصر الرشيد والخلفاء الذين تتابعوا من بعده ، لدرجة أن مردود هذا الازدهار قد شمل شرائح كبيرة من السكان . . . وتطور هذا الازدهار في عهد المأمون ، وخاصة الفكري والثقافي حيث الشعراء والمترجمون ورجال العلم والأدب ، وترف البلاط وخيرات زبيدة وكرم البرامكة ، تشكل لوحة رائعة كانت تزداد جمالاً مع مرور الوقت . . . ولعل ألف ليلة وليلة أحسن من وصف هذه اللوحة للحياة البغدادية في زمن الرشيد «كانت الفخامة والثروة والرخاء في عهد الرشيد لدرجة أطلق على تلك الفترة بأيام العرس» ، هذا ماكتبه المسعودي Mausudi بعد مئة سنة من موت الرشيد .

وإذا ماقورنت الحالة المأساوية التي اجتاحت البلاد بعد موت الخليفة الرشيد ورحيل العباسيين بشكل عام ، فإن عهد الرشيد يُعد بالنسبة لهذه الحالة عصراً إسطورياً . . . ولو أردنا تحليل شخصية الرشيد . . . فماذا يمكن أن نقول؟ هل نقول إن الرشيد كان من الصعب عليه أن يفصل بين حياته الخاصة كإنسان وبين ممارسته السلطة كحاكم؟ فهو ماجن ، وفي الوقت نفسه طاغية عديم الرأفة! مسلم متصلب ، ولكن هل يمكن أن يكون بدون خطايا؟ هل هو سياسي عبقري أو ملك أحمق؟ امتدحه الشعراء والمتملقون إلى أقصى حد ووصف بكل الصفات الحميدة في حين

أخذ عليه الآخرون ، ومع ذلك فالرشيد رجل سلطة وحاكم قليل الاكتراث بالضوابط ، وإنما يعتمد على ذكائه وحنكته فهو يعرف متى يستعمل سلطاته دون ضعف أو شك ومن دون قسوة عديمة الفائدة ، وعندما تستوجب فإنه يقسو من دون رحمة . . .

ولعل قضية البرامكة خير دليل على قسوة الرشيد ، وهو لايختلف كثيراً عن سليمان القانوني Soleiman le Manifiane الذي أمر بقتل إبراهيم أعز أصدقائه أمام عينيه ، تماماً كما فعل هارون الرشيد عندما جزّ رأس جعفر وسجن «والده» يحيى ووزيره الكفؤ الفضل بن يحيى . . . وهذه العقوبات القاسية التي يوجهها إلى أعز الناس إليه وبصورة سرية ومطلقة ، تظهره لنا شخصية غير اعتيادية ممزوجة بالحقد والقسوة والقلق في بعض الأحيان ، والأمثلة كثيرة ، منها مواقفه تجاه العلويين الذين كان يرصدهم دوماً ويقصيهم عندما يلمس أي خطر منهم . . .

ففي اليمن ، أخمد ثوراتهم ، وعشية وفاته قتل شقيق الثائر رافع بن الليث بعد أن عذبه أبشع تعذيب ، ولذلك كانت روح الثورة متأججة لدى أعدائه السياسيين أو العقائديين ، سواء كانوا علويين أو خارجيين أو زيديين أو أتباع المقنع Muganna ، وكم من الثوار الآخرين الذين كسبوا مئات الأنصار المتعضين من حكم أمير المؤمنين . . .

ومع ذلك فليس هناك أدنى شك في أن الرشيد كان متديناً ، فقد حج البيت الحرام تسع مرات . ورغم الترف والراحة التي كانت ترافق كل سفرة ، فإنه كان يمتنع عن المجون إلى ما بعد العودة ، وكان يصلي في اليوم مئة ركعة ، ويوزع الصدقات على المحتاجين ، الأمر الذي ساعده في اكتساب سمعة جيدة .

أما حياته العاطفية فكانت مضطربة بالمقارنة مع بقية الأمراء والنبلاء ، وهو لم ينتهك تعاليم الإسلام . . . والحب الكبير الذي كان يكنه الرشيد لزبيدة Zupayda انعكس على حياته الخاصة ، رغم أن تأثيرها على الرشيد لم يكن في صالحه بل خلق له المنغصات . وإذا ما كان حبه للخمر برفقة ندمائه أفضل تسلية له فإنه ، مع ذلك ، لم يبالغ في الشراب لحد السكر ، على عكس ما كان يُنقل عن الخلفاء الآخرين . . .

كما أن حبه ورعايته وتربيته لولديه الأمين والمأمون تدل على أن الرشيد كان أباً حريصاً وعطوفاً ومتزناً ، فقد كان الخليفة يطهو الطعام بنفسه - يخاف الله ويخاف أكثر من كل الذين يمكن أن يهددوا سلطانه أو يعتموا عليه ، وقد يشبه في بعض الأحيان لويس الرابع عشر Louis XIV أو كودفوريو دوموبينس Gaudfroy Demombymes وحتى سليمان القانوني .

إلا أن الذي قض مضجع الرشيد، رغم دهائه السياسي، واليه في خراسان علي ابن عيسى، رغم التقارير السلبية التي كانت تصله عنه والتي لم يأخذها الرشيد على محمل الجد قبل أن تستفحل الأمور، ثم إن سياسته في فرض الضرائب التي كان لها الدور الكبير في إثارة استياء شعب خراسان وخاصة الفلاحين والمزارعين منهم، هذه الاضطرابات المستمرة كانت تهز الإمبراطورية بصورة دائمة . . .

أما بخصوص علاقاته مع الخارج، فإن أبعاد صراعه مع بيزنطة هي التي كانت تملي عليه طبيعة هذه العلاقات، إذ كان همه الوحيد توسيع رقعة إمبراطوريته، والبحث عن دعم خارجي، وهذا الهدف يفسر سبب توطيد علاقاته مع شارلمان، بيد أن وفاته السابقة لأوانها حالت دون تحقيق هذه الطموحات . . .

لقد أخذ المعاصرون، ومن تبعهم، على الرشيد تفتيت الإمبراطورية عن طريق تقسيمها. هذا القرار لم يحظ بالقناعة التامة. بالمقابل فإن منح الحكم الذاتي لهذه الأقاليم الشاسعة، التي من الصعب إدارتها وقيادتها من بغداد، كان أمراً معقولاً. ولم يكن الرشيد السبب في الفارق الثقافي والفكري بين الوريثين اللذين تسلما مقاليد الحكم بعد وفاته، ولكن القوى الراغبة في الانفصال عن مركز الحكم كانت قوية وواسعة لدرجة أنها لم تستطع الصمود في ظل سلطة مركزية واحدة . . . فالخصوصيات والمصالح المحلية كانت تفوق وحدة اللغة والدين، التي تشكل مقومات الحضارة - العربية - الإسلامية. ثم إن التشتت السياسي للإمبراطورية قلل من هيبتها.

إذن، لا يمكن أن تكتمل صورة الرشيد الخليفة الكبير واللامع دون الإشارة إلى تعلقه بالعسكرية التي نشأت وتنامت معه منذ صباه. كان الخليفة، في كل حياته، يتصرف بسلوك الجندي، وما أن اعتلى الرشيد العرش إلا ووضع نظاماً عسكرياً جديداً على طول حدوده مع الإمبراطورية البيزنطية، فقد ترك بغداد مخلفاً وراءه نساءه وأطفاله وأمواله لينعم في الرقة Raqqa، حيث أمضى فيها ثلاثة عشر عاماً، وهذه الفترة تزيد على نصف مدة حكمه . . .

كان همه الوحيد نشر الإسلام عن طريق الحرب «الجهاد»، وهو هدفه الأساسي في الحياة، وهو ما يتميز به عن بقية الخلفاء العباسيين. لقد كان الرشيد يقود حملاته في الأراضي البيزنطية شخصياً، وكانت تستهدف دائماً القسطنطينية، لذلك فإن تقرب الرشيد من شارلمان يأتي في إطار مشاريع فتوحاته، ولكن، كما قلنا، كانت الاضطرابات في خراسان وموته المفاجئ السبب في توقف هذا التقارب.

انتهاك وصايا هارون الرشيد

كانت زبيدة في الرقة Raqqa عندما علمت بوفاة الخليفة . . . وعلى الفور أقامت مأتماً ضخماً شاركتها فيه بنات الخليفة وشقيقته علية وكبار الشخصيات في الدولة والقصر . . .

وقد كُلف إسحق الموصلي بتأليف رثائية عزفت من قبل الجوق الإمبراطوري في لحن يشبه إلى حد كبير الألحان التي كانت تعزف أيام الأمويين . . .

وبعد بضعة أشهر تركت زبيدة الرقة Raqqa لتتوجه إلى بغداد ، حيث أقامت في قصر القرار Al-Karar وبقيت فيه إلى أن وافاها الأجل المحتوم . . .

في بغداد علم الأمين بأنه أصبح أميراً للمؤمنين ، وبعد يومين فقط من وفاة والده أي في يوم الجمعة جرت مراسيم البيعة في جامع المدينة المدورة . . . ومن على المنبر Munbar أثنى الخليفة الجديد على والده وأهاب بالناس على الطاعة ، ثم تقدم الأمراء واحداً تلو الآخر أمام الخليفة وهم يرددون قسم البيعة ، أما المقربون من أبناء العائلة والموظفين فقد رددوا القسم أمام أعمام وأخوال الأمين ، وقد منح الجند في هذه المناسبة راتب شهرين . . .

أما المأمون فإنه كان قد أعلن عن وفاة الخليفة والده من مدينة مرو Merv ، وهناك استلم البيعة باسم الأمين وباسمه شخصياً كوريث ثان للعرش ، وقد منح جنده راتب سنة كاملة . . .

وبعد أيام قليلة أطلق المأمون سراح عدد من السجناء السياسيين ، من بينهم عدد من البرامكة الذين كانوا لايزالون على قيد الحياة ، وذلك بناءً على توصية من الإمبراطورة زبيدة . . .

ومع أن الرشيد كان يعلم بالمشاكل التي ستواجهها الإمبراطورة بعد موته ، الأمر الذي دفعه لتسوية مسألة الخلافة وهو على قيد الحياة . . . لكن الذي حدث كان أكبر من تصورات الخليفة ، إذ إن ميثاق مكة لم يحترم ، ووجدت الإمبراطورة نفسها على شفا الهاوية ، وفي وضع أسوأ بكثير مما تنبأ له المتشائمون . . .

وهكذا وكفن الخليفة لم يجف بعد ، حتى جفت كلمات الميثاق وانتهكت توصياته ، ففي كرمنشاه وخلال زيارته الأخيرة ، كان أعطى أوامره إلى القوات التي ترافقه إلى مرو أن تكون بإمرة المأمون في حالة وفاته ، وفي يوم وفاة الرشيد نفسه وصل مبعوث من الأمين وسلم المأمون رسالتين ، الأولى تقضي بتسليم عائلة الخليفة

وحاشيته لوصاية الفضل بن الربيع ، وتقضي الثانية تسليم قيادة الجيش المرافق للقادة المدونة أسماؤهم في الرسالة . . .

في هذه الظروف ، رجح الفضل بن الربيع كفة الميزان لصالحه بقوله «خليفة على العرش خير من خليفة ينتظر» وهذا القول أقنع القادة بسرعة . . .

تجاه هذا الموقف لم يكن رد فعل المأمون سريعاً ولم يحتج ، وإنما حرص على إصلاح الوضع في خراسان وترميم الأضرار التي نجمت عن سوء تصرف علي بن عيسى ، فقد خفض الضرائب وقام بإجراءات تلطيف وتخفيف عن كاهل الشعب ، وأعاد العدل إلى نصابه وأشاع المساواة بين الرعية . . . وعندما لمس الشعب ثمار هذا الحاكم الجديد ، تخلوا عن الثائر رافع بن ليث Rafi b. Layt الذي استسلم للقائد هرثمة Harthama . ومن جهة أخرى ، انضم والي سوريا - العواصم إلى القاسم تحت تأثير الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى . هنا احتج المأمون وقطع البريد بين خراسان وبغداد واستبدل والي الري Ray المتعاطف مع الأمين بآخر معتدل . في هذه الأثناء ، أرسل الأمين مبعوثين ليبلغوا المأمون رأيه بجباية الضرائب من قبل موظفين تابعين للأمين ، كما أبلغوه بأنه سيعين ممثلاً للبريد يُكلف بتزويد الأمين بمعلومات يومية عن الإقليم . كل هذه الإجراءات كانت تهدف إلى تنحية المأمون من خراسان إلا أنه رفض بشدة . والمأمون ذو الثقافة الثورية الذي نشأ في خراسان ، التي شهدت بواكير الثورة العباسية ، أخذ يراقب الحدود ويغلق الطرق ويفتش القوافل ، فقد أقام في الري Ray قوة خاصة من عشرين ألف رجل بقيادة طاهر بن الحسين Tahir b. Hussein ، في الوقت نفسه الذي استمر فيه الجدل والخلاف بين الأخوين سجالاً خلال أشهر عديدة . وفي إحدى المرات ، التمس المأمون من أخيه الأمين أن يرسل له زوجته أم عيسى وأولاده ويفي له مبلغ مئة مليون دينار ، الذي أوصى له والده . رفض الأمين هذا الطلب بل على العكس انتزع الجوهرات الثمينة التي كان المأمون قد أهداها لزوجته . . .

في هذه الأثناء ، أعد مستشار المأمون الفضل بن سهل الطريق إلى بغداد ، حيث يمضي الأمين فيها ليالي الأنس والمجون تاركاً أعباء السلطة لوزيره الفضل بن الربيع .

كان الأخوان متأكدين من حتمية المجابهة المسلحة ، وبدأت القطيعة عندما أعلن الأمين خلع المأمون وتعيين ولده البالغ من العمر عامين وريثاً للعرش ، وأصدر التعليمات بعدم ذكر اسم المأمون في صلاة الجمعة ، وإزالة اسمه ورسمه من على النقود والمطرزات والملابس الملكية ، وإبداله باسم موسى ، وأمر بتمزيق ميثاق مكة

المعلق على الكعبة .

أما المأمون فإنه من جانبه أزال اسم الأمين من على النقود ، وفصل لقب الإمام والكف عن مناداته بالوريث الثاني ، هذه الأحداث جرت في تشرين الثاني ٨١٠م . وهكذا لم تمر سنتان على رحيل الرشيد إلا وتلاشى الوئام والسلام العائلي والسياسي ، وسرعان ما اندلعت الحرب الأهلية .

عين الأمين علي بن عيسى والي خراسان السابق قائداً عاماً لقوات قوامها أربعون ألف رجل لمجابهة جيش المأمون وإلحاق الهزيمة به ، والقبض عليه وتقديمه مخفوراً للأمين . وقبل أن يتحرك باتجاه الري Ray منحه الأمين هدية نقدية مقدارها مئتا ألف درهم ، ووعده بولاية خراسان ، على أن يعدل فيها ويخفض الضرائب عن كاهل شعبها ، ثم قال له «إذا سقط المأمون بين يديك أرسله لي مقيداً بسلاسل من فضة» .

ترك ابن عيسى بغداد على رأس جيشه المدجج بالسلاح ، متجهاً صوب مدينة الري Ray ، حيث يتحصن فيها طاهر مع عشرين ألف رجل .

التحم الجيشان في معركة ضارية استطاع طاهر خلالها دحر جيش الأمين ، أما قائده ابن عيسى فقد حز رأسه وأرسله إلى المأمون . في ذلك اليوم حمل المأمون لقب الخليفة وأمير المؤمنين ، وأصبحت الإمبراطورية تحت إمرة خليفتين ، الأول في بغداد والثاني في خراسان .

عندما علم الأمين بالأمر أرسل فوراً جيشاً آخر قوامه عشرون ألف رجل بقيادة عبدالرحمن بن جبلة ، وجلهم من الأبناء . حدثت المجابهة بين الري Ray وهمدان Hamadan .

هزم جيش عبدالرحمن Abderrahman b. Djadlah وحوصر في هذه المدينة ، وبعد شهرين استسلم ، إلا أنه قتل أخيراً عندما حاول المراوغة والخداع ، وهكذا أصبح طريق بغداد سالكاً أمام جيش طاهر .

بعد هزيمة هذين الجيشين أصبح النصر أكيداً للمأمون ، ولكن هل استغل هذا الفوز في حرب كلامية ضد أخيه الأمين وحكومته البائسة في بغداد؟ الجواب عن هذا السؤال استغرق عامين من الأحداث المأساوية قبل أن يدخل المأمون إلى بغداد منتصراً .

عندما سمع الأمين بتقهقر قواته الواحدة تلو الأخرى أرسل قوات جديدة لتحل محلها ، ولكن واجه هذه المرة صعوبات جمة في تشكيل القوات وإيجاد القادة

المتحمسين ، حيث إن الهلع والخوف قد دب في نفوس جند الخليفة الأمين .

أخذ القادة يتهربون من مجابهة جيوش المأمون ، وفي نهاية المطاف اقتنع اثنان منهم هما أحمد وعبدالله ، وهذان تشتت جندهما قبل بدء المعركة بسبب إشاعة مفادها أن الخليفة منح راتب سنتين للجنود الذين بقوا في بغداد .

في خضم هذه الأوضاع استطاع القائد طاهر الاستيلاء على حلوان Halwan دون قتال ، عندئذ أصدر المأمون أوامره إلى هرثمة Harthama الذي كان على رأس عشرين ألف رجل باحتلال حلوان وإلى طاهر بالتقدم إلى بغداد .

في هذه الأثناء ساد الهرج والمرج العاصمة بغداد ، وثار القائد العام لقوات الأمين حسين بن علي بن عيسى معلناً لجيشه «لم نعد نحتمل الذل بالبقاء تحت ظل نظام شخص لا هو رجل ولا هو امرأة : الأمين يعيش حياة المجون ولا يفكر بجيشه ولا بحكومته» ، وعندما سمع الأمين بذلك قام بإلقاء القبض عليه ، إلا أن الجيش انقسم بين مؤيد ومعارض .

لم يستطع الأمين إعادة الأمن والنظام ، فوزع السلاح على السكان معتقداً بأنهم سوف يقاتلون من أجله ، الأمر الذي فاقم الوضع .

في ٢٥ آب ٨١٢م وصل قادة المأمون هرثمة Harthama وطاهر أسوار مدينة بغداد وبدأ الحصار .

رجال المقاومة في بغداد La commune

كانت بغداد محصنة جيداً ، وكان الاستيلاء عليها سهلاً ، وقد عزز الأمين التحصينات على أبواب بغداد ووزع المال على الجند . احتل قسم من قوات المأمون منطقة باب خراسان ومقابلها يعسكر جيش هرثمة Harthama ، أما طاهر فقد اتخذ مواقعه أمام باب البصرة ، وقائد ثالث احتل جنوب بغداد للسيطرة على أجهزة الحصار المرافقة لجيش المأمون . في داخل الأسوار ، سقطت المدينة بالكامل بأيدي الرعاع . يقول الطبري :

«ما إن سقطت المدينة بأيدي الرعاع إلا وتسارع المواطنون إلى التخفي في الأماكن الآمنة ، حيث أصبح القراصنة واللصوص وقطاع الطرق أسياداً ينهبون ويقتلون دون عقاب . أما المؤرخ كندي فقد قارن بغداد بحصار (باريس) :

«انهيار الطبقة الوسطى أتاح لعناصر الرعاع دخول المسرح السياسي» حيث

سجل هروب قائد حرس الخليفة نهاية أمر سلطة الأمين ، «وهكذا سقطت قيادة الحرب بأيدي حثالة الرعاع والمغامرين وعم الخراب والدمار في كل أنحاء بغداد إلى أن تحولت إلى أطلال» حسبما يروي الطبري ، أما المسعودي فيصف الحالة في بغداد على الوجه التالي «أبكي على بغداد بعد أن فقدت رونقها ورخاءها ، الأموال تحترق والناس في هلع وولع ، هنا امرأة تنتحب لفقدان أحد أطفالها بين حوافر الخيول وأقدام الرعاع ، وهناك آخر يبحث عن عائلته وهو يصرخ كالمجنون وآخر يشهد مصرع رفيقه ، وفي الزاوية كانت هناك فتاة تندب شقيقها والدموع تتساقط من عينيها السوداوين ، ولم يعد لها أخ ، إلى جانبها سقط أحد الأجانب جثة بدون رأس تدحرجت إلى وسط الشارع . ثم امتدت المجزرة إلى كل مكان . فالولد لم يعد يستطيع الدفاع عن والده ، والصديق يهرب بعيداً عن صديقه ، الأعزاء رحلوا ولم يعد لنا سوى البكاء والبكاء ، أسواق الكرخ موحشة فارغة ، بعض المتشردين يسرعون الخطى ، أثارت الحرب حتى وحشية الأسود المتوحشة ذات الأنياب الحادة» .

يصف شاعر آخر الموقف وهو ضرير اسمه علي :

«لقد أفرزت حروبنا رجالاً لا هم من قحطان ولا هم من نزار ، مجموعة مسلحة بالدروع تهرع إلى المعارك كالأسود المفترسة . . . ولم تعرف سوى الهرب والهزيمة . واحد منهم فقط ، واحد لم يكن يرتدي سوى سروال قصير هاجم مجموعة من مئتي شخص(!) وأخذ يضرب صارخاً ، خذوها من مقاتل متشرد!» ، لم يبق في بغداد سوى البائسين والمحرومين والفارين من السجن . . .

المرأة لم يعد لها حمى ، لم يعد لها خال أو عم أو أخ أو زوج ليدافع عن شرفها ، وكل ماتتمناه الموت ، يارب أنت قادر على كل شيء وبذكرك تطمئن القلوب» .

نداءات الاستغاثة هذه بصورة عفوية كانت تعكس حالة المأساة التي كانت بغداد غارقة فيها ، سيما وكثافة سكانها كانت عالية في ذلك الوقت ، الأمر الذي جعلهم يدفعون الثمن غالياً . . . استمر الحصار سنة واحدة وبلغ القتال أشده ، وتسلح السكان بالعصي وأقواس رمي الحجارة ، وقد غطوا رؤوسهم بخوذ من خوص ، متسترين بدروع من السعف المضفور . خرجوا لمجابهة فرسان المأمون المسلحين بالرماح والسيوف وهم مجردون من الملابس عدا ما يستر العورة ، وقد أطلق على هؤلاء اسم «العراة» وبهذا اللقب دخلوا التاريخ . ويصف المسعودي أنه في أحد الأيام انضم ١٠٠٠٠٠ من هؤلاء العراة المسلحين بالرماح والعصي إلى أنصار الأمين ، وبدأوا

يستنجدون الناس عبر المزامير والقرون ، فتجمع حولهم عدد غفير من المستطرقين والتحموا مع أنصار المأمون في قتال ضار .

استطاع العراة المقاومة حتى الظهر ، ولكن بعد هجوم عنيف شنه كل أنصار المأمون انكسروا تاركين وراءهم عشرة الآف قتيل وجريح .

على كل حال فإن ثورة العراة ، التي ناضلت من أجل أن تبقى بغداد العاصمة ، تبعتها فتن وحركات كثيرة هزت المدينة على مدى فترة طويلة . كانت الجماهير تنزل إلى الشارع بمجرد سماعها إشاعة ، وسرعان ما تحدث المشاجرة لسبب سياسي أو اقتصادي تؤدي إلى النهب والسلب والتدمير والقتل . وقد أصبحت هذه الهيجانات الشعبية جزءاً من حياة المدينة وعرفت بالفتن ، كما أطلق على مثيري هذه الفتن بالعامة Alamma أي الناس المجهولون .

بعد أن استفحل أمر الغوغاء والرعاع ، فقد الأمين السيطرة كلياً على الوضع ، ولم يعد لديه المال لتوزيعه على أنصاره ، وإنما سمح لهم اللجوء إلى بيوت موظفيه ، وعندما يئس من كل شيء أخذ يصرخ «أطلب من الله أن يقضي على الطرفين في وقت واحد لأنه لم يعد لدي سوى الأعداء سواء كانوا معي أو الذين يقاتلونني ، فالأول يطمع بمالي والثاني بحياتي» .

وفي حدود عام ٨١٣م ، أخذت الأحداث تتسارع ، فانقطعت الاتصالات والمواصلات بين ضفتي بغداد الشرقية والغربية ، حيث أصبح الكرخ تحت سيطرة القوات المعادية ، وانسحب الأمين ووالدته زبيدة إلى المدينة المدورة ، تاركين قصور الخلد Khuld والقرار Karar ولجأوا إلى قصر القبة الخضراء في مركز المدينة . ولما وصل الحال إلى هذه الدرجة من الخطورة اجتمع القادة وما بقي من الموالين ونصحوا الأمين بمغادرة المدينة تحت جنح الظلام بحماية جيش الأبناء والتوجه إلى سوريا ، ومن هناك يعمل على استعادة عرش الإمبراطورية .

هذا الاقتراح لم يلق التأييد من قبل الجميع ، وأخذ قسم آخر من الموالين للأمين يشككون بنجاح مثل هذا المشروع ، وقدموا اقتراحاً أخر هو الاستسلام للقائد هرثمة Harthama لكونه قائداً حسناً ويقدر مثل هذا الموقف أكثر من طاهر المتطرف والمتعصب .

وافق الأمين على المقترح الثاني ، وأبلغ القائد هرثمة Harthama من دون علم القائد طاهر باستعداده للذهاب إليه في معسكره والاتفاق على الاستسلام له وتسليم

شارات الخلافة (البردة والعصا والخاتم إلى طاهر).

وما إن استلم القائد هرثمة Harthama مقترح الأمين حتى توجه إليه في زورق مع عدد من الأشخاص ورسا أمام قصره بانتظار الخليفة.

في هذه الأثناء، لاحظ القائد هرثمة Harthama ضجيجاً وحركة مريبة على ضفة الشاطئ، فاقترح على الخليفة تأجيل العملية إلى المساء، لكن الأمين رفض المقترح.

كان هرثمة Harthama قد وصل إلى قصر الأمين مع عدد من رجاله، وحالما التقى الخليفة سجد على قدميه مردداً «يا سيدي وابن سيدي ويا قائدي وابن قائدي» ثم توجه الجميع إلى زورق هرثمة Harthama وما كادوا يركبون إلا وظهر رجال مسلحون حاصروا الزورق وأحدثوا فيه فجوة، فقفز إلى النهر كلُ من كان في الزورق، وبعد دقائق لوحظ هرثمة Harthama مستنداً على جنبه، أما الأمين فإنه توجه سباحة إلى الضفة الأخرى، وهناك تعرف عليه الجند فوراً واقتادوه على الحمار إلى دار قريب. وعندما علم طاهر بأسر الخليفة أرسل إليه عدداً من العبيد من بينهم عبد اسمه قريش Koraich، وفي لحظة وصولهم إلى الخليفة عرف الأمين بأنهم عملاء طاهر فقابلهم بكبرياء الخلفاء.

ولما كان وزير داخلية الأمين أحمد قد ألقي القبض عليه أيضاً، قال له قريش أمام الأمين، في محاولة لإهانة الخليفة «أيها الوزراء الملاعين كونوا على مستوى مواقفكم» فرد عليه الأمين «لا تذكر وزرائي إلا بالخير، إنهم أبرياء، أما أنا فلست أول من فشل في الوصول إلى الهدف» ثم أخذ الأمين يصلي.

في حوالي منتصف الليل دخل عليه جنود فرس شاهرين سيوفهم، وحاول الأمين مبارزتهم، إلا أن أحد الفرس عاجله بضربتين على رأسه فحز رأسه، وحمله إلى طاهر الذي علقه على جسر بغداد الرئيسي حسب تقاليد ذلك العصر.

وهكذا قتل الأمين في ليلة ٢٤/٢٥ آب ٨١٣م وهو الابن البكر لهارون الرشيد والخليفة الوحيد من أبوين جدهما العباس عم الرسول محمد ﷺ.

وهذه الكلمات هي آخر ما تفوه بها الأمين لحظة احتضاره:

«إنا لله وإنا إليه راجعون! أنا ابن عم النبي!، شقيق المأمون!»

ها قد أصبح المأمون الخليفة الوحيد دون منازع، لكن لم يزل أمامه طريق طويل قبل أن يستتب حكمه على الإمبراطورية. فشبح الحرب الأهلية كان لايزال جاثماً

على صدور الناس وتواتر الأحداث أخرت عودته إلى العاصمة . . .

عندما قتل الأمين كان المأمون في مرو Merv برفقة وزيره و «حارسه» الفضل بن سهل ، الذي كان يأمل بجعل خراسان مركزاً للإمبراطورية ، سيما وأنه كان يتمتع بنفوذ واسع في هذه المنطقة . كان موقف المأمون من العلويين يختلف عن موقف أخيه الأمين . ولعل السؤال أو الأسئلة التي تطرح نفسها : هل كان يريد أن يضع نهاية للخلاف الأزلي مع العلويين؟ أم إن قناعاته العميقة الشخصية تجاه العلويين حملته أخيراً إلى تنفيذ طموحاته ، وربما الاثنين معاً .

في ربيع عام ٨١٧م ، اتخذ المأمون قراره المفاجىء والمدهش بتعيين الإمام علي بن موسى ، المكنى بعلي الرضا الإمام الثامن للشيعة الاثني عشرية ، كوريثه الثاني ، واستبدل راية العباسيين السوداء براية العلويين الخضراء . ثم أهدى المأمون ابنته أم حبيبة كزوجة للإمام الرضا ، كما تزوج ولده الإمام محمد الجواد إحدى بنات المأمون المكناة بأم الفضل .

بطبيعة الحال ، فإن العباسيين لم يبتعدوا عن الخلافة ، ولكن هذا القرار يستهدف تهدئة الأوضاع واستتباب الأمن والسلام ، حيث الإمام الرضا (ع) كان يتمتع بشخصية قوية ومؤثرة لدى كل المسلمين ، ثم بعد ذلك عودة الخلافة إلى العباسيين ، وعلى كل حال ، فان هدف المأمون كان أيضاً رأب الصدع داخل العائلة الهاشمية وتوطيد دعائم الخلافة ، ولكن الذي حدث أثبت العكس . . .

وهكذا ساد الاضطراب بغداد من جديد ، وقرر الأمراء العباسيون أخيراً خلع المأمون واختيار أحد أقرباء الرشيد للخلافة ، وقد وقع الاختيار بادىء الأمر على المنصور أحد أبناء المهدي الذي رفض . عندها وقع الاختيار على إبراهيم أحد أبناء المهدي وأعلن خليفة في ٢٤ تموز ٨١٤م . وبدأ الخطباء يذكرون اسمه في جوامع بغداد ، ولقب إبراهيم بالمبارك ، ولم يعد اسم المأمون يذكر ، وعادت الإمبراطورية من جديد بخليفتين .

في الواقع كان غريبا اختيار إبراهيم للخلافة وهو المعروف بشهرته الموسيقية والغنائية أكثر من كونه رجل دولة ، حيث إنه كان نديماً للرشيد ومعروفاً بمجونه وبذخه المفرط بل لم يكن يتمتع بميزة تؤهله قيادة الإمبراطورية ، وخاصة في الظروف الصعبة المستمرة ، فبيت المال فارغ ، وكان على إبراهيم أن يصرف من أمواله الخاصة لدفع مرتبات الجند ، ولما نفدت أمواله خول الضباط استيفاء رواتبهم من محاصيل الشعب

«السواد» Sawad في منطقة بغداد .

استغل الضباط هذه الفرصة ليعيثوا في الأرض نهباً وحرقاً ، وأخذوا يحصدون المحاصيل ويسلبون الناس ، مما أثار النقمة على الخليفة الجديد والتشكيك في قدرته على إدارة الإمبراطورية .

وهكذا اندلعت الفتن والاضطرابات من جديد في العاصمة وفي الأحياء بين أنصار الخليفة إبراهيم وأنصار العلويين .

لم يستطع إبراهيم مقاومة هذه الاضطرابات وإقناع الناس ، كما لم يستطع المؤثرون ترويج حلوله حول حسم النزاع مع العلويين . وكان جميع الناس يعلمون بهذه الحقيقة ماعدا المأمون نفسه الذي كان آخر من يعلم .

وفي الواقع فإن الإمام علي الرضا هو الذي أثار انتباه المأمون إلى هذه الحقيقة ، فقد عرض على الخليفة استياء الناس من وجود الفضل بن سهل على رأس الدولة ، وأنه يعارض تعيينه كوريث ثان للإمبراطورية . وكان العباسيون في بغداد مستائين جداً من قرار المأمون ، الأمر الذي دفع بهم إلى اختيار إبراهيم كخليفة محل الأمين .

إذن ، توجب على المأمون العودة إلى بغداد ، وهو الوحيد الذي يستطيع إعادة السلام إلى هذه المدينة وقد أكد القادة ضرورة عودته . وعلى هذا الأساس غادر المأمون مدينة مرو Merv بداية عام ٨١٨م . وبعد مغادرته بفترة قصيرة اغتيل الفضل بن سهل ربما بأمر من المأمون نفسه . ثم واصل المأمون تقدمه إلى بغداد على مراحل ، وبعد ستة أشهر وصل إلى طوس Tus حيث صلى هناك على قبر والده الرشيد . وهناك أيضاً توفي الإمام الرضا (ع) بعد أن تناول كمية من العنب كما قال البعض ، أو أن المتآمرين قد دسوا له السم كما قال البعض الآخر .

على كل حال ، فإن اختفاء هاتين الشخصيتين ، الفضل بن سهل والإمام الرضا ، قد مهد الطريق للخليفة المأمون ، فالوزير المتخلف قد رحل وسياسة الانفراج العلوية قد تركت .

أما طاهر فقد كان قابعاً في الرقة Raqqa مع جيشه ، وهو يراقب الموقف ، إلى أن استلم الأوامر بالسير نحو بغداد ، حيث دخلها في الوقت نفسه الذي وصل إليها المأمون في العاشر من آب ٨١٩م ، وكان قد مضى على وفاة الرشيد أكثر من عشر سنوات .

الفصل السابع

بغـــداد

«بغداد ليس لها مثيل لا في الشرق ولا في الغرب»
اليعقوبي YAKKUBI

«بغداد في قلب الإسلام وهي مدينة السلام ، فيها تفتقت المواهب وتفتحت العقول والأفكار ، وفي أحضانها عرف الذوق والأناقة والأدب ، نسيمها عليل وعلمها نافذ ، فيها أجمل ما خلق الله . منها انطلق العلم والأخلاق وإليها يعود ، إليها تنجذب كل القلوب وعليها كل الحروب» .
المقدسي Muqadassi

عندما وصل المنصور إلى هذه المنطقة ، سأل ما اسمها؟ فأجابوه بغداد ، فرد عليهم الخليفة : «باسم الله إنها المدينة التي أوصى بها والدي محمد بن علي لتأسيسها حيث أعيش وأحكم فيها أنا وأحفادي . فقدْ فقدَ الأمراء أثرها قبل الإسلام وبعده لكي أطبق أنا مشيئة الله .

وهكذا تتأكد النبوءات فتسطع كالشمس ، ومن دون مبالغة فإن هذه «الجزيرة» التي يحدها من الشرق دجلة ومن الغرب الفرات تألقت في العالم من واسط والبصرة حيث يقصدها الناس عبر دجلة والإبلة ubulla والأهواز ، ومن فارس ومن عُمان ومن اليمامة ymama ، ومن البحرين والمناطق المجاورة ، كما تصل إليها البضائع من الموصل وديار ربيعة Diar Rabia ، ومن الرقة ومن سورية(بلاد الشام) ومن بلدان آسيا الصغرى ومن مصر ومن المغرب . هذه المدينة ستكون على طريق شعاب جبال أصفهان وأقاليم خراسان . الحمد لله الذي وهبنا هذه العاصمة وحول أنظار من سبقونا عنها ، باسم الله سأشيد فيها وسأقيم عليها وأمضي حياتي في ربوعها ، ستكون مأواي ومأوى أحفادي وستكون بعون الله أجمل مدينة في العالم» .

أغنى مدينة في العالم

بلغت معالم بغداد خلال فترة قصيرة أوج المدنية ، ولكن مما يؤسف له أنه لم يبقَ فيها أي أثر ، كما هو الحال في المدن العريقة كروما أو إسطنبول أو دمشق أو أثينا أو القدس ، فالطبيعة في بغداد قاسية . في حين هناك مدن أخرى في العراق حافظت بعض الشيء على أثارها كبابل وسلوقية seleueie و المدائنCtesiphon ، وكل هذه المدن مثل بغداد تقع على الطريق الذي يربط الهضبة الإيرانية بوادي الرافدين وسوريا .

هذه المنطقة شهدت عبر آلاف السنين حضارات متعددة ، وبالتالي تدفق عليها العلماء والتجار وهم يتنقلون بين آسيا الوسطى والهند والشرق الأقصى ، سالكين جبال زاكروس zagôros بين خانقين وهمدان ؛ لتؤدي بهم إلى هضبة وادي الرافدين قليلاً باتجاه الشمال .

ورغم أن جزيرة بغداد تقع بين دجلة والفرات ، فإنها نادراً ما كانت تتعرض للفيضان بفضل شبكة القنوات التي تربط بين دجلة والفرات ، التي تحافظ على منسوب المياه . كل هذه العوامل جعلت من بغداد مركزاً للاتصالات والمواصلات

وسط واحة من السهل الدفاع عنها ، فأصبحت مركز استقطاب كبير لأكبر تجمع سكاني .

كان المشروع المبدئي للمنصور تأسيس مدينة محصنة له لتوطيد السلطة فيها : عاصمة سياسية وإدارية من دون حدائق ولا دور رياضية .

رغم ذلك أخذت تتطور لتصبح بعد فترة وجيزة عاصمة كبيرة تجلب انتباه سكان الإمبراطورية قاطبة خلال فترة أقل من اثني عشر عاماً ، وأصبحت عاصمة الرشيد خلال فترة أقل من نصف قرن ، حيث بلغ سكانها آنذاك مليون شخص ، وهذا يعني أنها كانت أكبر مدن العالم ، ولم تكن تضاهيها مدينة في الغرب سواء في شمال إيطاليا أو باريس عدا القسطنطينية ودمشق والقاهرة ، التي كانت تعد كل واحدة منها بحدود النصف مليون نسمة تقريباً .

إن أسباب هذا التوسع الرهيب الذي يحصل في العالم عبر التاريخ ، سواء في أوربا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين أو في بلاد البلقان والأناضول في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، مرجعها دائما : السلام والاستقرار السياسي والإدارة الجيدة ، وخلق الموارد الاقتصادية الجديدة واستثمارها بشكل واسع من قبل الشعوب الحية ، ولهذا السبب شهد العالم في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين أكبر نهضة مدنية شهدتها الإنسانية .

فقد جمعت بغداد كل مقومات وعوامل التطور ، وعبقرية المنصور هي التي اكتشفت هذه المقومات واستثمرتها ، فالاقتصاد الزراعي كان في أوج ازدهاره بفضل المشاريع التي شرعت منذ زمن الساسانيين بتجفيف الأهوار وشق قنوات الري ، التي ساعدت على زراعة الحبوب والقطن وقصب السكر ، وغرس أشجار النخيل والليمون .

لقد جعل الفلاحون والبستانيون من بغداد واحة جميلة ، تشقها القنوات وسط دجلة والفرات ، وكانت تعرف أنها تنتظر مستقبلاً زاهراً .

ومنذ أن تأسست بغداد شاعت شهرتها وأخذت تستقطب رجال الأعمال ورؤوس الأموال ، ثم تبع ذلك حركة تجارية واسعة . ولعل هذه الرواية عن الخطيب البغـــدادي Khadab Al Bajda تجسد هذه الحالة .

(في يوم من الأيام قام أحد سفراء بيزنطة المبعوثين إلى الخليفة المهدي بزيارة المدينة . وفجأة توقف في وسط السوق وقال للحاجب الذي يرافقه «هذا هو أحسن مكان للاستثمار التجاري ، هل يمكن أن تطلب من الخليفة إعارتي مبلغ نصف مليون

درهم وإني متأكد من مضاعفة المبلغ خلال سنة واحدة) .

وعندما نقل الحاجب طلب السفير إلى الخليفة المعروف بسخائه ، أجابه «أعطه المبلغ الذي طلبه وأضف عليه نصف مليون آخر ، وعندما يعود إلى بلده أرسل له أرباح كل المبلغ أي المليون درهم» ، ونعود إلى السفير فإنه قد أقام مطحنة بالقرب من المدينة ، واستمر الحاجب بإرسال وارداتها له على مدى حياته . . .

وهكذا كان اهتمام الناس بالتجارة ، بدءا من الأمراء العباسيين وأولادهم إلى صغار الموظفين في الدولة ، يشترون ويبيعون الأراضي ويساهمون في المشاريع ويتعاطون الصيرفة دون التقيد بتعاليم الدين التي تمنع الربا .

أما الحياة في المدينة المدورة ، فإن الشخصيات المقربة من الخليفة ومن النظام ، وبشكل خاص أفراد العائلة العباسية ، تسكن في الصف الأول بعد قصر الخليفة في دور منحتها الدولة لهم .

وفي هذا الصدد يقول المنصور لولده المهدي بشأن العائلة العباسية :

«احترمهم واجعلهم في المقدمة وكن كريماً معهم ، اجعل مقامهم أرفع من الآخرين لأن مجدهم هو مجدك ، والحمد والثناء الذي يوجه إليهم هو في الحقيقة لك» .

شيد أولاد المهدي قصورهم في الجانب الشرقي من بغداد ، في حين أقام الخليفة قصره في الرصافة على الجانب الآخر من النهر ، وهناك انضمت إليه حاشيته وكبار موظفيه .

ثم يأتي بعدهم أفراد العائلة المقربون ، وهؤلاء أيضاً لهم دورهم الممنوحة لهم من الخليفة مباشرة . ويكون المقربون عادة من القبائل المعروفة بنسبها وقرابتها لبني العباس أي من(قريش Qoraich ، الأنصار Ansar ، واليمن Yemen) ، وقد كان هؤلاء من أقرب المقربين للخليفة .

وهؤلاء المقربون كثيرو العدد في البلاط ، ومهمتهم إحياء التراث والأدب والشعر العربي الجاهلي . وكان المنصور يعتبرهم منهل اللغة العربية ، وقد أناط بهم تربية ولده (المهدي) ولي عهده لتهذيبه وتعليمه أصول اللغة العربية وقواعدها وأدبها . وقد سار الولد على نهج أبيه ، ففعل المهدي الشيء نفسه بالنسبة لولديه الهادي وهارون .

كما كانت الأراضي تمنح إلى رؤساء العشائر التي لعبت دوراً مهماً في الثورة العباسية . . وخاصة في أثناء سقوط الموصل وواسط والبصرة والكوفة .

كما أن الخلفاء لم ينسوا أيضاً ذلك الدعم المطلق لقوات خراسان ، هؤلاء العرب

الذين كانوا يقيمون في إيران (بلاد فارس) ، الذين أصبحوا رأس الرمح للجيش الذي قاد العباسيين إلى السلطة .

هذه القوات أعيد تنظيمها على أسس الانتماءات العشائرية والأصول العربية «موالين ، قادة مخلصين» ، وكما يقال فإنهم شكلوا في أثناء حكم أوائل الخلفاء العباسيين النواة الرئيسية للجيش . ففي زمن هارون امتلكوا أحياء كاملة حول المدينة المدورة وقد تجمعوا حسب المنشأ في إيران .

إلى جانب هؤلاء يأتي الموالون mawali . هذه الفئة التي كان يعتمد عليها الخليفة المهدي كثيراً وقد احتلت حياً بكامله . اقتصر دور الموالين على الإدارة وبشكل خاص البريد le barid ، وتزايد دورهم في زمن هارون ، واستمروا كذلك إلى اندلاع الخلاف القاتل بين أولاد هارون ، حيث تفككوا شيئا فشيئا وانصهروا مع عامة الناس .

ومن الجدير بالذكر ، فقد كان الكثير من المستشارين المقربين للخليفة من الموالين ، وحتى إن قسماً منهم كان بدرجة وزير . لقد كان تدخلهم بعض الأحيان في مسألة الخلافة حاسماً . بالإضافة إلى الحي المخصص لهم ، فإنهم يمتلكون في كل مكان أراضي وعقارات ممنوحة لهم من قبل الخليفة .

الاختناق السكاني في بغداد

إن المخطط الذي وضعه المنصور لمدينة بغداد لم يحسب حساب التوسع السكاني ، بسبب هجرة الأفواج البشرية نحوها بعد أن استقر فيها المنصور ، وقد سبب ذلك إحراجاً كبيراً للدولة .

فالقادمون الجدد كانوا بعيدين عن تنظيم المدينة وتخطيطها ، التي ما إن دشنها المنصور حتى اكتظت بالسكان ، وكان ذلك مفاجأة للخليفة . لقد واجه المسؤولون مشكلة معقدة لم تكن في حسبانهم . كانت أول الأفواج من خراسان ثم من اليمن والحجاز وواسط والكوفة ، وغيرها من بلدان الشرق ومن مختلف الأجناس والشعوب ، ومن مختلف الطبقات ، فقراء وأغنياء ، مفكرين وفنانين ، تجارا ومهربين ومتسكعين ، فملأوا أحياء بغداد وتسببوا في أزمة سكن حادة .

كان سوق الكرخ في جنوب غرب المدينة قد تحول إلى مركز تجاري كبير ، ويصف لنا اليعقوبي هذا السوق قائلاً :

كان سوقاً كبيراً يمتد على طول اثني عشر كيلومتراً وبعرض ستة كيلومترات ،

وكان لكل تجارة منطقة محددة لها ، يعرض التجار فيها سلعهم ويزاولون أعمالهم في محلاتهم التجارية بحيث تتميز كل مهنة عن الأخرى ، وهذا التصنيف في التجارة ليس بجديد وإنما يمارس في الشرق منذ القدم .

لقد شهد جانب الكرخ نمواً سريعاً : يقول اليعقوبي :

«لم يكن في بغداد حي أكبر وأروع من جانب الكرخ» لقد شيدوا فيه بيوتاً أنيقةً وأخرى بسيطة ، ولكن من دون تنسيق ، شأنها شأن الأحياء في كل المدن الشرقية ، ومع ذلك فقد تحولت بعض الأحياء في جانب الكرخ إلى أرستقراطية ، حيث تجمع فيها الأغنياء وميسورو الحال من العائلة العباسية أو كبار التجار . ومن كان يسكن منطقة الشماسية al shammasiya فإنه يدل على رخائه وموقعه الاجتماعي المتميز ، حتى الشوارع تميزت بالطبقة الاجتماعية ، فشارع لسكن القضاة وآخر لسكن كبار التجار وثالث للكسبة وهكذا ، وقد تتغير هوية المحلة أو الحي تبعا للظروف السياسية والاجتماعية ، لا بل حتى الأسواق تنتقل بعض الأحيان من منطقة إلى أخرى في المدينة الواحدة . .

لم تمض مدة طويلة إلا واكتظ جانب الكرخ بالسكان ، حيث مركز المدينة المدورة ، وبدأت التجمعات السكانية تنتقل إلى جانب الرصافة بالقرب من المنشآت التي أقامها المنصور لولده المهدي . فأخذت الرصافة هي الأخرى تتوسع سريعاً في المنطقة المحيطة بقصر الخليفة . وهذا التجمع السكاني لم يزعج الخليفة ، بل على العكس شجع المواطنين على البقاء ، فتحولت الرصافة كالكرخ ، ومما زاد في رونق الرصافة عزم البرامكة على تشييد قصورهم والإقامة فيها ، فقد شيد كل من يحيى وجعفر قصوراً ضخمة على ضفاف دجلة ، ثم شيد قصر للأمين وآخر للمأمون . من ناحية أخرى ، فإن تطلع الخلفاء وحبهم لتبديل وتغيير القصور ساهم أيضاً في ازدهار بغداد ، حيث الخلفاء بشكل عام لا يحبون وراثة القصور بالدرجة نفسها التي يحبون فيها وراثة العرش ، لذلك كان كل خليفة منهم يشيد لنفسه قصراً جديداً أكثر فخامة وأبهة من قصر سلفه . وعلى سبيل المثال ، فإن هارون كان لديه عدة قصور ، يتنقل من واحد لآخر ومن منطقة لأخرى في العراق مع كامل بلاطه وحاشيته .

وتعدد قصور الخليفة هارون في كل مناطق العراق ساعد على انتشار التجمعات السكانية في كل أنحاء البلاد . كانت مواد البناء من اللبن وبعض الأحيان من الطابوق ، وهذا يفسر اندثارها السريع في حالة غياب الصيانة . إضافة إلى ذلك ، فإن

السكان المجاورين لهذه القصور كانوا يستخدمون موادها في بناء دورهم، وهذا يفسر أيضاً اختفاء هذه القصور في وادي الرافدين عدا ما تبقى من أطلال.

لقد بلغ عدد القصور الإمبراطورية في نهاية القرن الثامن الميلادي ثلاثة عشر قصرا احتلت مساحات شاسعة من الأراضي، وخاصة في الجزء الجنوبي من المدينة، والتي أطلق عليها لاحقا دار الخلافة Dar el kahalifa . وهكذا امتدت بغداد طولاً وعرضاً على جانبي الكرخ والرصافة، وقد جمعهما في زمن الرشيد ثلاثة جسور مقامة على طوافات، أحدها بالقرب من باب خراسان والثاني في مركز الكرخ والثالث على مسافة قصيرة باتجاه جنوب المدينة، وكانت القنوات تخترق المدينة، حتى إن قسماً كبيراً من المواصلات كان يعتمد على النقل النهري. ويقول المقدسي muqadassi في هذا الصدد:

«كان التنقل في دجلة، وكان ثلثا سكان بغداد يقيمون على ضفاف بغداد، كانت كالبندقية، العديد من الجسور الصغيرة كانت تربط جانبي النهر، يمر من تحتها الآف الزوارق والمراكب، وهي تنقل الأشخاص والسلع. ويقال إن كل شخص كان مضطراً لامتلاك حمار في الدار وزورق في النهر». أما الخلفاء فكانوا يملكون زوارق استعراضية ضخمة، فالأمين كان يمتلك منها على أشكال حيوانات: نسر وأسد وحصان وفيل وتنين وكوسج تمخر عباب النهر.

مجتمع متكافىء ولكن طبقي

بغداد مدينة مدورة، حيث الترف المبالغ فيه والذوق الرفيع إلى جانب البؤس الرهيب. وكان الشرق قد اختص في خلق هذه الحالة، والسبب هو كثرة الطوائف الدينية والعشائر، التي بدل أن تتعايش بسلام راحت تتناحر نتيجة التزمت الدامي، وبالتالي تتعرض للمآسي والأوبئة التي تجتاح المدينة كالعاصفة، أضف إلى ذلك كوارث الحرائق والفيضانات التي هي الأخرى تجتاح المدينة بالسرعة نفسها دون السيطرة عليها.

بغداد أروع مكان للإقامة بالنسبة للأثرياء، ولكنها أسوأ مكان بالنسبة للفقراء حيث البؤس والشقاء.

تنص تقاليد الدين الإسلامي على أن المسلمين جميعهم سواسية، وأنهم ينتمون إلى الأمة الإسلامية المؤمنة بقضاء الله تعالى دون تمييز. في الإسلام لا يوجد

رئيس ومرؤوس ولا غني وفقير ولا نبيل وحقير ، عدا من ينتمي لبيت المصطفى وآله ، وهم ينقسمون بين الطالبيين والعباسيين ، فالفئة الأولى يطلق عليها السيد والفئة الثانية لقب الشريف ، وما استلام هؤلاء العباسيين للسلطة إلا لكي تؤمن لهم حياة كريمة تليق بانتسابهم للمصطفى ، رغم أن الشريعة الإسلامية تساوي بين المسلمين أياً كان موقعهم في المجتمع ، وهذا هو مجتمع العدالة ومجتمع المساواة ، ولكن الحياة اليومية في بغداد والواقع الذي يعيشه النا لا ينطبق مع هذه المبادئ ، فالمجتمع العباسي كان مجتمعاً قائماً على التمييز وفق مقاييس الغنى والمال بشكل خاص .

العبيد

يأتي العبيد في السلم الأخير في المجتمع وهم كثر في المدن[١] ، والواقع فإن تعاطي الرق كان قد بدأ منذ زمن سحيق في المجتمعات الشرقية ، وقد ورد ذكرهم في التوراة القديمة[٢] ، فالبابليون أباحوا للآباء بيع أبنائهم إذا أساؤوا التصرف معهم ، والزوج كان باستطاعته أن يبيع زوجته .

إلا أن المصطفى ﷺ أصلح هذه الحالة ، وأوصى القرآن الكريم بمعاملة العبيد أسوة بباقي الناس[٣] . وقد ورد في أحاديث النبي محمد ﷺ ما معناه : (عاملوا عبيدكم بالحسنى وأطعموهم نفس طعامكم والبسوهم نفس ثيابكم ، وإذا ما ارتكبوا خطأ لا يغتفر من قبلكم فبيعوهم لأنهم عبيد الله وتعذيبهم حرام)[٤] .

وليس بالضرورة أن يكون العبد أسود ، فقد كان معظم حراس الحريم عبيدا من الجنس الأبيض ولكنهم «مخصيين» ، وكانوا من أصل سلافي . ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة أسكلاف esclave أي العبيد باللاتينية ، أو من أصل يوناني أو سوري

---

(١) بدأت محاولات في النصف الأول من القرن التاسع للاستفادة من العبيد المصحوبين من أفريقيا إلى جنوب العراق في تجفيف الأهوار ، ولكن انتهت هذه المحاولة بثورة الزنج التي هزت الإمبراطورية آنذاك ، ولم تتجدد المحاولة مطلقاً .

(٢) أبناء اسرائيل قادوا نساءهم واطفالهم .

(٣) سورة ١٦ الجزء ٧٣ .

(٤) كما أوصى الرسول بتحرير العبيد ، وقد ذهب أبعد من التلمود الذي يوصي بتحرير العبيد الاسرائيليين فقط .

أو أرمني وجلهم بالأصل من خدم الكنيسة .

هؤلاء العبيد البيض كانوا يخصون قبل بيعهم[1] ، إلا أن قسماً منهم يتخذون كجوار بل وحتى زوجات ، أما بالنسبة للعبيد من الجنس الأسود فإن ذكورهم كانت تبتر لئلا يستعيدوا نشاطهم الجنسي ، وكان للخلفاء العديد من العبيد ، بيض وسود ، وكانوا ينيطون بهم مهام رسمية ، وكان من بينهم القادة والأمراء وكبار شخصيات البلاط .

وفي زمن هارون الرشيد فإن موجة المخصيين هؤلاء ركبت هواة اللواط ، فالأمين كان مغرماً بالغلمان المخصيين ، لدرجة أن والدته زبيدة كانت تلبس أجمل بنات القصر لباس الغلمان لإرضائه . وقد تفشت هذه الظاهرة في كل مكان حتى في البلاط ، فكانت الفتيات الجميلات الرشيقات يرتدين زي الغلمان .

في حين كان رجال ذلك العصر يفضلون المرأة ذات القوام الممشوق والأرداف الضيقة ، وعندما توصف امرأة فإنها توصف على النحو التالي :

«إنها فتاة ممشوقة القوام ، ذات نهدين منتصبين بكبرياء ، وقدّ جميل يتلوى كغصن بان ندي» . وكثرة الغلمان وجمالهم كان سمة الطبقة الأرستقراطية المترفة كما يقرأ في ألف ليلة وليلة ، ومع ذلك فإن الرجال الذين يتعاطون الغلمان كانوا يشكلون عددا قليلا نسبياً .

وفي الواقع فإن اللواط لم يكن منتشراً عند العرب قبل الإسلام ، وإنما انتقل هذا الشذوذ من خراسان خلال القرون الأولى ، واتسع بشكل خاص مع وصول موجات العبيد البيض من أوربا ، وكثيرة هي الدواوين والقصائد الشعرية التي نظمت عن الغلمان ، ولكن هل حقاً كانت هذه الدواوين الشعرية تعبر عن عواطف حقيقية تجاه هؤلاء الغلمان أو مجرد تقليعة؟ هذا ما سنقرأه في فصل الفرس والعثمانيين مع هذه الطبقة من العبيد .

وهناك قسم من هؤلاء العبيد الغلمان عملوا أيضاً في التجارة ، وكلاء تجار أو تجارا ، وامتلكوا محلات وحوانيت وورشاً ، ولكن نادراً ما يستمرون على مشروع أو مصنع . وبشكل عام فإنهم كانوا يعاملون بالحسنى كما جاء في القرآن الكريم .

أما عتق العبيد فكان يعتبر عملاً صالحاً ، وغالباً ما يمارس في مناسبة أو عيد أو

---

(١) عملية الإخصاء كانت تمارس بقسوة .

قسم من أيام السنة ، وعندئذ يطلق سراح العبد بشكل كامل ولكنه يستمر بالولاء لسيده القديم عرفانا بالجميل .

أما النساء من العبيد فإنهن يستخدمن بشكل خاص لأغراض الخدمة والشؤون المنزلية ، وإذا ما كانت الوصيفة جميلة وشابة فإنها يمكن أن تكون جارية لسيدها ، ولا يسمح لأحد بأن يستعملها للبغاء ، على العكس فإنه غالباً ما يقوم سيدهن بتعليمهن الرقص والغناء والموسيقى والشعر ، وكثير من جواري الأمراء والخلفاء العباسيين ، ومنهم الخيزران ، كن قد اشترين بعد أن تم تعليمهن وتدريبهن على أيدي أساتذة مهرة ، وقسم منهن يبلغن درجات عالية ويستفدن أيما استفادة . وعندما تلد جارية طفلاً فإنها تعتق لزاماً ، ويعترف الأب بالطفل ويتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها الطفل الشرعي . .

عديدون هم أطفال الجواري في كل الأحوال والأجناس ، ومن ضمنهم الوصيفات ، وهذا ما يجسد التداخل العرقي الكبير . وابتداءً من القرن الثامن الميلادي ، فإن جميع الخلفاء يكادون أن يكونوا أولاد وصيفات بضمنهم الرشيد ، وقد أصبحت هذه الحالة جزءاً من الحياة الأرستقراطية للعوائل المترفة في ذلك الزمن .

الشعب

الطبقة التي تلي العبيد ، وغالباً ما تكون أكثر بؤساً منهم ، هم عامة الناس في بغداد ، بدءاً من الحمالين الحفاة إلى الكسبة والباعة المتجولين ، إلى بقية الحرف والصناعات الشعبية . الشوارع مزدحمة بالناس ، معظمهم من العاطلين والمنادين ، يشكلون خليطاً عجيباً من البشر من كل الأجناس والألوان والألسن ، هذا هو مجتمع عاصمة الإمبراطورية العباسية .

وهناك من يمضي أشهراً عديدة من دون عمل ومن دون مأوى ، يجوب المدينة بحثاً عن مصدر رزق ، وهناك من يمضي الليل تحت الجسور أو في الجوامع أو في أي مكان يحتمي به .

هذه العامة تغذي العصابات بالرجال الذين يهددون الطبقة المترفة والوسطى ، حيث يغيرون على الأحياء والمحلات التجارية سلباً ونهباً إذا ما رفض أصحابها دفع الإتاوة . وقد رأينا أنه عندما اندلعت الحرب الأهلية بسبب أزمة الخلافة بعد وفاة الرشيد ، قاد هؤلاء الخارجون على القانون انتفاضة بالعصي والهراوات والحجارة ضد

رجال الخليفة ، وهم يحتمون بدروع من خوص السعف . وبعض هؤلاء انخرط في سلك الشرطة shurta وهو يبغي فائدتين ، الأولى أن يضمن حياته عند اندلاع الفتن والثانية التمتع براتب الشرطي .

كما إن رجال هذه العصابات تمتزج دائماً مع الفتيان fityan ، وهي منظمة شباب تعيش متطفلة على الآخرين ، وهم يتعاونون بشكل خاص عند مقاتلة أزلام النظام ، وهذه المنظمة مع الجندين والمتعاونين معها تشكل قوة كبيرة لا يستهان بها .

بعد هذه الفئة تأتي فئة الكسبة والباعة المتجولين ذوي الموارد المحدودة ، ونادراً ما تتعرض للبؤس ، وإذا كانت بغداد قد استقطبت الكثير من الرجال والنساء من كل أرجاء الإمبراطورية ، فإنها كانت تتمتع بشهرة الغنى والرفاه ، ولم يكن أحد يعلم بأن فيها المئات الذين يموتون جوعاً . كانت الحركة التجارية النشطة ترفع من مستوى السكان ، لذلك كانت بغداد محسودة من قبل شعوب أوربا في العصور الوسطى .

البرجوازية La bourgeoisie

تتمثل الطبقة الوسطى بالتجار والأطباء والملاكين والموظفين والعقارات ، تدر موارد لا بأس بها إن لم تكن محملة بالضرائب . وبهذا الصدد يقول التنوخي Al tanukhi : إن الضريبة التي تفرض على عائدات مستودع للحبوب تصل إلى أكثر من ٥٠٪ ، وهذا ما يفسر العديد من الشكاوى التي كانت ترفع إلى أمير المؤمنين حسبما يرويه المؤرخون ، ومع ذلك فإن معدل الربح عال جداً سواء بالنسبة لأصحاب الأراضي الزراعية في منطقة بغداد أم بالنسبة لأصحاب المحلات التجارية ، وبشكل خاص أصحاب المطاعم والبقالين والجزارين . أما الباعة المتجولون فإنهم يحصلون على رزقهم بصعوبة ، ثم يأتي بعدهم صغار الموظفين ذوو الدخل المحدود جداً ، وبالتالي فإن قوتهم الشرائية محدودة بالمقارنة مع التجار والملاكين . إلى جانب الشرائح الاجتماعية هذه ، تأتي طبقة الأساتذة والشعراء الذين يعيشون على كرم طلابهم وأوليائهم ، وهؤلاء يتسمون بالسخاء ويجعلون البعض منهم يعيش بترف ونعيم .

والواقع فإن الكثير من هؤلاء التجار وصغار الملاكين والمقاولين هم أولاد الموالين للخلفاء الأوائل المكرمين بالمال والأرض - الإقطاعيات - حول مدينة بغداد تقديرا لولائهم .

قسم من هؤلاء التجار كان يعيش في ترف وبذخ ، والقسم الآخر كان أكثر

تواضعاً وبموارد أكثر نزاهة . وعلى سبيل المثال ، فإن تاجر القماش أو ملاك الأراضي كان يترك لأولاده ثروة تصل إلى ١٠٠٠ دينار ، أما ذلك الذي يملك بستانا والذي يعد من مكرمات الخليفة المنصور فإنه يؤجرها بثمن باهظ .

الحرفيون ينتمون أيضاً إلى هذه الطبقة الوسطى ، حيث يبيعون المنتجات التي يصنعونها . والحرفي يعتمد على نفسه بكل مستلزمات الصناعة اليدوية ، أما الورش الحكومية أو التي تسيطر عليها الدولة ، والتي تشمل بشكل خاص صناعة السفن والسلاح والنسيج فإنها خاضعة إلى نظام صارم من حيث السعر والجودة وتحت مراقبة الدولة ، عدا بعض الصناعات النسيجية فإنها ملزمة بختم الدولة .

لقد أفرز التحول من اقتصاد شبه زراعي - رعوي إلى اقتصاد تجاري مراكز تجارية ضخمة في بغداد وفي كل أرجاء وادي الرافدين ، مما أفرز في نهاية القرن الثامن الميلادي تحولات اجتماعية كبيرة ، أهمها كانت ولادة البرجوازية التي أصبحت بسرعة إحدى المقومات الرئيسية في حياة الإمبراطورية على سائر الأصعدة ، وإحدى الدعامات التي كان يستند عليها العباسيون .

وفي الإسلام فإن مهنة التاجر لها مكانة كبيرة ، إذ قال المصطفى محمد ﷺ «التاجر الصادق يستظل بعرش الله» ، وقال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «أفضل الموت على سرج بعيري في رحله عمل على أن اقتل في الجهاد» . كما أكد أحد أبطال القادسية ضد الساسانيين «أفضل أن أحصل على درهم واحد من العمل على أن أجني عشرة دراهم من العسكرية . .» . ويورد المؤرخون بأن الخليفة الأول أبو بكر كان تاجر قماش أي «بزاز» ، وكان عثمان الخليفة الثالث تاجر حبوب . التظاهر بالغنى ليس عيباً ، على العكس ففي حديث النبي محمد ﷺ يقول ما معناه :

«عندما يعطي الله الغنى فإنه يريد أن تظهروه»

وفي الواقع ، فإن مشكلة التباهي والتفاخر بالترف أمر نوقش كثيراً في بداية الإسلام ، ولذلك كان من النادر رؤية أشخاص يتعطرون ويتزينون ويتجملون في مدن أخرى غير مدينة بغداد .

وعلى كل حال ، فإن حياة الترف لم ينظر لها باستخفاف ، عدا ابتعاد بعض المشعوذين ، حتى إن امتلاك عدد من الغلمان لم يكن عملاً مستهجناً . أو لم يكن النبي محمد ﷺ وصهره الإمام علي (ع) متزوجين من العديد من النساء بالإضافة إلى زوجاتهم ؟

كما أن ادخار المال عند الإسلام لا غبار عليه ، إذ يقول النبي محمد ﷺ في حديث ما معناه : «يكاد الفقر يكون كفراً» . وكان من شروط البيع والشراء نزاهة العقود المالية أو التجارية ، أي احترام الاتفاق وعدم غش الزبون وإخفاء عيوب البضائع وعدم معاملة بائعي المفرد بخشونة . . ووجوب النزاهة والتعامل بالحسنى هذه مواصفات التاجر الذي يرضى الله عنه .

تكافؤ الامراء

جرت العادة في بغداد أن يحمل الشخص لقب مهنته أو مسقط رأسه ، وبعض الأحيان قبيلته ، ويفضل لقب المهنة إن كانت مرموقة مثل البزاز Bazzaz أي بائع القماش ، وسوق البزازين منفصل عن سوق الصاغة والصرافين ، الذين غالباً ما يكونون بالقرب من المراقد والأضرحة والجوامع .

ويلعب التجار ، كالمصدرين والمستوردين والجوهراتية والسفانة وتجار الحبوب ، دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية والسياسية للبلاد ، وقد يصل الأمر ببعض التجار أن يقرضوا الخلفاء والوزراء ، الذين بالمقابل يؤمنون لهم الحماية أو يغضون النظر عن بعض الصفقات غير القانونية ، وهؤلاء يشكلون كتل ضغط تمارس تأثيراً كبيراً على الحكومة والدولة .

وإذا ما استثنينا البلاط ، فإنهم يحيون حياة ترف وبذخ مبالغ فيه ، فهم يملكون الدور الضخمة والحدائق الغناء وأجمل الغلمان والجواري ، يعوضون متعهم ببناء الجوامع والجمعيات الخيرية وصيانة المؤسسات الخيرية ، ويتصدقون على الفقراء ، وهؤلاء ، شأنهم شأن الأمراء ، يكرمون الشعراء والأدباء والفنانين والمغنين ، يستقبلونهم في دورهم ويستضيفونهم ، وكلما زاد إطراؤهم لأسيادهم ازدادوا في التكريم .

وكما هو شأن سكان بغداد ، فإن التجار والصيارفة ينتمون إلى أصول مختلفة ومتنوعة ، فالفرس وعرب الخليج يتعاطون الأعمال التي تتطلب مهارة ودقة ، ويأتي بعدهم الكوفيون ثم اليونانيون المنتشرون في كل أرجاء الإمبراطورية ، والشرق أوسطيون والهنود ، وهؤلاء يمتازون أيضاً بالمهارة .

وتطورت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الإمبراطورية العباسية ، ولم يعد بوسع القادة والمستشارين التحكم لوحدهم بشؤون البلاد ، فعصر الفتوحات انتهى وأصبحت الدولة بحاجة إلى رجال أعمال ومال أكثر من حاجتها إلى موظفين أو قادة

فيالق . وبدأ الأمراء يعتمدون على التجار وكبار الشخصيات المتنفذة ، حيث كان لوزير المأمون الفضل بن سهل نديم فارسي يتاجر بالذرة ، وكان للمعتصم وزير من كبار تجار الزيتون ، إذ كان والده يجهز القصر ، وهذا ما كان يعد نادراً أيام الخلفاء الأوائل ، وخاصة في زمن هارون حيث كانت الشخصيات التي تلتف حول الخليفة من أصل برجوازي وأرستقراطي .

كما أن الكثير من هؤلاء التجار كانوا من رجال الفكر والدين ، ويلاحظ أن معظم فقهاء ذلك العصر كانوا تجاراً أو أولاد تجار بنسبة أكثر من ٦٠٪ في القرن التاسع الميلادي .

ومنذ بداية الإسلام ، فإن الشرائع الإسلامية تحمي التجار المسلمين ، والضريبة محددة بـ١٠٪ للتجار غير المسلمين من رعايا الدولة العربية و٢,٥٪ للمسلمين .

رجال الدين والقضاة

يحتل العلماء أي رجال الدين موقعاً اجتماعياً رفيعاً ، فهم من طبقة الأعيان ولهم دور أساس في الحياة اليومية لسكان بغداد ، فالكل يتوجه إلى هؤلاء الرجال التقاة الورعين ، بدءا من الأمراء وحتى وسط النساء باعتبارهم مرجعاً دينياً يعتمدون عليهم في كل الظروف والمناسبات .

العلماء عددهم قليل ، أما قراء القرآن فهم كثيرون ، والمفسرون ينتمون إلى مختلف الطوائف والمدارس الفقهية ، وهناك «جامعو» collecteurs أحاديث الرسول ﷺ الذين يدرسون ويحللون كلام النبي المصطفى ﷺ ، والفقهاء يجيبون عن كل الأسئلة التي توجه إليهم سواء كان من قبل القضاة أو الخليفة نفسه .

وهناك أيضاً الخطباء الذين يلقون خطبة الجمعة ، وهم يتمتعون بسلطة واسعة ، وغالباً ما يُعين الخطيب من قبل الخليفة نفسه ، إلى جانب هؤلاء أئمة الجوامع المكلفون بالآذان والأدعية والوعظ والإرشاد اليومي ، وواجب هؤلاء لا يقتصر على التوجيه الديني فقط إنما على التوجيه السياسي أيضاً ، لذلك فإنهم مراقبون عن كثب .

كل هذه الشرائح من رجال الدين الذين يمثلون موقعاً مهماً في العاصمة العباسية ، آخذين بنظر الاعتبار العقيدة الإسلامية التي لم تكن مستقرة في القرون الأولى بعد ، فالمحاولات بين الفقهاء كانت شديدة خاصة وأن المشكلة العلوية لا تزال قائمة بعد .

القضاة ينتمون أيضاً إلى طبقة العلماء ، فهم يحكمون بين الناس أياً كانوا ،

ولذلك فهم يتمتعون بسلطات ومكانة كبيرة . وليس كل رجال القانون يُقبلون بمهمة القضاء ، إذ يعتبرونها مسؤولية كبيرة أمام الله لكي يحكم بالعدل . والبعض منهم يرفض أي أجر ، منطلقين من أن الحكم بين الرعية واجب وليس مهنة ، والكثير من هؤلاء القضاة كانوا يعانون شظف العيش والفقر ، وكان في بغداد شقيقان من القضاة لا يملكان سوى عمامة واحدة وجبة واحدة ، فعندما كان يخرج أحدهم يضطر الآخر إلى البقاء في البيت ، ورئيس قضاة آخر كان يؤثر أن يلبس أخشن اللباس وأرداه على أن يتقاضى درهماً واحداً من الدولة . وقد عرف قضاة معتدون بشخصيتهم واستقلالهم لدرجة أنهم لم ينهضوا أو ينحنوا للخليفة ، سواء في حالة دخولهم عليه أو دخوله عليهم . وفي يوم من الأيام مثل الخليفة المأمون كمواطن عادي أمام القاضي ، واحتراماً له أمر القاضي ، بوسادة له . ويروي الفيلسوف الكندي al kindi أن أحد ممثلي الأميرة زبيدة عوقب من قبل القاضي بعشر جلدات بسبب عدم احترامه قواعد المثول أمام القاضي . كان القضاة يرتدون اللباس الأسود في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وهو شعار الدولة العباسية ، وكانوا يتخذون من الجوامع مقراً لهم ، حيث يجتمع حولهم المترافعون على شكل حلقات ، ولم يكن يقبل الشاهد إلا بعد أن يعرف ويتمتع بسمعة جيدة ، أما الشاهد المجهول فكان يخضع إلى التدقيق . .

وهكذا تخلدت في الإسلام التقاليد التي أرست جذورها في إمبراطوريات الشرق ، هذه التقاليد التي سداها الدين ولحمتها العدالة الاجتماعية لشعوب المنطقة ، وقد تجسدت هذه التقاليد في الدولة العثمانية عندما كانت فتية ، والسلطان سليمان منح لقب «القانوني» لشدة حرصه على تطبيق مبادئ الإسلام والعدالة . .

وإذا ما وضعنا الخلافات الدينية جانباً ، التي كانت تظهر بعض الأحيان بشكل حاد بين المسلمين ، فإن هذه الشعوب القادمة من شتى أنحاء العالم كانت تتعايش بسلام ووئام دون أي تمييز عنصري أو عرقي ، وهذا لا يعني أنهم غير مكترثين بأصلهم ، ولكن مسألة احتقار الإنسان لأخيه الإنسان على أساس العرق أو اللون لم تكن واردة ، وذلك بفضل الإسلام . . وعلى كل حال فإن التمازج الاجتماعي قد بلغ درجة بحيث لا يستطيع أي شخص الادعاء بنقاء أصوله ، حتى الخلفاء أنفسهم هم نتاج هذا التزاوج ، الأمر الذي أبطل كل تفاخر أو تباهٍ بالأهل أو العشيرة ، فالعنصرية شيء غير معروف في الإسلام ، كما أن الحقد على منْ لا يشارك المسلمين دينهم غير معروف أيضاً ، وفي بغداد لم يكن هناك أي فرق بين المسلمين وأصحاب الكتاب . .

المسيحيون في بغداد معظمهم من الطائفة النسطورية ، وهم الذين استقبلوا الخليفة المنصور في ديرهم المسمى «دير العتيق» عندما جاء يخطط لعاصمته المدينة المدورة بغداد .

كان المسيحيون يقيمون في جانب الكرخ حيث كنائسهم وأديرتهم ، وبشكل خاص في منطقة الشماسية التي كانت مكتظة بهم ، أما الزنادقة فكانوا أقل منهم عدداً ، ولكن بشكل عام لم يكن أحد منهم يشعر بقلق ، لا المسيحيون ولا الزنادقة ، وكانت بغداد في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل مركزا مهما لنشر الإنجيل النسطوري نحو آسيا الوسطى .

واليهود هم أيضاً لم يكن لديهم أي مبرر للخوف أو القلق ، وكانوا يزاولون مختلف الحرف والصناعات بالإضافة إلى الزراعة ، ولم يكونوا قلقين من الفتح الإسلامي ولا من الثورة العباسية . على العكس ، فإنهم طوروا وضعهم لأن الساسانيين الزرادشتية قد اضطهدوهم . وحالما انتهى بناء المدينة المدورة أقام رؤساء الطوائف فيها مراكزهم الإدارية والدينية ، وفي عهد الرشيد كان بعض أعضاء هذه الطوائف يلعب دوراً مهماً في الشؤون السياسية والمالية للبلاد .

وكانت المدرسة التلمودية في بغداد تنشر الإشعاع الديني والفكري إلى ما وراء الحدود . كما أن ترجمة التلمود المدون في بابل بث التعاليم الرهبانية إلى جنوب أوربا .

العيش في بغداد

تقول الليلة الثالثة والعشرون من ألف ليلة وليلة :

«هاهي المدينة المشهورة بغداد العيش فيها رغيد والحياة فيها هانئة ومناخها جميل ، شتاؤها معتدل والأزهار تتفتح مع بدء الربيع وسط بساتين النخيل وخرير المياه» .

بغداد تضم كل الناس ، كل الطبقات ، كل المستويات ، بدءاً من أولئك الذين يسكنون القصور الفخمة من شخصيات وتجار إلى أولئك الذين يسكنون الأكواخ والأطلال من حمالين وشحاذين . .

في هذا المناخ في معظم أيام السنة ، فإن معظم الدور تحتضنها حدائق وتتوسطها أحواض تظللها أشجار النخيل والسدر ، وكأنها بمثابة الرئة التي تجدد للدور هواءها . هذا الهواء المعطر بأريج الورد والنرجس وشقائق النعمان والبنفسج والياسمين والياس

والقرنفل والقداح ، وكانت أشجار البرتقال ظهرت تواً منقولة من الهند . البغداديون مولعون بالحدائق كولع الأتراك بالبصل ، إذ استبدلت هذه الحدائق فيما بعد بحقول البصل .

لقد غنى في أمسيات بغداد الساهرة العديد من الشعراء ، ونظمت الدواوين من القصائد عنها في هذه الأماسي التي كان يطيب فيها الغناء والموسيقى والتسلية البريئة . .

أما البيوت فكانت تبنى من الطابوق المجفف بحرارة الشمس أو المفخور بالأفران ، ويوضع بين صفوفها نوع من الطين والقصب على الطريقة القديمة نفسها للبابليين ، وبعد أن يكمل البناء ، يغطى الطابوق من الداخل عادة بالجبس لإضفاء الجمال على البناء ، والموسرون يغطون هذه الجدران بالخزف الصيني أو البلاط ذي الانعكاس المعدني أو بلاط «الكاشاني» من كاشان ، ومنها جاءت كلمة «كاشي» ، على أشكال سداسية ورباعية بألوان زاهية من الأزرق والفيروز الأخضر أو الأصفر .

بهذا الفن المعماري والزخارف الجميلة كانت بغداد قد تحولت إلى مركز لصناعة الخزف اللامع السيراميك ceramique ، وكانت المواد المستخدمة في الزخرفة الجص والمرمر في خطوط وكتابات عربية ورسوم مختلفة ، وتلاحظ هذه الزخارف بشكل خاص في قصور الخلفاء العباسيين في بغداد وسامراء ، كما أن الزخرفة كانت تدخل أيضاً على الأبواب المصنوعة من خشب الأبنوس المطعم بصفائح النحاس والذهب .

سقوف البيوت مسطحة كما هو الحال في كل بلدان الشرق ، في ليالي القيظ ينام الناس على هذه السطوح ، أما السكن العمودي في بغداد فهو ، نادر إذ إن معظم البيوت من طبقة واحدة أو طبقتين على أكثر تقدير .

ولو أردنا ولوج أحد دور المترفين فإنه يبدأ بالدهليز ، وهو ممر مغلف بزخارف جميلة يؤدي إلى فناء الدار ، ويكون عبارة عن ساحة مربعة تطل عليها الغرف المخصصة للضيافة والاستقبال والاستراحة وللرجال . من هذه الساحة تنتقل عبر ممر إلى ساحة ثانية حيث مقر إقامة الحريم ، كما أن هناك قسماً آخر مخصصاً للخدم .

والدار الواحدة يمكن أن تضم أكثر من خمسين غرفة ، معظمها تطل على فناء الدار ، أما الغرف التي تطل على الشارع فإنها مزودة بشبابيك ذات أغطية ، كما أن هناك منافذ صغيرة مخصصة لدخول أشعة الشمس ، وتكون على أشكال دائرية يتراوح قطرها بين ٢٠ و ٥٠ سنتمتراً . وكان للسقاة دور مهم في جلب الماء من دجلة

إلى البيوت على الحمير أو البغال ، بالإضافة إلى السواقي والأنهار التي تخترق المدينة وتزود البيوت بالماء لشتى الأغراض ، وهناك الكثير من البيوت التي تحتوي على آبار تكون عادة مقامة في السرداب أو فناء البيت ، أما الأحواض فلا يخلو منها بيت لأن بناء الحوض فيه أجر والإسلام يشجع على هذا العمل .

أما التهوية والتكييف بالنسبة للبيوت فإن البغداديين استخدموا كل الطرق والوسائل ، وخاصة في الصيف ، فإنهم غالباً ما يقضون القيلولة وقت قيظ الظهيرة في السراديب ، وهذه السراديب تمتاز بتهوية تعتمد على مسالك تسحب الهواء من سطح الدار (البادكير) . وفي حالة عدم وجود السرداب فإن الناس يلجأون إلى طريقة التهوية بالـ «العاقول» أي تغطية الشباك بطبقة من الأشواك وتسليط المياه عليها ، فتسحب الهواء البارد ، بالإضافة إلى ذلك فإنه كان يُستخدم أيضاً المراوح اليدوية ، وهي عبارة عن خرقة معلقة على قضيب مد بشكل أفقي ويضخ عليها الماء وتحرك يدوياً ، أو وضع قطع من الثلج في الفراغ العازل بين ضلعي الجدار ، والأغنياء كانوا يضعون قطع الثلج هذه في باطن القباب التي تعلو القاعات أو البيوت .

أما التدفئة في الشتاء فإنها أسهل ، إذ كان يستخدم الفحم الذي يوضع في المشاعل من فضة أو نحاس ، ورغم قساوة الشتاء فإنه قصير جداً .

أثاث البيوت

اعتادت البيوت على القليل من الأثاث ، الذي غالباً ما يكون مفروشاً على الأرض ، وهذا لا يمنع من وجود أسرة في البيوت وخاصة في البيوت المترفة ، وتروي ألف ليلة وليلة أن إحدى الجواري الفاتنات تقول لسيدها «اصعد ياسيدي على هذا السرير» .

وفي زمن هارون كان السرير يستخدم كتخت ، فهو طويل وعريض يكفي لشخصين ، وفي الليل ينامون على فراش محشو بالقطن أو الريش أو الشعر حسب المستوى المعيشي للشخص .

وكان مقياس الترف والثراء للبيت يقاس بعدد سجاده ونوعيته ، وأحسن النوعيات كان السجاد الأرمني ذا اللون الأحمر والمصنوع من اللباد الناعم ، وهذا النوع من السجاد باهظ الثمن وذو قيمة عالية منذ زمن الأمويين ، وكانت زوجات الرشيد يجلسن على هذا النوع من السجاد مع وسائده . هذا النوع الوحيد اللائق بقصور

وبلاط الخلفاء ، أما سجاد أصفهان ومازندران فكان أيضاً من النوعية الثمينة ، ويوجد منه بكل الألوان والأنواع .

أما السجاد المشهور فهو سجاد الحيرة Hira جنوب العراق ، وهذا السجاد عبارة عن لوحات لرسوم الحيوانات كالطيور والخيول والجمال أو رسم النباتات والأزهار أو الرسوم الهندسية . .

في تلك الفترة لم تعتد البيوت على قطع الأثاث الضخمة ، كخزانات الملابس والأواني والكناتير والدواليب ، وإنما كان يحل محل هذه القطع الكبيرة الصناديق ، سواء للملابس أو للأواني أو للكتب أو للمعادن ، وتكون عادة من الخشب أو من الألياف المضفورة ومن المواد الثمينة ، أما الأحجام فهناك منها من كل الأنواع ، بدءاً من ذلك الذي يستطيع المرء أن ينام فيه إلى ذلك الذي يضعه في جيبه أو في ردائه .

وبالإضافة إلى الصناديق ، فإن الناس كانوا يستخدمون أيضاً الرفوف على الجدران وفي الزوايا ، حيث يضعون حاجاتهم عليها ، أو الذي يستخدم للزينة .

الحمامات

كانت البيوت الخاصة الضخمة فقط هي التي يخصص فيها مكان للحمام ، مزود تقريباً بالعدد نفسها الموجودة في الحمامات العامة . وفي بداية الأمر أثار بناء الحمام جدلاً لكونه غريباً على الإسلام . فالتعاليم الإسلامية توجب الوضوء والغسل بطريقة تختلف عن الحمام . وعلى كل حال ، أخذت الحمامات تنتشر منذ بداية القرن الثامن الميلادي ، حيث أصبحت في زمن هارون موجودة في كل أنحاء المدينة ، وقيل إنها بلغت في بغداد وحدها مابين ١٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠ حمام . وفي القرن العاشر الميلادي أطلق أحد الخلفاء على هذه الحمامات «الدوش اليوناني» . وقد تميز بناء الحمام بالجمالية وبالبساطة المعمارية ، فالبعض منها كانت تكسى بالقير الذي كان يمنحها مظهر المرمر الأسود . ويروي المسعودي أن جدران الحمامات كانت غالباً ما تزين بالطائر الخرافي العنقاء Anqa ، هذا الملاك الشرقي الذي له رأس إنسان ومنقار طائر وأربعة أجنحة من كل جانب .

ومنذ ذلك الزمن بدأ الحمام يلعب دوراً اجتماعياً في البلدان الإسلامية ، وعلى سبيل المثال كان يخصص الحمام يوما للرجال وآخر للنساء ، وفي الحمام تتم اللقاءات وتبادل الأخبار وتحديد المواعيد ، وتناول الفواكه والمرطبات والشاي . ومن جانب آخر

فإن الحمام لا يعد مكانا أميناً ، ويستشهد بذلك ما يقوله السيد محمد سكاره : mohammed sakara

«حمامات ابن موسى مزعجة من حيث روائحها وحرارتها التي لا تطاق ، وعدد السراق فيها بعدد زوارها الذين يضطرون بعض الأحيان لمغادرة الحمام عراة حفاة ، وقد دخلت فيها مثلما دخل محمد ومثلما خرج منها البشر (أحد المتصوفين المشهورين)» .

والحمام هو في الواقع ملحق بالجامع الذي يقع في مركز المدينة ، وفي الجامع يجتمع المؤمنون للاستماع إلى الوعظ وأداء فريضة الصلاة . والثورة العباسية اندلعت باسم الدين على أساس أن الأمويين حرفوا الدين ، ومن هذا المنطلق فإن كل الخلفاء العباسيين من أجل ترسيخ وجودهم ، كان أول عمل يقومون به هو بناء الجامع وأماكن العبادة . ويقدر المؤرخون عدد الجوامع في القرن التاسع الميلادي بـ ٦٠٠٠ جامع ، وأول جامع بني في بغداد من قبل هارون الرشيد كان قد اكتمل بناؤه عام ٨٠٧م في المدينة المدورة ، أي في جانب الكرخ ، ثم شيد جامع آخر في جانب الرصافة عام ٩٠١ م ، وجامع ثالث بني بالقرب من قصر التاج Tadj الجديد .

كانت الجوامع بمثابة مراكز إعلامية للحكومة ، ففي الجامع ومن على المنبر تلقى خطبة الجمعة ، ومن خلالها تنقل توجيهات وتصريحات السلطة إلى العامة . وفي الجامع الكبير ، وخاصة خلال القرون الأولى من العصر العباسي ، كانت تجرى مراسيم البيعة للخليفة الجديد ، كما أن الجوامع الأخرى كان لها أيضاً الدور نفسه ، إذ كانت مكاناً للتجمع ، حيث يلتقي أنصار السلطة ، وغالباً ما تحدث المواجهات بينهم وبين رجال المعارضة . من الجوامع تنطلق الانتفاضات والمظاهرات ، وإمام الجامع تارة مع السلطة وأخرى مع المعارضة ، وغالباً ما يؤدي به الحال ملقياً تحت المنبر .

وهناك ، بالإضافة إلى الجوامع الكبيرة المعروفة ، عدد كبير من الجوامع الصغيرة التي تسمى بالمساجد Masadjid وهي أماكن للصلاة ولرفع الآذان لسكان الحي ، ومساحته تكون صغيرة تكفي للمصلين ضمن ذلك الحي ، ويكون مفتوحاً طيلة النهار لاستقبال المصلين خمس مرات في اليوم .

أما الجامع فهو يعتبر ملجأ للمسافرين والمشردين الذين ليس لهم مأوى . وفي الجامع يصدر القاضي أحكامه ، والعالم يلقي علومه ، ومن حوله المستمعون ، والجميع جلوس على الأرض المفروشة بالسجاد أو البسط ، وفي الجامع أيضاً يتبادلون الأخبار ،

ويستغل اللصوص هذه المناسبات لسرقة أحذية أو معاطف رواد الجامع .

في فناء الجامع يعرض الباعة بضاعتهم ، فهم يبيعون كل شيء من الكتب ، الأطعمة ، المرطبات ، العطور إلى جانب عقد الاجتماعات وأداء الصلاة . وفي المساء تنشط حركة الناس قرب الجامع والمنطقة المحيطة به ، حيث يلتقي الناس من القصاصين والوعاظ والمشعوذين[١] الذين يلعبون دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية للمسلمين بشكل عام .

واستمرت الجوامع على هذا الحال إلى نهاية القرن التاسع الميلادي ، حيث أمر الخلفاء بطرد الباعة من الجوامع والاعتناء بأثاث الجوامع وإنارتها ، فبدأت تنار بالشمعدانات والثريات بالمناسبات بالإضاءة القوية ، وأصبحت مراكز تعكس نفوذ الخليفة .

اللباس

تشكيلات الملابس وأنواعها التي يرتديها البغداديون تعطي الشارع ألواناً زاهية ومنظراً جميلاً من الصعب أن يتخيله المرء اليوم ، فكل طائفة عرقية لها ملابسها الخاصة . فالعرب لهم لباسهم ، والفرس لهم لباسهم ، والأتراك لهم لباسهم ، والعبيد القادمون من ما وراء البحر المتوسط لهم ملابسهم ، واليونانيون لهم ملابسهم ، والسلاف لهم ملابسهم .

بعض قطع الملابس تكاد أن ترتدى من قبل جميع هذه الطوائف ، وعلى سبيل المثال الايزار IZAR وهو قطعة من القماش تغطي الجسم ، وبالنسبة للنساء الرأس أيضاً . وعامة الناس يرتدون المئزر MIZAR وهو يغطي الجسم حتى الركبة .

الفقراء يرتدون رداءً من الصوف اسمه الشملا shamla ويستعمل أيضاً كغطاء ، أما البدو فإنهم يلتحفون بالعباءة aba وهي نوع من الرداء العريض الواسع من الصوف .

واللباس العام للرجال والنساء هو الجلالة jhilala[٢] ونوع من السروال يربط على

---

(١) في بداية عصر الهجرة كان دور القصاصين يكمن في شحذ الحماسة وتعميق الأخلاق والمغالاة في إبهار وتحريك مشاعر الناس من اجل القتال ووعدهم بالجنة ، وكانت السلطة تشجع هؤلاء الوعاظ والمشعوذين .

(٢) المقصود بالجلالة هو الجلابية حسب اعتقادي ، (المترجم) .

الجسم بشريط ، والقميص عادة يتميز بأكمام عريضة تستخدم كجيوب .

أما الرداء (الجبة) فهو لباس عريض بأكمام مفتوحة من الأمام ، وهو الزي الذي يرتديه الخلفاء والأمراء والحاشية في القصر ، وملابس زوجة الخليفة تكون عادة مزينة ومطرزة بالزبرجد والياقوت .

اللون العام لملابس الحاشية وخدم الخليفة هو الأسود ، وهو شعار العباسيين ، ومن يرفض لبس الأسود كأنما يقدم استقالته . أما القضاة ورجال القانون فكانوا يضعون قطعة قماش على الكتفين تتدلى قليلاً إلى الظهر . ولم يكن أي شخص يخرج إلى الشارع حاسر الرأس ، ورفع الغطاء عن الرأس يعتبر إهانة .

وغطاء الرأس الشائع كانت القلنسوة أو الطربوش الذي يُلف عليه من الأسفل شريط من القماش الأسود أو الأخضر بالنسبة للعلويين ، والمزركش بالنسبة لعامة الناس ، يطلق عليه «بالعمامة» .

وقد اختار المنصور قبعة عالية تشبه إلى حد ما جرة ماء طويلة الرقبة ، وربما تكون فارسية المنشأ . وقد أصبحت هذه القبعة ذات العنق الطويل كغطاء لرؤوس القضاة . وبشكل عام كان الناس يلبسون العمامة ، ويقول أحد كتاب ذلك العصر عن العمامة :

«العمامة درع في ساح الوغى وشرف بين الناس ووقاية من تقلبات الجو وهيبة ووقار» .

أما قماش العمامة وطوله ونوعه فإنه يعتمد على إمكانية الشخص الذي يلبسها ، فبعض الأمراء كانوا يزينونها بالياقوت والعقيق .

وفي الصيف يلبس البغداديون الصندل sandales ، وفي الشتاء الجزمة الجلدية ، وهي عريضة لدرجة يمكن أن يوضع فيها سكين ومنديل ، والجواريب نوعاً ما طويلة وهي من الصوف أو القماش الناعم ، والجواريب تعوض بعض الأحيان عن الجيوب إذ يمكن أن يدس فيها كتاب أو محبرة . . في بعض العهود كان غير المسلمين «الذميون» مرغمين على ارتداء ملابس تختلف عن ملابس المسلمين .

وكان هارون الرشيد قد أمر بإعادة العمل بالتعليمات الخاصة بملابس الذمي التي كانت قد أوقف العمل بها لفترة من الزمن ، إلا أن طبيبه الخاص شرح له سلبيات هذه التعليمات وما يمكن أن تثير من مشاكل ، فاقتنع الرشيد برأيه وأوقف العمل بها ثانية . على كل حال فإن غير المسلمين لا يحق لهم حمل السيف . وعندما تخرج نساؤهم إلى الشارع فإن عليهن ارتداء الملابس الصفراء أو الزرقاء مع حذاء أحمر .

وفي أواسط القرن التاسع الميلادي فإن الخليفة المتوكل أجبرهم على وضع القبعات أو العمائم الصفر ولبس الرداء الأصفر عند الخروج إلى الشارع ، وسرعان ما توقف العمل بهذه التعليمات . .

أما نساء الأمراء والطبقة الأرستقراطية فإنهم يلبسون ما يشاؤون من أفخر الثياب وأجمل الحلي ، ضاربين الرقم القياسي في الفخامة والأبهة ، حيث تجد عندهن البدلات والفساتين من كل الأشكال والقمصان الفضفاضة والمطرزة بأكمام وبدون أكمام وهي مطرزة بالأحجار الثمينة ، وفي الشتاء يلبسن الفرو الفاخر ، وكانت مغنيات الخليفة الرشيد يرتدين القميص والسروال الوردي أو الأخضر أو الأحمر .

وكانت الإمبراطورة زبيدة قد أطلقت موضة تزيين الأحذية بالأحجار الكريمة ، أما علية ابنة الخليفة المهدي فإنها ابتكرت المشبك المطلي بالجوهرات للشعر ، تقول علية :

«لقد اخترت واحداً من أجمل عشرة من فساتيني الجديدة ، وبعد أن ارتديته لبست عليه قلادة من اللؤلؤ الثمين ، ثم لبست الأسورة وتزينت بالأنواط وكل جواهري . وقبل الخروج توشحت بعباءة زرقاء من الحرير مطرزة بالذهب ، وتمنطقت بحزام من النسيج المطعم ثم تخمرت بخمار صغير بعد أن كحلت عيني بالكحل» ١٧ .

وهذه نماذج أخرى من نساء ألف ليلة وليلة :

«نور الهدى كانت مرتدية فستاناً من الحرير الأحمر المزين بالطيور المذهبة وعيونها ومنقارها ومخالبها من العقيق والزبرجد» الليلة ٦١١ .

«أما بخصوص زين المواصف Zein Al Mawassif فإنها حالما دخلت بيتها توجهت إلى الحمام لتأخذ دوشاً ، وبعد الحمام اجتمعت من حولها وصيفاتها ، فأخذت كل واحدة منهن تعتني بجزء من جسمها ، فواحدة تزيل ما يمكن إزالته ، وأخرى تدعك مايمكن دعكه . وثالثة تعطر ما يمكن تعطيره ، ورابعة تدلك ما يمكن تدليكه . بعد ذلك ألبسنها فستاناً مطرزاً بالذهب الرقيق ووضعن على رأسها طوقاً من الفضة ليسند إكليلاً من اللؤلؤ على تاج مرصع بالعقيق بحجم بيضة الحمام ، ليمتزج بريقها مع بريق الجوهرات المسترخية على صدرها ، ثم أخذن يضفرن شعرها الأسود الفاحم إلى خمس وعشرين ضفيرة معطرة بعطر المسك والعنبر ، وتدلت خلفها إلى أن مست كعب رجليها» . الليلة ٦٥٦ .

الأطعمة

لم يكن تفاخر الطبقة الأرستقراطية البغدادية وتباهيها منحصرين فقط في اللباس والأثاث والزينة، وإنما كان التفاخر بفن الطهي والطعام الفاخر أكبر، ولم يكن للقيمة الغذائية للطعام أهمية بقدر أهمية أصل الطعام ومنشئه، المهم أن يتكلم الناس في اليوم التالي عن وليمة ذلك التاجر أو ذلك الموظف الكبير. وعندما يقدم المضيف في الوليمة طعاماً غريباً من ابتكار طباخه الخاص، أو أن يحصل هذا الطباخ على وصفة طعام من طباخ إحدى الشخصيات الأجنبية، فإنه بذلك يترك سمعة كبيرة لصاحب الدار تستمر لفترة طويلة. ومن أجل تحديد أنواع الأكلات، فإن ذلك يعتمد على وصفات طعام من إيران ومن بيزنطة، ولاحقاً المطبخ التركي الذي ترك بصماته واضحة على الطعام العربي.

إذن، فإن فن الطهي يشكل جزءاً من تراث المجتمع وحضارته. وهذا الفن كان له دور كبير في الحضارة الرومانية والإغريقية في العصر البيزنطي. ثم تحمس له الساسانيون ومن بعدهم العباسيون منذ بدء حكمهم.

وعندما تطورت التجارة، أخذت تحمل إلى طبقة الأقلية المترفة من المجتمع ما يسرها ويرضيها كفن الطهي.

وراجت كتب فن الطهي في اليونان وفارس وتركيا، وترجمت إلى العربية. ويروي المسعودي ان أحد أباطرة الساسانيين سأل ولده عن رأيه وذوقه وأيهما أحسن:

«أي أكلة ألذ وأي الطيور أجمل، وأي اللحوم أنغم وأي المرطبات أنعش، وأي الحار أحسن وأي الفواكه أطيب، وأي نسيم أرق وأي التوابل للحساء أفضل، وعطر أي الورد أشجى وأي النساء أجمل، وأي خيول السباق أسرع؟»

وتروي لنا ألف ليلة وليلة أن هارون الرشيد أعد عشاءً لضيوفه ذات أمسية «تناول هارون مقلاة ووضعها على النار ثم وضع كمية من الزبدة وانتظرها إلى أن تغلي، في أثناء ذلك أعد سمكة كبيرة وبعد أن نظفها وأزال قشورها وملحها وكساها قليلاً بالطحين وضعها في المقلاة، وبعد أن شويت السمكة من جانبيها، أخرجها ووضعها على غصن كبير من شجرة الموز ثم أحاطها بقطع من الليمون الحامض وحملها إلى الصالة حيث ضيوفه».

وكثير من الشخصيات المرموقة ألفوا كتباً عن فن الطهي كإبراهيم المهدي[١]

(١) قد ابتكر أكلة حملت اسمه (الإبراهيمية).

الأمير الموسيقي والشاعر الذي ارتقى الخلافة ، وكذلك القائد الحارث بن البشير وكثير غيرهم ، ومن ضمنهم المؤرخ المعروف المسعودي بالإضافة إلى وجود كتب كثيرة عن الأغذية ، ككتاب الأغذية للطبيب اليهودي سليمان الإسرائيلي Suleyman- al Israiliوقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية وبقي يستعمل حتى القرن الثامن عشر الميلادي من قبل مدرسة ساليرن Salerne .

كما أن الشعراء كانوا يتغنون بالأكلات اللذيذة والفريدة وسخاء المضيفين ، وقد سخر العلامة صالح بن عبد القدوس في القرن الثامن الميلادي من هؤلاء الشعراء بقوله :

«نحن نعيش بين الحيوانات الضالة التي تبحث عن مرعى و لا تبحث عن العلم ، ولماذا تعيش ، فإذا ما كتبوا عن السمك والخضروات فإنهم يعتقدون بأنهم نالوا مكرمة كبيرة ، ولكن إذا ما أرادوا عرض مواضيع علمية حقيقية فإنها تكون بالنسبة لهم مصدر إزعاج» .

ومصاريف الأطعمة النادرة والجيدة باهظة ، إذ يستعمل لها توابل غالية الثمن لأنها مستوردة من آسيا وجنوب شرق آسيا أو من أفريقيا ، كالفلفل والبهار والكمون والزنجبيل والقرنفل ، كما تستعمل أنواع كثيرة من النباتات العطرية المعروضة في الأسواق المحلية ، كالبقدونس والنعناع والخشخاش والورد وماء الورد والفستق والثوم والبصل والخردل . . . إلخ . وكلما كانت الأكلة غنية بالتوابل كلما كان إعدادها أصعب وأطول وبالتالي ألذ .

وفيما يخص تناول اللحوم ، فإن الدجاج يأتي على رأس قائمة اللحوم المستهلكة وخاصة في الأوساط المترفة ، والدجاجة تخضع لتحضيرات دقيقة .

وهناك كتاب أُلف في العصر الأموي اسمه «وصل الحبيب» يتضمن ٤٧ طريقة لتحضير الدجاج : دجاج بالفستق ، ودجاج بمربى الورد ، ودجاج بالبقدونس ، ودجاج بالنارنج ، ودجاج بالبرتقال ، ودجاج بالتوت . . .إلخ . وبشكل عام فإن الدجاج ينقع ليلة كاملة ثم يغلى ويقطع إلى قطع ، بعد ذلك يقلى بزيت السمسم ، هذا بالإضافة إلى تربية الدجاج في الأرياف القريبة من بغداد وحتى في بغداد نفسها للحصول على البيض الطازج .

بعد الدجاج تأتي لحوم الماعز والبقر والضأن والخروف ، ولحم الخروف يوصي به الأطباء للذين يظهرون تحفظهم على لحم البقر لكونه جافاً ، ولكنهم ينصحون بتربية

الماشية من أجل حليبها .
وطريقة إعداد اللحم تتم بواسطة غسله بالماء الحار وثم إكسائه بالزيت لإعادة الطراوة له قبل طهيه . . والبغداديون يستهلكون كثيراً من السمك الكبار (البز) طازجاً أو مملحاً . أما السمك الصغار فإنه يترك للفقراء من عامة الناس ، وطريقة إعداده تعتمد على القلي أو استعماله مع الخل أو الحساء . .
يقول المثل (مائدة بلا خضروات كشيخ من دون حكمة) ومثل آخر يقول (الخضروات زينة المائدة) ، كانت البقوليات تستعمل كثيراً كالحمص والفاصولياء والباقلاء ويعد منها حساء جيد ، أما طريقة إعدادها فإنها تسلق بعد أن يضاف إليها الملح وتقدم مع زيت السمسم أو اللوز ، وبعض الأحيان مع مسحوق الخبز المحمص . بعد ذلك يأتي الباذنجان الذي يدخل في الكثير من الأكلات ، فهو مخلل تارة ومدمس أخرى ، وثالثة مشوي مع اللبن ، ورابعة مقلي أو مع الحساء . . . الخ .
وكان بعض المترفين يتحاشون تناول الفجل والكراث بسبب روائحهما ، في حين يدسون البصل والثوم في طعامهم .
أما الحلوى فإنها تحتل موقعا مهما من المائدة ، ويقول المثل (المؤمنون حلويون) والشرق منذ الأزل هو بلاد الحلوى والسكريات ، سواء عند الفقراء أو عند الأغنياء ، ومعظم الحلوى يدخل في إعدادها اللوز والسكر والراشي والحليب والعصير المعطر بماء الورد والمسك والقرنفل .
وكانت زراعة قصب السكر قد انتشرت في الشرق الأوسط قبل الهجرة . أما السكر الذي كان يستهلكه البغداديون فكان يأتيهم من خوزستان khuzistan ، وكان الرشيد يستلم منه سنوياً الآف الأطنان كضرائب ، أما أصفهان فقد كانت ترسل له العسل الأبيض .
كان التزويق والتلوين في الطعام أمراً مهماً في نوعية الطعام ، إذ كان يستعمل الزعفران على نطاق واسع من أجل إضفاء اللون المذهب . وقد جرت العادة أن تقدم أنواع كثيرة من الطعام خلال الوجبة الواحدة حتى لو كان عدد الضيوف قليلاً .
ويروى أن المغني المشهور إسحق بن إبراهيم قدم وجبة كانت تشتمل على ثلاثين نوعا من لحوم الطير معدة بطرق مختلفة ، سوى أنواع الحلويات الساخنة والباردة والفواكه الطازجة والمجففة لضيوف لا يتعدى عددهم الثلاثة .
الطباخون ذوو الشهرة كانوا عملة نادرة ، وكانوا يشترونهم مقابل الذهب في سوق

النخاسين ، وكانت الوصيفات أي النساء الزنجيات هن المفضلات للطبخ وخاصة أولئك اللواتي يتمتعن بمهارة الطبخ .

والهنود يتمتعون بشهرة واسعة في فن الطهي ، إذ يقول الجاحظ ليس هناك طباخون أحسن من أهل السند .

آداب المائدة

وآداب المائدة تبدأ من بطاقة الدعوة ، وهذا النص نموذج للأسلوب الذي كان مستعملاً آنذاك .

«بوجودكم سيروق لنا كل شيء ، يتفتح النرجس ، والذرى تقبل أوراق البنفسج ، ويفوح أريج القداح ويصدح العود وتطيب الكؤوس ونجوم الأنس تتلألأ في رحاب السماء ذات اللون العنبري ، والذي نفسي بيده فإن حضوركم سيحول هذا المكان إلى جنان الخلد وستكون كالعقد في قلادة اللؤلؤ» .

وقبل المائدة يتقدم أحد الخدم ليسكب الماء على أيدي الضيوف مبتدئاً بصاحب الدعوة أو رب المنزل .

«تقدم لهم الوصيفة حوضاً وإبريقاً من الذهب مليئاً بماء معطر لغسل الأيدي ، ثم تقدم بعد ذلك إبريقاً جميلاً مطعماً بالياقوت والزبرجد ومليئاً بماء الورد ، وتسكب في ايديهم ليعطروا به وجوههم ولحاهم : ثم تحمل إليهم عطر العنبر في قارورة من الذهب ليعطروا به ملابسهم .» الليلة ١٥٢ .

صاحب المضيف أو أكبر الضيوف سناً هو الذي يبدأ بالطعام ، ويحمل الطعام طبقاً بعد طبق أو توضع جميع أنواعها وأصنافها دفعة واحدة على بساط من قماش أو من الخوص أو من الجلد . وعند العوائل الميسورة توضع على المائدة وهي منضدة مستديرة وواطئة من الخشب ، وبعض الأحيان المطعم بالأبنوس والخزف والعاج ، وتكون المائدة أيضاً عبارة عن طبق كبير يوضع على الأرض أو على مساند ويأكلون جلوساً ، أما مناضد الكتابة أو المكاتب فلا يؤكل عليها .

ورغم استعمال اليدين في تناول الطعام فإنهم يستخدمون السكاكين والملاعق أيضاً . ومن آداب المائدة عدم تناول الطعام بنهم وعدم تلويث اليدين بالسمن ، والمرق ، وإخراج العصب من العظم أو احتكار الكبد وكلية الدجاجة أو المخ ، لأنها تُعد من أحسن اللحوم ، وتجنب لحس الأصابع أو ملء الفم بالطعام ، أو التفرد

باستعمال الملح أو التوابل أو استعمال السواك أمام الضيوف .

الخمر لا يتناول مطلقاً على المائدة بل يتناولون الماء أو العصير المثلج والمعطر بالمسك وماء الورد ، في الصيف يعتبر الماء المثلج من وسائل الترف ويعد النبيذ شراب الليل ، وفي مجمع الأنس والطرب ، وبعض الأحيان يتناولون منه كثيراً حتى طلوع الشمس .

والجلسات عادة ما تكون منحصرة في عدد قليل من الأشخاص المقربين (ثلاثة ندماء بالاضافة إلى صاحب الدار ، والموسيقى جيدة) وإذا ارتفع العدد إلى ٦ فإنه اللغط وأقل من خمسة فإنها الوحشة ، وأكثر منها كأنك في السوق .

الأعياد

في بغداد كما في كل مدن الشرق الإسلامية ، فإن أية مناسبة سواء كانت دينية أو وطنية تستغل ليحتفل جميع الناس ، فتسامح الدين الإسلامي بهذا الصدد كبير ، فالبغداديون لا يحتفلون بأعياد المسلمين فقط وإنما أيضاً يشاركون الطوائف الأخرى أعيادها ، حيث التعايش فيما بينهم على أحسن وجه .

أهم أعياد المسلمين هو عيد الفطر (العيد الصغير) ، وهو في آخر شهر رمضان ، وعيد الأضحى (أو العيد الكبير) ويسمى أيضاً عيد الضحية . في شهر رمضان كل المسلمين ، بمن فيهم غير المتدينين ، يحترمون حرمة رمضان خلال النهار إذ يمتنعون عن الطعام والشراب حتى في أيام القيظ الحارة . وبعد انتهاء شهر الصيام يستقبل الناس العيد بالبشر والفرح ، ويستعدون لاستقباله قبل أيام : في العيد يتجمع الصبيان في الشارع لشراء الحلوى والألعاب ، والعوائل تعد الأطعمة الخاصة وتشتري لأبنائها الملابس الجديدة . وعلى الصعيد الرسمي فإن الاحتفالات تبدأ منذ الصباح الباكر بصلاة العيد ، حيث يتوجه موكب الخليفة إلى الجامع وهو يلبس بردة النبي ﷺ ويصلي بالناس ، وبعد انتهاء مراسيم صلاة العيد يتبادلون التهاني ويتعانقون ، ثم يتبادلون الزيارات . ويستمر العيد لمدة ثلاثة أيام كلٌ يحتفل حسب إمكانياته وطريقته . وعلى مدى الأيام الثلاثة تضاء القصور والمراسي على دجلة ، وتتلألأ بغداد وكأنها «عروس في كامل حلتها» .

أما عيد الأضحى : فإنه يبدأ مع أول يوم يصل فيه الحجاج إلى منى mina ، حيث يرمون الحصى على صخرة تمثل الشيطان لإبعاد الأرواح الشريرة ، ثم ينحرون

خروفاً أو ناقة ، هذا العيد الذي يستمر أربعة أيام تنحر خلالها آلاف الخراف في بغداد . أما الخليفة فإنه يحضر مراسيم نحر الخراف في إحدى ساحات القصر ، ثم يرسل اللحوم إلى الناس المستحقين . وقد جرت العادة على تبادل الهدايا وإقامة الولائم في مثل هذه المناسبات التي يشبعون خلالها من لحوم الخراف .

وهناك أعياد أخرى عند المسلمين ولكنها مقتصرة على الشيعة ، حيث إنهم يحتفلون بميلاد الزهراء والأئمة من أولاد الإمام علي (ع) ، أما ميلاد المصطفى فيحتفل به كل المسلمين شيعة وسنة . أما المناسبات الاجتماعية لدى العائلة الحاكمة من زواج وميلاد وختان تحتفل بها كل الرعية ، إذ يزين الناس من شيعة وسنة ومسلمين ومسيحين أو يهود بيوتهم ودكاكينهم ومحلاتهم ، حيث يوزع الخليفة عليهم بهذه المناسبة الكثير من المال . . وفي هذه المناسبات لا يبخل الشعراء في قصائدهم . .

وعلى سبيل المثال ، فإن الاحتفالات ومظاهر البهجة والفرح قد تصل إلى حد المبالغة عند إعلان ختان أحد الأمراء ، فالخليفة المقتدر Al- muqtadir أقام حفل ختان لخمسة من أولاده في يوم واحد ، وقد كلفه هذا الاحتفال (٦٠٠٠٠٠) ستمائة ألف دينار ، وبهذه المناسبة يدعو الخلفاء الأيتام وأولاد الفقراء ليختنوا مع أولادهم ، ويغدقون عليهم وعلى أولياء أمورهم الهدايا والإكراميات ، وفي حفل ختان أولاد المقتدر مئات من أولاد الفقراء ختنوا .

ومن الاحتفالات الأخرى ، عودة الخليفة إلى بغداد منتصراً على أعدائه الكفرة أو المرتدين ، أو عند اعتلاء خليفة جديد العرش . وبهذه المناسبة تزين المدينة بكاملها ، أو عندما يختم أحد أولاد الخليفة قراءة القرآن . في كل هذه المناسبات يوزع الخليفة رداء الشرف ويغدق على ضيوفه الجواهر من اللؤلؤ والماس والذهب ويعتق عبيده . فالخليفة المهدي أعتق (٥٠٠) عبد ، ووزع الصدقات بمناسبة ختم الرشيد القرآن ، ونظم الشعراء القريض ونالوا تكريماً ، أما الشعب فهو يحتفل على طريقته الخاصة سواء بإضاءة المشاعل أو بوسائل الزينة الأخرى .

وفي التقويم الأجنبي فإن عيد نوروز Naurouz يعتبر من الأعياد التي يحتفل بها ، ويبدأ هذا العيد مع أول أيام الربيع في إيران وفي بغداد ، حيث يحتفل به بالدرجة الأولى المواطنون من التبعية الفارسية . وقد أدخل هذا العيد من قبل القوات التي حملت العباسيين إلى السلطة . . في هذا العيد يستيقظ الناس مبكرين

ويتوجهون إلى الآبار والأنهار ليتباركوا بالماء . النساء يعددن الحلوى الخاصة (الكليجة) kleacha وهي عجينة صغيرة محشوة باللوز والجوز والسكر . وفي هذا العيد يتبادلون الهدايا ، ويستقبل الخليفة العديد من الناس من كل الطبقات الاجتماعية . وتستمر قصور الخليفة والأمراء والنبلاء والشخصيات مضاءة بالزيت المعطر ومفعمة بالبخور الجيد خلال ستة أيام . .

وإن كان نوروز يعلن بدء الربيع فإن عيد مهراج Mihraj يعلن الشتاء ، ففي هذه المناسبة تقرع الطبول وتضاء البيوت وتتبادل الهدايا وتقدم إلى الخليفة الهدايا الثمينة . وأخيراً فإن عيد الصدر الفارسي المنشأ يحتفل به بواسطة المشاعل وأنوار الزينة . . . والجماهير تتسارع إلى ضفاف دجلة ، حيث مراسي الأمراء والوزراء مزينة ومنورة . أما البيوت فإنها تعطر بالبخور[١] وتوزع المشروبات وتدور حلقات الرقص والغناء حول المشاعل . .

يحتفل المسلمون في بغداد بأعياد المسيحيين بالدرجة والبهجة نفسيهما اللتين يحتفلون بهما بأعيادهم دون الاهتمام بمعانيها التي تحملها بشكل عام ، المهم مشاركة جيرانهم المسيحيين متعة العيد ، وهناك في بغداد العديد من الأديرة النسطورية حيث تكثر عندهم مراسيم الأعياد في ذكرى ميلاد القديسين ، وليس هناك أي مانع لمن يريد الانضمام اليهم ، وتكون الأديرة عادة واسعة وكبيرة ومحاطة بحدائق غناء وتستوعب أعداداً غفيرة من المحتفلين ، حيث الرقص والغناء وشرب الخمر ، ويقول أحد المؤرخين «ليس أحسن من مقاومة القس في اليوم المطهر» .

في عيد الفصح ، مسلمون ومسيحيون يفدون أفواجاً للدير الأرمني سامالو samalu ، وهو بناء شامخ يقع في شمال شرق المدينة وسط حدائق واسعة ، ويروي الشابشتي shabushti بأن الناس في هذا اليوم يحتفلون ويرقصون «حتى تتراءى لهم الجدران ترقص والأرض تصغر من تحت أقدامهم» ، وفي آخر سبت من شهر أيلول يذهب الناس إلى دير الثعالبة Renards ، وهذا الدير هو الآخر محاط بالرياض والغابات . وفي ٣ تشرين أول يذهبون إلى أشمانا Ashmana بالزوارق وهم يحملون قوارير النبيذ ويصطحبون معهم المطربات ، ويحتفلون في هذا الدير ثلاثة أيام متتالية

---

(١) يعتقد البعض بان البخور يطرد الأرواح الشريرة ، والبعض الآخر يعتقد أن البخور يطرد الروائح النتنة ويريح الإنسان بعطره .

تحت الخيام بصحبة النبيذ والوجه الحسن .

وفي أول يوم أحد من أيام الصيام لدى المسيحيين ينضم إليهم المسلمون في دير عقبرا ukbara . وعقبرا هي قرية معروفة بجودة نبيذها ، حيث يشربون فيها ، يرقصون ويلهون رجالاً ونساءً . . وفي الأحد الرابع يحتفلون من جديد ولمدة عدة أيام عند رهبان قرية ديرماليس ، وحتى بلاط الخليفة يحتفل بهذا العيد حيث الوصيفات يُغنين وهن يحملن سعف النخيل وأغصان الزيتون .

كما ويُحتفل أيضاً بعيد القديسة بربارة Barbara في ٤ كانون أول ، وبعد عدة أسابيع يحتفلون بعيد الميلاد Noel ، وفي هذا العيد تستخدم الألعاب النارية وتوزع الحلوى والكرزات وخاصة الجوز «لأن الجوزكان يعطى لمريم العذراء (ع) في أثناء المخاض لإحمائها ، حيث أوقد يوسف ناراً وكسر تسع جوزات كان قد وجدها في سرجه وأطعمها لمريم» .

الألعاب

تبارك الملائكة ثلاثة ألعاب : لعب الرجل مع المرأة ، وسباق الخيل ، ومباراة رمي السهام .

للبغدادين ولع كبير بالألعاب وهم يمارسونها في بيوتهم ونواديهم للتسلية أو في بعض الأحيان في المقامرة التي حرمها القرآن الكريم .

ولعل لعبة سباق الخيل والبولو polo تحتلان القسط الأوفر من هذه الألعاب ، ففي عهد هارون كان سباق الخيل يقام في ساحة خاصة كان قد بناها والده المهدي وكانت تستخدم في التدريب العسكري ، ثم افتتحت ساحات أخرى لسباق الخيل كان البعض منها داخل أسوار قصور الخليفة أو الأمراء ، وكانت هذه الساحات مجهزة بالحمامات والشقق وصالات الطعام . . . إلخ . فالخيل كانت ولا تزال تحتل مكانة مهمة عند العرب ، وينسب إليها أصول خارقة ، فالبراق al Barak فرس النبي ﷺ زار القدس وعرج إلى السماء .

والجواد العربي من منشأ حديث نسبياً لأن أجناسها تقف عند القرنين السابع والثامن الميلاديين في أثناء تزاوج الخيول اليمنية و السورية والخزرية .

ومن جهة أخرى ، فالنبي محمد ﷺ كان يشجع سباق الخيل ، وكان يشتري الخيول ويحضر السباق في المدينة المنورة . وكان ﷺ يشجع الرياضة والمبارزة ورمي

السهام ، وكل ذلك يدخل في باب «الجهاد» .

وبالإضافة إلى الخيول ، فإنه كانت هناك سباقات أخرى تقام للكلاب والبغال والجمال والحمير ويجري عليها الرهان ، كما أن هناك سباقات للحمام . وكان الرشيد مولعاً جداً بهذه اللعبة ، التي سببت مشاكل اجتماعية كبيرة ، حيث كان البعض ينفق أموالاً طائلة من أجل شراء حمامة سباق واحدة أو الرهان عليها رغم تحريم الدين لهذا النوع من الرهان ، حيث يعتبر «قماراً» . وقد بلغ سعر الحمامة الواحدة من هذا النوع (٥٠٠) دينار وسعر بيضتها ديناراً واحداً .

كان تدريب الحيوانات وترويضها على السباق يكلف ثمناً باهظاً ، ويتطلب صبراً ، وفي الوقت نفسه يحقق أرباحاً كثيرة . وحسبما يروي الجاحظ ، فإن واردات حمامة كان يساوي واردات حقل زراعي بأكمله . وكان هارون الرشيد من الخلفاء المولعين جداً بسباق الحمام ، وكان لا يتردد في حضور هذه «المسابقات» كباقي الهواة الذين يحملون معهم الحبوب لإطعام هذه الطيور .

ومن الألعاب المسلية والمفضلة في ذلك الوقت «رمي السهام» ، ورياضة إصابة الأهداف ، وتدخل أيضاً ضمن تدريبات الحرب ، ويراهن على هذه المسابقات التي تقام في فصل الخريف ويحضرها الجمهور ، وبشكل خاص عندما يدخل السباق رماة مشهورون ومعروفون ، وهناك أيضاً رياضة إصابة الأهداف المتحركة أو عدم تثبيت الهداف نفسه ، أي يمنع من تحريك قدميه . كما إن سباقات رمي القنابر هي الأخرى تجلب الجمهور ، وكان قد استعمل أو ظهر هذا السلاح منذ العصر الأموي الأول لإصابة الأهداف البعيدة .

وهناك رياضة شعبية أخرى وهي المصارعة ، وغالباً ما يحضرها الخلفاء أنفسهم ويشجعونها ، فقد كان الأمين يحضر هذه المنازلة ويكرم الفائز . وبعض الخلفاء كانوا مصارعين . وتؤكد الروايات أن المعتضد أراد في نهاية القرن التاسع الميلادي أن يستعرض عضلاته من خلال منازلة أسد ، واستطاع أن يقتله بضربتين من سيفه . وفي كل الطبقات الاجتماعية تمارس لعبة رفع الأثقال ، فالمعتصم بن هارون الذي خلف المأمون رفع ثقلاً وزنه أكثر من (٣٠٠) كيلو غرام ، هذا بالإضافة إلى كل أنواع الرياضة الأخرى كالسباحة والمشي والركض ... إلخ .

الفصل الثامن

المعجزة الاقتصادية

«مارس المسلمون تفوقاً اقتصادياً لا خلاف عليه على الشرق وعلى الغرب منذ القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر الميلاديين»

M. Lombard

«اشتريت البضائع السهلة التصريف والأكيدة الربح، وسافرت بها، وأبحرنا خلال عدة أيام من جزيرة إلى جزيرة ومن بحر إلى بحر».

(السندباد البحري)

وهكذا ، أصبحت الإمبراطورية العباسية أقوى دولة لا يستطيع أي عدو أن يهددها ، لا بل حتى أن ينال من سيادتها ، وحدة اقتصادية لا مثيل لها في ازدهارها في كل العالم .

ومنذ العهود الغابرة ، كانت الأقوام والشعوب تتبادل السلع ، فرس وبيزنطيون ومصريون وسوريون وشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط كانت تتبادل العطور ووسائل الترف . ولكن لم يكن هناك شيء مشترك بين هذه الأقوام التي اجتاحها الفتح الإسلامي ووسعت رقعتها الإمبراطورية العباسية سوى اللغة المشتركة «العربية» ، والدين المشترك «الإسلام» الذي منح الجميع الحقوق والامتيازات والواجبات نفسها ، وسُهلت العلاقات والتبادل داخل الإمبراطورية وكانت حاجيات المجتمع في ازدياد مطرد مما دفع التجار المحترفين والمستثمرين لتوظيف رؤوس أموال كبيرة وشجعت حركة السلع الأجنبية . . . .

هذا التوجه نحو التجارة ، بفضل الاقتصاد المزدهر للإمبراطورية ، يضاف إلى ذلك وصول عدد هائل من العبيد وتطوير ظروف الحياة ، كل ذلك أدى إلى توسع جغرافي وسكاني حثيث ، فتوسعت المدن وازداد الاستهلاك ، وتوجهت كل أنظار العالم إلى بغداد ، وكأن الأرض كلها تدور حسب وقت بغداد .

ازدياد سكان الريف

كان ٨٠٪ من سكان الإمبراطورية العباسية يعيشون في الريف ويعملون في حراثة الأرض . وفي الواقع فإن الشرقين الأدنى والأوسط لا يتميزان بالصحارى فقط ، فهذه مصر مستودع حبوب العالم القديم ، وهذا وادي الرافدين بواحاته الشاسعة والخصبة ، وتلك سوريا(بلاد الشام) بسهولها ووديانها . ومن الناحية الأخرى إيران(بلاد فارس) التي تحتضنها جبال وسهول ووديان خضراء ، ترويها مياه الينابيع والأمطار والأنهار . إذن ، هناك مئات الآلاف من الهكتارات المروية دياً ولاسيما التي تغذي بمحاصيلها الشرقين الأدنى والأوسط .

أما البناء فإنه لم يتغير في هذه المنطقة ، فالبيوت عادة من القصب وسعف النخيل ، كما هو الحال في وادي الرافدين ومن الحجر في بعض مناطق خراسان وسوريا ، ومن الخشب في مناطق الغابات في جنوب الخزر ، ومعظم هذه البيوت من طبقة واحدة .

وغالباً ما يكون الإسطبل والمستودعات في الطبقة الأرضية ، والسكن في هذه البيوت مختلط ، والأرضية من الطابوق الفرشي . ونادراً ما تكون البيوت منعزلة ، وتكاد تكون كل القرى محاطة بأسوار لمنع اللصوص وقطاع الطرق والحيوانات المفترسة من الهجوم على القرية .

وعلى عكس الحياة الفلاحية في دول الغرب في القرون الوسطى ، فإن هذه الحياة في البلدان العربية كانت متحررة من القيود ، فالفلاح العربي لم يكن عبداً على الأقل من حيث المبدأ ، ورغم أن العديد من النصوص تتكلم عن «الفلاحين الهاربين» الذين يهربون من الحياة ، ومعنى ذلك أنه كانت هناك نسبة كبيرة من السكان الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة . وتفسير ذلك أن الفلاح كان يهرب من الضريبة أو ينتقل تحت وصاية أحد الأغنياء من القرية الذي يتدخل بينه وبين الجابي لقاء إتاوة ، وقد يتضاعف مبلغ الجباية إلى الدرجة التي يضطر فيها الفلاح للتنازل عن أرضه ، أو أن الأرض تصادر مقابل أجور الضريبة أو من قبل كبار الملاكين .

وضع الفلاح هذا وتهربه من الضرائب وخضوعه لكبار الملاكين ، أدى إلى الزوال التدريجي للملكيات الصغيرة لحساب كبار الملاكين ، وفي الواقع فإن هذه الحالة برزت قبل الفتح العربي وتفاقمت بعد الفتح ، وتسببت في هزات اجتماعية خطيرة ، فالفلاح الذي يقيم في أرضه ويصلحها يستبدل بالملاك الكبير الذي يقيم في المدينة ، وهو لا يفكر سوى بالإتاوات التي يستحصلها له وكيله «السركال» .

وقد بدأت الملكيات الكبيرة تتطور وتتوسع منذ عهد هارون الرشيد كنتيجة لسياسة الضرائب التي انتهجها البرامكة ، واتساع ممتلكات الخليفة وعائلته وتزايدها في كل المجالات .

فالخيزران كانت تملك أحياء بكاملها في بغداد ، وقرى عديدة وعقارات كانت تستثمرها ، ولم تتوقف عن توسيع هذه الممتلكات خاصة في مصر ووادي الرافدين . كما أن كل الأمراء والأميرات العباسيين كانوا من كبار الإقطاعيين ، وكانت الشخصيات الكبيرة تحذو حذوهم .

وتطورت هذه الحالة الاجتماعية في القرن الذي تلا هارون لكي تستولي الأرستقراطية العسكرية على الأرض ، ليس على حساب صغار الفلاحين وحسب وإنما نال هذه المرة الطبقة الوسطى من الملاكين ، وبشكل خاص في إيران(بلاد فارس) . هذا التحول في الملكية لم يؤخر أو يعرقل الإنتاج الزراعي ، وإنما على العكس

زاد منه . كما انتعش الرعاة الذين ساهموا في ازدهار الاقتصاد الحيواني دون أن يؤثر ذلك على الزراعة . . .

وما من شك فإن الثروة الأولى والأساسية تكمن في زراعة الأرض ، في وقت كانت فيه أوربا تتجه نحو الريف ، بينما كان العالم العربي والإسلامي يشهد مدنية متطورة ، حيث التجارة والزراعة يسيران جنباً إلى جنب . فالزراعة يستفاد منها في تطوير إمكانيات المراكز المدنية ، التي بدورها تتزود من الزراعة بمستلزمات الإنتاج الصناعي والحرفي .

ومن المعلوم ، فإن المادة الأساسية في الغذاء لدى الشرقيين تعتمد على الخبز الأبيض ، على عكس الغرب الذين يستهلكون القليل من هذا الخبز عدا الفقراء والمتزهدين .

وقد انتشرت زراعة القمح منذ العصور السحيقة ، وكذلك الشعير الذي يستعمل كعلف للحيوانات ، وقد تميز شمال وادي الرافدين بزراعة القمح ووادي دجلة بالشعير ، كما اشتهرت مصر وبشكل خاص في الفيوم ، كذلك الحال في سوريا (بلاد الشام) وأفريقيا ووسط المغرب بزراعة القمح . .

اما الرز الذي كان يُجلب من الهند ، فانتشرت زراعته في العراق بعد الفتح العربي باتجاه جنوب البحر الأبيض المتوسط . وفي الواقع فاستهلاك الرز في العراق أدخل من قبل الفرس ، ثم انتشرت زراعته فيما بعد في الفيوم وفي مناطق البحر الميت ، ثم إلى الأندلس في إسبانيا المسلمة .

زراعة الكروم

بالرغم من تحريم تناول الخمور بموجب القرآن الكريم ، فإن ذلك لم يؤد إلى قلع الكروم ، وعبثاً حاول بعض الخلفاء تحريم زراعتها .

لقد اشتهرت زراعة الكروم بعد الفتح الإسلامي في دلتا النيل وفي سورية (بلاد الشام) ووادي الرافدين وفي شمال فلسطين وجنوب إسبانيا ، حيث انتشرت في مالاكا وخاصة النوع العجمي المستورد من شيراز . أما النخيل فإنه نقل من جنوب العراق وانتشر بعد الفتح العربي في جنوب سوريا وقبرص والصحراء الغربية وجنوب الجزائر وتونس . ومن المزروعات المهمة التي أدخلت قصب السكر الذي نقل عبر سويزيان Suisiane وخوزستان ثم وصل إلى وادي الرافدين حتى بلغ مصر ، حيث أصبحت مركز

إنتاجه واستهلاكه في البحر الأبيض المتوسط ، ثم انتقلت زراعته إلى قبرص .

ثم اتجه العرب إلى زراعة فواكه وخضر أخرى ، انتقلت سريعاً إلى البحر الأبيض المتوسط ، كالبرتقال (الأصل من الهند) في قبرص والمغرب وإسبانيا ، ولا سيما الموز والنومي حامض والسبانغ .

ثم أخذت زراعة المحاصيل الصناعية بالنمو ، وجاء على رأسها القطن وهو بالأصل من الهند (ومن هناك أدخل إلى الشرق الأوسط عبر تركستان عن طريق الساسانيين) كما يزرع القطن في إيران وفي جنوب العراق ، وبشكل خاص في سوريا وفلسطين ومنطقة حلب ، التي زودت به فيما بعد مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط .

أما في مصر ، فقد عرفت زراعة القطن في القرن التاسع الميلادي ، وانتشرت هذه الزراعة في جميع أرجاء مصر حتى أنها اشتهرت بزراعته . أما المنسوجات الرئيسية في مصر فهي الصوف ، وصناعته قديمة جداً تعود إلى العصور الفرعونية ، كما تؤكد الاكتشافات الأثارية .

كان الكتان يستعمل بشكل واسع في صناعة الملابس كالمعاطف وأشرعة السفن والحبال ، وهو يزرع في آسيا الوسطى وفي جنوب البحر الأبيض المتوسط وفي إسبانيا .

أما وبر البعير فإنه يستعمل بشكل خاص في صناعة اللباد (وسط آسيا وأرمينيا) والأقمشة الشتوية في خراسان ومصر .

وفي مجال النسيج فإن الصوف يحتل ، منذ غابر العصور ، المكانة الأولى . والدول الإسلامية كانت ولا تزال تمثل الصدارة في إنتاجه ، وعلى رأسها دول شمال أفريقيا . . .

وكانت هضبة المغرب وسلاسل جبال الأطلس وسواحل المحيط الأطلسي أحسن أماكن الرعي ، حيث تتمتع خراف تلك المناطق بأحسن أنواع الصوف من حيث الغزارة والجودة ، وكان الحرير يروج في إسبانيا . وجرت العادة أن يناط رعي قطعان القرى لراع واحد . وهذا أدى إلى تحسين نوعية الماشية من خلال تزاوج عدة أنواع ، حيث ظهرت في ذلك الوقت أصواف المرنيوس الإسبانية ، والناتجة من تزاوج هذه الخراف المنقولة من المغرب .

كما أخذت حاجة المدن للنسيج تتزايد ، وهذا التزايد أدى إلى تصاعد الإنتاج وبالتالي تنشيط التجارة . فالقطعان أخذت تتكاثر في كل مكان ، وأخذت تربية

المواشي تنتشر على صعيد واسع في مصر وسوريا وفلسطين ، وفي شمال غرب إيران وفارس وخراسان . وانتشار صناعة المنسوجات الصوفية كان له بعض الأحيان أثر سلبي في الإكثار من عمليات جز الصوف .

الحرير

لقد عرف العرب الحرير منذ فترة طويلة ، إلا أنه لم ينتقل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط إلا بعد القرن السادس الميلادي ، ولعل هذه الطريقة التي تروى عن الرهبان ، الذين كانوا يجلبون معهم في جعبتهم بعض الحرير ، خير دليل على قدم العرب في صناعة الحرير . ومنذ الفتح العربي ، فإن المناخ قد ساعد على تربية دودة القز في كل المناطق ، كما أن التوسع الاقتصادي وازدهار المدن شجع على تطور هذا النشاط الذي لم يكد يلبي إنتاجه الحاجات المتزايدة لبلاط الرشيد . ومنذ القرن الثامن الميلادي ، فإن خراسان وسواحل بحر قزوين ومناطق غربي إيران وأرمينيا كانت تعد من أهم مناطق تربية دودة القز . وصناعة الحرير انتقلت إلى إسبانيا وخاصة بلاد الأندلس عن طريق الأمويين الذين هربوا من سوريا .

وفي نهاية القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، ساعد انتشار تربية دودة القز وصناعة الحرير في سد حاجات كل الإمبراطورية ، وأخذوا يصدرون منه كميات كبيرة إلى الإمبراطورية البيزنطية ، التي كانت تعتمد كلياً على الدول الإسلامية في حاجتها للحرير .

ولو شئنا مقارنة المردود الزراعي في تلك الفترة بين الإمبراطورية العباسية وأوربا الغربية ، لوجدنا أن الإمبراطورية تتفوق كثيراً مقابل أوربا . ولعل الأرقام خير دليل على ذلك .

الحنطة بنسبة ١٠/١ بين أوربا ومصر (بل أكثر في بعض محافظات مصر) ، وفي عصر شارلمان ارتفعت النسبة لتصل ٢ أو ١٠/٢,٥ .

ولم تشهد فرنسا مردود محاصيل الإمبراطورية نفسه إلا في القرن الثامن الميلادي وبشكل استثنائي .

والعرب الذين لم يمتهنوا الزراعة بالأصل استخدموا طرق الذين سبقوهم في هذا المجال ، وأدخلوا عليها التحسينات والتقنيات .

وكما هو معلوم ، فإن كل المحاصيل الزراعية تحتاج إلى ماء . وتعتمد الحبوب

كالحنطة والشعير على مياه الأمطار (الديم) وتستمد المياه من الأراضي الرطبة .
وكذلك فإن نظم الري وجدت منذ غابر الزمن في الشرقين الأدنى والأوسط ، كالقنوات والسدود التي تخزن المياه وتصرف مياه الأنهار إلى الوديان والسهول . ومعظم هذه المياه وافرة في الجبال والينابيع والآبار الارتوازية التي تحفر في الأرض فتكون جداول وأنهارا .

وعند استلام العباسيين للسلطة ، حسن الخلفاء الاوائل نظم الري . وكان الخليفة عمر(رض) بعد فتح العراق قد أمر بإنشاء سد ضخم لإرواء مدينة البصرة الحديثة البناء .

وفي هذا الصدد ، فإن العباسيين أنجزوا مشروعاً ضخماً في مجال الري . فعند بناء مدينة بغداد أحيطت بحزام من المزارع والمراعي تتطلب شق القنوات العديدة . وقد زاد الرشيد من عدد هذه القنوات[1] في بغداد وفي عاصمته الثانية الرقة ، وكذلك في سامراء .

لقد كانت صيانة هذه القنوات وتوزيع مياهها تخضع إلى نظام صارم جداً ، سواء في العراق أو إسبانيا أو أفريقيا أو في خراسان .

ففي مرو merv كان منصب مدير الري الذي يرأس عشرة الآف شخص يتقدم على منصب مدير الشرطة . وفي مصر كانت درجة الفيضان تسجل بجهاز أطلق عليه اسم نيلومتر ، يتيح قياس مساحة الأراضي المغمورة بالمياه ، وبالتالي تقدير طريقة الحاصل .

وتستعمل كذلك أدوات لرفع الماء ، كالقربة والدلو ، أو بواسطة النواعير التي لا يزال يوجد منها في الشرق حتى يومنا هذا . بالإضافة إلى ذلك ، فإن هناك الطواحين التي تعمل بواسطة البغال أو الدفع . أما الطواحين التي تعمل بواسطة الهواء فإنها لم تستخدم إلا في إسبانيا .

وهناك ، بالإضافة إلى الصناعات والحرف ، تربية الحيوانات التي كانت تزود

---

(١) يروي كتاب «ضريبة العقار» لمؤلفه أبو يوسف نهاية القرن الثامن الميلادي حول إجبار الحكومة استصلاح الأراضي ، وإذا جاء أحد وأخبر الخليفة عن وجود قطعة أرض يمكن استغلالها في الزراعة عن طريق شق القنوات ، يأمر الخليفة فوراً بشق هذه القنوات ودفع مصاريفها من خزينة الدولة ، وليس من قبل المواطن . وبطبيعة الأمر ، فإنه من الأفضل أن تكون دولتهم مزدهرة على أن تكون بائسة ، وأن يثروا على أن ينقادوا إلى العجز (كتاب الوزارة العباسية) .

البلاد بالمواد الأولية للصناعات إضافة إلى المواد الغذائية ، وكانت الماشية ترد من آسيا الوسطى . وقد ساعدت الوسائل الجديدة في تربية الحيوانات على تطور كبير لمناطق التدجين وتربية الحيوانات وتنويع الماشية .

ففي القرن الثامن الميلادي ، كان الجاموس قد وصل إلى حوض وادي الرافدين قادماً من الهند بصحبة هجرات الغجر ، ثم انتقل الجاموس إلى سوريا والأناضول . .

ومن بين الحيوانات الأليفة التي كان النا، يهتمون بها ، نذكر أولاً الخيل التي لعبت دوراً مهماً في الفتوحات الإسلامية ، ويوجد منها أجناس كثيرة ، منها المغولي - التركي وهو صغير وعريض ويعيش في فيافي آسيا ، أما خيول إيران فإنها ضخمة وتستطيع أن تحمل وزناً أكبر . . . وهذا الحيوان كان يصدر منه إلى الهند بهدف تنظيم فروسية الماهارات mahratte . أما الجواد المُلتحي فإنه نتيجة تزاوج عدة أجناس ، وقد نتج منه بعد فتح إسبانيا خيول أوربا الغربية . . أما الخيول السورية الناتجة من تزاوج الخيول الإيرانية ، والذي أصبح فيما بعد الجواد العربي ، هذا الجواد انتشر في مصر العربية وإسبانيا . .

كما لعب الجمل دوراً مهما في اقتصاد العالم العربي والشرق الأوسط ، وذلك في القرون الوسطى . ومنذ أن اختفت العجلات[1] نهاية الفترة القديمة ، كان هذا الحيوان له حصة الأسد في التنقل ، لأن باقي الحيوانات إما أن تكون بطيئة جداً «كالثور» أو خفيفة جداً «كالخيل» . فالجمل يقاوم وسرعته لا بأس بها ، كما أنه يستطيع أن يحمل أكثر من (٢٠٠) كيلو غرام . وعلى ظهره جرت كل عمليات النقل الثقيلة في كل أمصار الوطن العربي والشرق الأوسط . أما في الشرق وآسيا الوسطى فكان يستعمل الجمل المعروف باسم «باكتريان» ذو السنامين ، وخاصة تلك التي ترعى في إيران وخراسان ، أما في الجزيرة العربية وسوريا فإن الجمل يتميز بسنام واحد وكثرة الحمل .

كان النمو المطرد في مجال الاستهلاك والتبادل التجاري في الداخل والخارج قد شجع وتائر الإنتاج ، إذ بلغت في عهد هارون الرشيد كميات هائلة بقيت مجهولة

---

(١) اختفت العجلة بسبب قلة الإمكانيات الفنية في صناعة العجلة والكلفة العالية بنقلها بواسطة العربات . وكان لابد من انتظار وصول الأتراك في القرن الثاني عشر الميلادي لاستعمال العجلات في النقل . .

لحد الآن . .

فقد كانت بغداد مدينة عملاقة ، وكانت البصرة أكبر ميناء في العالم الإسلامي ، إضافة إلى الكوفة وواسط والفسطاط ومرو ومدن تجارية أخرى . وكتابات تلك الفترة لم تذكر مطلقاً هبوط أسعار المواد الغذائية بسبب فائض الإنتاج .

إذن ، نتيجة للتقدم التكنولوجي ، كان هناك تحسن في وسائط النقل ، وبالتالي زاد من وشائج العلاقات التجارية والثقافية والفكرية بين الشعوب في الأطلسي حتى القارة الهندية ، وأخذت البضائع الثقيلة كالحبوب والخفيفة كالتوابل تسوق بين البلدان عبر آلاف الكيلومترات . كما أن المواد الخام أصبحت تنقل من مناشئها إلى مكان تصنيعها ، فدمشق استقدمت فولاذها من الهند ، والقسم الأكبر من الفضة كان يستخرج من مناجم أفغانستان . وفي بغداد كان الناس يأكلون خضر سوريا وتفاح لبنان ، ويحملون إلى إيران الملابس الصوفية المصنوعة في مصر .

وبرغم العداء بين نظام الرشيد والنظام الأموي في الأندلس ، فإن الأندلس كانت تلتقط أي تقليعة تظهر في بغداد ، وبالمقابل فإن بغداد كانت تستفيد من أي تطور اقتصادي في أرجاء الإمبراطورية ، فقد انتقلت إليها صناعة الورق من سمرقند في القرن الثامن الميلادي ، كما أن النظم الجديدة في الري انتقلت بسرعة إلى إسبانيا .

ومن الأمور التي ساعدت أيضاً في تطور وسائط النقل حاجة السكان إلى التنقل وتبادل الزيارات وزيارة العتبات المقدسة ، وعلى رأسها الأماكن المقدسة . وكانت كل منطقة لها وسائل نقلها الخاصة التي أثرت إيجابياً على تطور وسائط النقل بشكل عام .

ولم يشهد العالم مطلقاً تبادل معارف وعلوم مثلما حدث في السنوات التي تلت انهيار الإمبراطورية الساسانية ، حتى إن الإمبراطورية البيزنطية نفسها فقدت طابعها وانصهرت في العالم الإسلامي في ظل عهد جديد للخلفاء .

صناعة النسيج

تعد صناعة النسيج من أهم الصناعات في العالم الإسلامي ، ولذلك فإن منسوجات الشرق الأوسط تعد من أحسن المنسوجات في العالم وأجودها آنذاك . فالأقمشة الصوفية الشتوية كان يتميز بها شمال أفريقيا ، والخفيفة الناعمة تنتج في إيران ، والشراشف والأشرعة والكتان في دلتا النيل ، والشال الفاخر في خراسان ، وكان يصدر منه إلى الصين ، وبسط الحرير الجيدة تنتج في بغداد والأناضول ، وأرمينيا

عرفت بسجادها الضخم ، والمنسوجات الفاخرة في مصر وسوريا ، إضافة إلى المنسوجات الشعبية الرخيصة التي تنتج للفقراء في بغداد ، فالمسلمون يصنعون كل ما يمكن أن يكسو الناس .

كل هذه المناطق كانت تغزل وتحاك طالما الطلب مرتفع على المنسوجات ، وبشكل خاص من القصور التي تحتاج منها كميات كبيرة جداً لتزيين الصالات أولاً ، ثم تغطية حاجات الأمراء والأميرات والحاشية وكبار موظفي الدولة ، عسكريين ومدنيين ، من ملابس ، وهؤلاء يقلدون في اللبس الطبقات الأخرى حسب إمكانياتهم ، وبالدرجة الأولى طبقة كبار التجار .

أما عامة الناس ، فإنهم يلبسون حسب وضعهم ومستواهم الاجتماعي ، فالتجار كانوا يلبسون القميص والرداء ، والوعاظ يلبسون نوعاً من السترة وعليها حزام ، وكان على الموظفين ارتداء ملابس خاصة : فالقاضي كان يجب أن يضع على رأسه القلنسوة والطيلسان ، وكان على الوزير والمستشارين لبس «الجبة» ، أما الشعراء فكانوا يتميزون بالملابس الزاهية الألوان ، والمغنون بالملابس النادرة . . وكان الناس لا يرتدون الزي نفسه طيلة اليوم . وضباط الجيش كانوا يتنافسون بالأناقة ، وبعضهم كان يرتدي جلباباً من الحرير وبنطلونات مزينة بالفرو .

كان الخلفاء يعيرون أهمية بالغة للملابس ، فالمتوكل ، حفيد هارون الرشيد ، كان لباسه المفضل الحرير المطعم بنسيج آخر . ويقول المسعودي إن هذا القماش كان قد استعمل من قبل جميع أفراد العائلة ثم انتقل إلى الناس . كان كل واحد يرغب بتقليد السلطان ، لذلك فقد ارتفع سعر هذا النوع من القماش ، كما أن صناعته تطورت جداً لتلبي متطلبات الموضة وترضي ذوق الأمير وحاشيته .

كانت خزائن ملابس الخلفاء تحفظ في بنايات خاصة تحت إشراف ومسؤولية موظف كبير ، وهي خزائن ضخمة ، كما يستشف من الحديث التالي الذي جرى بين الخليفة الموفق Mawaffak في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ووزيره حسن :

(يا حسن لقد أعجبني هذا القماش ، كم لدينا منه في المخزن؟ نعم ، أجاب الوزير وأخرج على الفور لفيفة صغيرة من حزمته دون فيها مجموع القطع من ذلك القماش ، فوجدها (٦٠٠٠) قطعة . عندئذ قال الموفق ياحسن نحن عراة! اكتب إلى البلاد التي تأتي منها هذه الأقمشة ليرسلوا لنا ثلاثين ألف قطعة وبأسرع وقت ممكن) . وكان من بين المهتمين بالملابس من الأمويين هشام بن عبد الملك ، الذي حمل معه في رحلة

حج واحدة كميات من الملابس استوجب نقلها ٧٠٠ جمل ، وعند وفاته وجدوا في خزائنه ١٢٠٠٠ جلباب من الوشي وعشرة آلاف حزام من الحرير[1] . .

أما هارون الرشيد فقد ترك في خزائنه (٤٠٠٠) رداء من الحرير المطرز بالذهب ، و(٤٠٠٠) من الحرير المطرز بالفرو الفاخر ، وعشرة آلاف قميص وعشرة آلاف قفطان و(٢٠٠٠) سروال و(٤٠٠٠) عمامة وألف رداء من أقمشة متنوعة ، وألف رداء بقبعة و(٥٠٠٠) منديل ، و(١٠٠٠) حزام مذهب و (٤٠٠٠) زوج حذاء مغلف بالفرو و(٤٠٠٠) زوج جوارب .

كانت الملابس تلعب دوراً مهماً في الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر ، فإذا ما أراد الخليفة تكريم أحد فإن التكريم يكون بتقديم الرداء . وكان «رداء التكريم» مصنوعاً من أقمشة مختلفة وباهظ الثمن حسب درجة الشخص المكرم ومستوى التكريم .

وقد يكون التكريم بأكثر من رداء ، وعندئذ يطلق على هذه الهدية بالخلعة khila ، وتتكون عادة من رداء وقميص وسروال وطيلسان وجبة . . والخلعة يقدمها الخليفة في مناسبات الأعياد الكبرى والمناسبات العائلية (كالزواج والختان) ، والوطنية عند الانتصار في المعارك والعودة منتصرين ، أو للتعبير عن ارتياحه من أحد رجاله أو مستشاريه .

وقد جرت العادة أن يتبادل الملوك «رداء الشرف» ، فالمأمون أرسل (٥٠٠) رداء مطرز إلى أحد أمراء الهند ، والإمبراطور البيزنطي ليون Leon أهدى من هذه الملابس (٣٠٠) رداء إلى هارون الرشيد ، وفي عصر المقتفي بالله أهدت له الملكة بيرت Berth (٢٠) رداء مطرزاً بالذهب . ومن المعروف أن شارلمان كان قد استلم من الرشيد خيمة كبيرة وعدداً كبيراً من البسط والكثير من قطع الكتان والحرير .

كان الخلفاء يوزعون على خدمهم وحاشيتهم سواء في الشتاء أو الصيف الأقمشة ، ومعنى ذلك أن استهلاك القماش كان كبيراً جداً . .

وكان للسجاد دور كبير في الحياة اليومية آنذاك ؛ لأن استعمالاته كثيرة ومتنوعة ، فهو يفرش على الأسرة وعلى الوسائد وعلى المقاعد ، وبعضه كبيرٌ جداً ، فقد بلغت مساحة سجادة عائدة للخليفة هشام بن عبد الملك ٧٢ طولا و٥٤ عرضا .

---

(١) ابن طقطقة .

وقد تستغرق صناعتها عدة سنين فتكون بذلك عملا فنيا رائعا .

ويعتمد الخلفاء والأمراء عند التنقل على الخيم الكبيرة ، وكأنها قصور فخمة متحركة ، فإحدى خيم الخليفة المستنصر كان قطرها ٧٠ مترا وترتكز على أعمدة من فضة ، ونسجت كلها من الذهب ، وخيمة أخرى كانت تزن مع ملحقاتها أكثر من سبعة عشر طناً ، وفي الاحتفالات الكبرى أو مناسبة وصول سفير فإن الطريق المخصص للضيف يفرش بالسجاد والبسط الثمينة .

وقد بلغت كميات المنسوجات من الستائر المطرزة بالذهب وسجاد الحرير المطعم بالأحجار الثمينة واللؤلؤ وأغطية الخيل والجمال ما مقداره عشرات الكيلومترات من النسيج الثمين ، التي كانت تصنعه مختلف ورش الإمبراطورية ، سواء كان ذلك للبلاط أو للقصر .

هذه الأقمشة والملابس والمنسوجات والسجاد كانت أدوات سياسية تستخدم في دعم السلطة ، وكانت تدل على المستوى السياسي والاجتماعي للشخص . وكانت في الحقيقة تشكل ثروة تنتقل من حاكم لآخر . وقد بقيت هذه المنسوجات لمدة قرون من الزمن من أكبر مظاهر الحضارة العباسية ، ولم تستطع أية حضارة أخرى منافستها .

كانت الأقمشة الراقية والجيدة تنسج في ورش الخليفة . وعلى سبيل المثال الطراز Tiraz والكلمة فارسية الأصل هو رداء أو قماش مطرز بالكتابات الجميلة حسب الطلب ، وهكذا لبقية المنسوجات الأخرى ، ثم تطورت هذه الورش فيما بعد لتعم سائر أنحاء الإمبراطورية من بغداد وسامراء وخراسان ودابك والقيروان . . . وهكذا . وكانت هذه الورش تعد من ممتلكات الدولة ، ولخدمة الدولة ويشرف عليها موظف برتبة عالية يساعده معاون للإشراف الميداني . .

يروي ابن خلدون (إن من بين عادات وتقاليد لباس الأباطرة والأمراء مسألة النقوش على الملابس ، كنقش الاسم أو أية كتابة أخرى ، كأن يكون رمزاً أو شعاراً . . إلخ . وهو ما يعمل به في معظم الإمبراطوريات كمظهر من مظاهر العظمة والفخامة . وكان هذا التقليد عند العباسيين يحتل أهمية خاصة ، فكانوا يحرصون جداً على إبراز هذه النقوش على الأقمشة عند نسجها ، والتي كانت غالباً من خيوط الذهب والحرير أو الألوان المختلفة عن خيوط نسيج القماش الأصلي . ولذلك فإن كل الملابس الملكية مطرزة بالطراز ، وهو دليل الأبهة والفخامة للحكام ، كما أن الأشخاص المراد تكريمهم يسمح لهم باستخدام هذا الطراز ، وكذلك كبار المسؤولين ، وقد أعطى الطراز

أهمية من قبل الإمبراطوريتين الأموية والعباسية)[١] .

وكانت النقوش في العصر العباسي تهتم بذكر أسماء الله بالخط الكوفي واسم الخليفة ولقبه «الرشيد مثلا» ، وبعض الأحيان آية قرآنية ، وهذه النقوش تكون بتطريز ملون محفورة أو منسوجة .

والطراز Tiraz لم يحتكر صناعة النسيج ، على العكس فقد كانت ورش النسيج الخاصة منتشرة هنا وهناك ، وإنتاجها يتجاوز إنتاج الطراز . ففي تونس ودلتا النيل ، على سبيل ، المثال كانت الحياكة هي الصناعة الوحيدة التي تحتل كل نشاط السكان ولاسيما في المدن الأخرى . وفي قرى الفيوم Fayoum كان النساء والأطفال يعملون في هذه الورش ، وخاصة ورش الغزل وأجورهم كانت زهيدة .

وكان الغزل يتم بواسطة المغزل أو الإسطوانة ، والحياكة على نول أفقي أو نول ذي «مدوّس» ، والاثنان من أصل صيني . كما استعملت «جوًم» متطورة ومعقدة تحوك أنسجة مختلفة مطعمة باللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، ومنذ نهاية القرن الثامن الميلادي بدأوا باستعمال الذهب في الحياكة ، وخاصة على شكل حبيبات دقيقة تمزج مع الخيط . أما النسيج المطعم بالفضة فإنه كان يأتي من إسبانيا وفارس ، هذه الدول التي توجد فيها مناجم الفضة .

وفي زمن هارون الرشيد كانت إمكانيات الحياكة تسمح بحياكة كل صور الحيوانات والنباتات[٢] . ومع أن تقنية صناعة النسيج تقدمت ، ولكن جودة الإنتاج كانت متفاوتة في مصانع الشرق الأوسط خلال القرون الوسطى .

ويكاد الجميع في المجتمع الإسلامي يغزلون ويحوكون ويصبغون ، فكانت العرب تشتهر بحياكة القطن والصوف ، وإسبانيا بالحرير والصوف ، وأفريقيا كانت تشتهر بالقطن والصوف ، وسوريا ونيقوسيا بالقطن ، وخراسان بالحرير والقطن ، أما في العراق وخاصة بغداد وضواحيها فكانت تنتشر فيها ورش صناعة النسيج (قطن وصوف وحرير) ، وعلى مختلف أنواع المنتوجات ، فالكوفة كانت مشتهرة بالشال ، وكانت البصرة والأبلة Ubullah تنتجان المنسوجات للخيام والحبال واللباد ، في حين كانت تكريت والحيرة والموصل تتميز بصناعة الموسلين mousselines ، وكان في الأهواز وحدها ثمانون ورشة

---

(١) المقدمة الثانية .

(٢) كان يصنع من بعض الأقمشة «مطرية» سواء بالحياكة المركزة أو بإكسائها بطبقة خفيفة من الشمع .

سجاد ، وفي عبادان كانت عشرات الورش تصنع الفرش والوسائد ، وكانت شهرة بغداد والنعمانية وأرمينيا ومناطق بخارى قد عرفت بسجادها الفاخر .

ومع ذلك ، فإن المناطق الثلاث الرئيسية بإنتاج المنسوجات هي فارس وخوزستان ودلتا مصر ، ففي فارس كانت هناك ثلاثون ورشة لإنتاج الحرير المطرز وفرش الأثاث وبسط الصوف ، والسجاد المنسوج باليد والملابس القطنية . أما خوزستان فكانت مختصة بحياكة الكتان ومطرزات الحرير ، وفي دلتا مصر كانت عشرات المدن ترسل إلى أرجاء الإمبراطورية البسط الثقيلة والعبي الخفيفة ومنسوجات الكتان المطرز بالذهب ، والشراشف والأشرعة والأقمشة الفاخرة وكل أنواع النسيج .

يقول اليعقوبي :

«كانت تونس تصنع كل أنواع النسيج من مختلف الأصناف والأنواع الشتوي والصيفي السميك والخفيف . . .» .

الصناعات الأخرى

بالمقارنة مع صناعة النسيج ، تأتي صناعة الورق في المرتبة الثانية في عهد العباسيين ، ولابد من التأكيد على أهمية انتقال هذه الصناعة ومن ثم تطويرها في الغرب .

كانت الكتابة تدون لحد القرن الثامن الميلادي على الرق والبردى ، وكان الرق من جلد الخروف والبردى من صفائح اللحاء المضغوط والمكبوس بالنشا . الأمويون كانوا يستخدمون في الكتابة البردى ، ولكن العباسيين كانوا يستخدمون الرق ، والسبب لإضفاء الأهمية والهيبة لرسائلهم ووثائقهم . إضافة إلى أن الرق أكثر مقاومة وأسهل ضغطاً[1] . ولكن في عام ٧٥١م سحق العرب في طلاس Talas القائد كاوسيين تج Kaosien Tche وأسروا خلال هذه المعركة الكثير من الصينيين ، وكان قسم منهم يعرفون طريقة صناعة الورق من الكتان والقنب .

وهؤلاء أخذوا ينشرون هذه الصناعة في كل مكان من الإمبراطورية ، فأرسل عدد منهم إلى سمرقند samarcande حيث أقاموا هناك معملاً للورق ، ثم تطورت صناعة الورق وانتقلت إلى العرب . ففي بغداد شيد جعفر البرمكي ، بناءً على توجيه من

(١) ابن خلدون Ibn khaldoun .

أخيه الفضل والي خراسان آنذاك ، معملاً كبيراً في بغداد عام ٧٩٤-٧٩٥م ، ويعد أول مصنع كبير للورق في العالم العربي ، وبعد عدة سنوات أقاموا مصانع للورق في الأندلس ، المغرب ونيقوسيا ودمشق . وكان أحسن أنواع الورق جودة هو ورق سمرقند ، ثم سرعان ما تخلت مصر عن البردى وبدأت تصنع الورق بدورها ، وبدأت الدول الأجنبية وعلى رأسها بيزنطة تشتري الورق من العرب .

ومن الصناعات الأخرى صناعة المعادن بالرغم من نقص الخشب الذي يؤثر كثيراً على أعمال استثمار الحقول ، حيث كانت المعادن تستورد من أفريقيا وبشكل خاص من المغرب والهند ، وكان العديد من الورش تصنع العدد الضرورية للأعمال اليومية من الحديد والنحاس ، وكان في كل مدينة باعة وحرفيون يبيعون منتوجاتهم .

وكان الحدادون يطرقون أبواب الأسوار والتحصينات والسلاسل والعدد والآلآت . . . إلخ . فكانت حران في سورية مشهورة بصناعة الميزان والآلآت أو الأجهزة العلمية والإسطرلاب ، والساعات الرملية والساعات المائية وغير ذلك من الأجهزة . أما صناعة السلاح فكانت تقريباً في كل مكان حسب الإمكانيات المتوافرة من حيث وجود الحديد والفولاذ (كانت أسرار المهن تنتقل من الآباء إلى الأبناء) ، وقد انتقلت طرق صناعتها بالنسبة لمعظم الحرفيين من الهند وشاعت في دمشق ، ثم انتشرت في الأندلس ، وعرفت طليطلة بجودة سلاحها . وفي القوقاس حيث توجد مناجم الحديد ، اشتهرت بصناعة الدروع والزرود ، ومع ذلك كان السلاح يستورد أيضاً من الغرب كسيوف الفرنج والسلاف المشهورة .

صناعة الذهب والفضة كانت هي الأخرى منتشرة في العديد من المراكز ، بعضها كان يعود إلى الخليفة نفسه ، وهذه المراكز كانت تصنع وتعد الجوائز الكبرى التي يمنحها الخليفة للمكرمين من الكؤوس والأطباق والعدد والحاجيات ، وكل أشكال المصوغات المستوحاة من القديم من الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية .

كما أن هذه الورش كانت تصنع العديد من الشمعدانات والمعلقات المنقوشة بالحيوانات والنباتات والرسوم ، بالإضافة إلى صناعة الالآت الموسيقية وتماثيل الحيوانات المفترسة ، والطيور التي تزين القصور الضخمة في المدن الكبيرة .

وهناك أيضاً صناعة السرج وفرش الخيل المطعمة غالباً بالذهب والأحجار الكريمة ، ومعدات الجلد المصنوعة في بغداد والمغرب ، وفي اليمن وخاصة في قرطبة : كالسرج والمقعد والأحزمة والحمالات . . . إلخ .

ومن الصناعات التي تركت أثراً مهماً في الحضارة العباسية صناعة العطور التي تطورت كثيراً في غرب إيران ، حيث أصبحت إحدى المناطق الرئيسية المنتجة لها ، وقد كان يستخرج من مختلف الزهور كالنرجس والياسمين والجوري ، وترسل إلى بغداد والمدن الكبرى حيث تمزج مع البنفسج والياسمين .

كان إنتاج ماء الورد غزيراً لأنه لم يستعمل فقط للتعطر ، وإنما كان يستعمل أيضاً للطبخ . كما أن العطور كانت تدخل أيضاً في تركيب المراهم ومواد التجميل والشرابت ، بل إن كل المستحضرات الطبية والعقاقير ذات المنشأ الهندي كانت تصنع من النباتات والأزهار ومن بعض المياه المعدنية ، حيث كان يستخرج منها الشب والبورق محلياً أو يستورد . وكان يصنع منها أيضاً الأدوية والمخدر والمياه المعطرة بمختلف الروائح ، بالإضافة إلى العقاقير المهيجة للجنس . هذه المواد كانت توزع في إنتاجها على مصانع صغيرة وكان إنتاجها يشكل كميات لا يستهان بها في المجال التجاري .

وهناك صناعات أخرى شغلت عدداً كبيراً كصناعة قصب السكر في مصر ، التي سوقت إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي والدولي ، وكذلك صناعة الخزف وإنتاجه بكميات هائلة ، حيث انخرط في هذه الصناعة الآلاف من العمال والحرفيين . وقد انتشرت ورشها في كل أنحاء الإمبراطورية ، وخاصة في وادي الرافدين وفي سورية ، حيث كانوا يصدرون الكاشي والكربلائي لتبليط الأرضية وتزيين جدران الدور ، وإنتاج الجرار والمزهريات والأطباق ذات الاستعمال اليومي ، ولا سيما إنتاج القوارير والقناني بكميات وفيرة ، وقد عرفت وتميزت في عصر العباسيين بجمالها ورونقها ، وقد صدر منها إلى الصين .

وعن بعض الصناعات الأخرى نذكر صناعة الطابوق والجص والبورق ، وهي المواد المهمة في البناء والزينة وصناعة الأثاث . أما في بغداد والمدن الكبرى ، فإن صناعة السفن كانت تشكل إحدى الصناعات الثقيلة والمتنوعة . . . سفن لنقل البضائع وزوارق للخلفاء والأمراء ، وزوارق حربية وبعضها أحرقت بسبب المتفجرات التي كان البيزنطيون يطلقونها على هذه السفن (رمانات متفجرات) .

في الأبلة Ubulla كان يوجد أكبر ميناء بالقرب من البصرة ، ويقول اليعقوبي «هناك كانت تصنع السفن (إذ كانت تجمع قطع الخشب وتضغط بعضها ببعض) وكانوا يبحرون بها إلى الصين» .

بالإضافة إلى ما تقدم ، فإن صناعات أخرى كانت تشغل الناس ، كصناعات

العدد الخوصية كالسلال والأواني ، وكان هناك الحدادون والصباغون «حراقو» الخشب والإسكافيون والنجارون (نجارو الأثاث والعربات) ، هؤلاء كانوا منتشرين حتى في القرى وكانوا يستخدمون في الصناعة ما توارثوه عن آبائهم وأجدادهم . إلا أن العرب ، بفضل التقدم العلمي وذكاء علمائهم ، أضافوا تطورات إلى هذه الصناعات بحيث أعطت مردوداً أفضل للإنتاج . كما أن استحداث وإنشاء فروع أخرى للصناعة كان بفضل سهولة استيراد المواد الأولية الخام ، التي لم تكن تعرف آنذاك (كالشب وصبغة النيلة والزعفران) مما مكن ولايات الإمبراطورية من تزويد المدن المجاورة .

وهكذا كانت التقنية والخبرة تتبادل بسهولة ، فصناعة الحرير التي أرست قواعدها في العراق تأثرت بصناعة الحرير في بلاد فارس ، وصناعة نسيج الكتان على شواطىء بحر الخزر وفي مصر ، وصناعة الزجاج في سوريا ، في حين توقفت في وادي الرافدين .

كانت الحاجة المتزايدة للسكان تدفع الصناعيين لتطوير الإنتاج ، الذي أدى بدوره إلى اتساع حجم التبادل التجاري على الصعيد الإسلامي أولاً ، ثم على الصعيد الدولي ثانياً . .

النمو الكبير للحركة التجارية

وجود الأنهار وطرق المواصلات البرية ساعد كثيراً في الازدهار الاقتصادي والتجاري في الإمبراطورية العباسية .

فالبحار تحمل إلى أطراف الأرض نتاج الدول الإسلامية ، تنقل إليها المواد الأولية الضرورية لصناعتها . ولكن ماهو السر الحقيقي في هذا النمو التجاري الذي لا يقارن إلا بذلك الذي حدث في أثناء الثورة الصناعية وتطور الاتصالات في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين؟

هل أن التطور المدني ونمو السكان في المدن وازدياد حجم الاستهلاك كان السبب الرئيسي في نمو التجارة؟ أم اشتراك شعوب الإمبراطورية بلغة واحدة ودين واحد وتحت نفوذ خليفة واحد هو السبب؟

ما من شك هناك أسباب أخرى أهمها ، بل على رأسها ، هو ذلك النشاط العجيب والقدرة الفائقة لشعوب الإمبراطورية في السيطرة والتكيف بعد الفتح العربي ، وخاصة في العقود الأولى بعد الثورة العباسية ، هي تلك السرعة التي

مكنت المسلمين من فتح وغزو أقاليم شاسعة بعدد قليل جداً من المقاتلين .

إضافة إلى أن مصادر النمو الهائل في بغداد دفع العرب وحمسهم بشكل لم يسبق له مثيل . ثم إن هذه الفتوحات أتاحت لشعوب الإمبراطورية الاتصال بمناطق التجارة ، التي سهلت قيام علاقات مع البلدان البعيدة ، فالبحر الأبيض المتوسط فتح أمام شعوب الإمبراطوريتين العباسية والبيزنطية أبواب الغرب ، ومهد لهم السبيل لاكتساب الثروة والأفكار الجديدة وخاصة مع شعوب إسبانيا .

في الجنوب من الإمبراطورية ، كان احتلال الخليج العربي- الفارسي قد فتح للإمبراطورية العباسية العراق نحو آسيا ، وهو طريق أكثر قصراً وسهولة من طريق البحر الأحمر ، وطريق وادي الرافدين - سوريا - الأناضول ثم شمال فارس . الشيء نفسه كان بالنسبة إلى مصر والبحر الأبيض المتوسط طالما كل الحدود قد سقطت . كان البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر يشكلان منذ غابر العصور طريقين متوازيين نحو جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى .

وسرعان ما سلك هذه الطرق ، العرب واليهود والقبطيون(المصريون) بشكل خاص ، وساهمت في ازدهار العراق ومصر وكل الإمبراطورية .

ولما كانت الإمبراطورية العربية تحتل قلب العالم ، فإنها كانت تتمتع بثروة معدنية ضخمة أتاحت لها أن توطد قيمة نقدها ، وبالتالي توفير المنتجات الضرورية لتطورها الاقتصادي .

وعلى مدى مئات السنين ، بل الآلآف ، اكتنزت مصر والشرق بالذهب ، حيث كانت قبور وقصور وكنائس وأديرة كل فراعنة مصر وأباطرة الفرس وأمرائهم والقساوسة بمثابة كنوز تتكدس فيها ثروة هائلة . وعلى سبيل المثال ، فقد وجد أن قيمة الذهب المخزون في قبر توت عنخ آمون Toutankhamon يساوي ضعف رصيد مصر من الذهب في عام ١٩٢٥م[١] .

وهذا يقودنا إلى طرح هذا السؤال ، كم طناً من الذهب اختزن في مدافن الفراعنة وأباطرة الفرس؟ في فارس كانت العملة المتداولة الفضة ، ولذلك حولوا الذهب إلى مجوهرات وأدخلوه في تطعيم الأثاث والزينة في قصر ملك الملوك وحاشيته ، أما في سورية ووادي الرافدين فإن مباني العبادة المسيحية والأديرة كانت

---

(١) حسب السيد لومبارد Lombard .

قد كدست ثروة ضخمة من الذهب ، سواء في الكنيسة أو في تماثيل العذراء والمسيح ، التي كانت تقدم وتتبادل بين المسيحيين ، بشكل واسع بعد المد المسيحي . وفي وقت اضطر فيه أباطرة بيزنطة إلى استثمار هذا الذهب في الأزمات النقدية ، فإن العرب اعتمدوا عليه كاحتياطي كبير استطاعوا بفضله أن يضربوا في دمشق وبغداد عملة هي الدينار le Dinar ، الذي أعطى المزيد من القوة لتجارتهم الدولية .

يضاف إلى هذه الأكداس من المعادن الثمينة منذ نهاية القرن الثامن الميلادي ، الذهب المستخرج من السودان والمرسل عن طريق القوافل عبر الصحراء إلى مدن الساحل ، حيث يصدر باتجاه مصر وسوريا ووادي الرافدين . واعتمادا على هذه المصادر الضخمة التي لا ينضب معينها ، فإن الدينار بقي لفترة طويلة مع العملة البيزنطية nomisma العملتين الوحيدتين المتداولتين في العالم الإسلامي . في روسيا وفي الغرب هذه العملة المعدنية زنتها ٤,٢٥غم ، وهي أخف من العملة البيزنطية nomisma التي تزن ٤,٥٥ غم ونسبة التركيز فيها ٩٦-٩٨٪ من الذهب الخالص ، وذلك بفضل طرق السبك المتطورة التي استخدمها العرب .

وهناك إلى جانب هذه العملة نقود من الفضة ؛ لأن الإمبراطورية تمتلك الكثير من معدن الفضة ، في إيران وآسيا الوسطى زنة درهم الفضة ٢,٦٩ غم ، وقيمته في عهد هارون الرشيد ١/١٥ من الدينار ، وكان يتداول في بلاد وادي الرافدين . أما في سوريا وأفريقيا فكان الذهب هو العملة المتداولة . في بغداد كان الناس يستعملون العملتين الذهب والفضة ، ولكن أضيفت العملة الفضية بعد القرن العاشر الميلادي وأصبحت العملة الذهبية هي السائدة .

في نهاية القرنين الثاني والتاسع الميلاديين ، كان الخليج الفارسي (العربي) هو الطريق التجاري الرئيسي نحو المحيط الهندي وسيلان وماليزيا وجزيرة أندونيسيا والصين .

وفي عهد الفاطميين في مصر ، توطد تيار منافس على البحر الأحمر . وعلى كل حال ، فإن الموانئ الكبيرة للخليج العربي كانت بصورة مطلقة تحت سيطرة الرشيد والخلفاء من بعده .

البصرة

«أول مدينة في العالم وأغنى مركز تجاري» حسبما يقول اليعقوبي ، هي منذ القدم كانت أكبر مركز استقطاب إسلامي ، تأسست عام ٦٥٠م واحتلت مكانتها

كمدينة مهمة في العالم في بداية ذلك القرن ، وهي مركز مال وصيرفة حيث يعمل فيها المسيحيون و اليهود والفرس والعرب والهنود . كما أنها مدينة صناعية بفضل ورش السفن التي كانت تنتج مختلف أنواع الزوارق والمراكب والسفن لنقل البضائع ، هذا بالإضافة إلى أنها أيضاً مركز إشعاع فكري ، وكل هذه النشاطات ثانوية بالمقارنة مع أهمية مينائها . فإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ميناءها النهري كاللا kalla والأبلة ubulla القريبة من البحر ، فإنها تعد من أهم مدن الإمبراطورية . ولما كانت هذه المدينة تقع عند ملتقى نهري دجلة والفرات ، فإن السفن كانت مضطرة للملاحة في شط العرب للوصول إليها ، الأمر الذي ساعد كثيراً في تطورها التجاري . والقسم الأكبر من التبادل التجاري بين الدول الإسلامية كان يتم من خلالها .

وبعد ميناء البصرة تطور ميناء سيراف Siraf الذي يقع في جنوب إيران باتجاه المحيط الهندي ، وخلال بضعة عقود من الزمن أصبح ميناءً مهماً ، حيث كان لتجارة أكبر أغنياء إيران ، وكانت بيوت هذا الميناء من عدة طبقات مبنية من الخشب الصاج ، كما أن أفضل البحارة في العالم الإسلامي كانوا يعملون في هذا الميناء . وحسبما يروي كتاب غرائب الهند Merveilles de l'ind فإن معظم البواخر الصينية كانت تشحن من سيراف البضائع القادمة من البصرة أو من عمان أو من مكان آخر ، وذلك بسبب شدة الأمواج وضحالة المياه في بعض الأحيان . حيث إن المساحة المائية في ميناء البصرة وسيراف لم تكن أكثر من ١٢٠ فرسخاً ، وعندما كانت البضائع تشحن من ميناء سيراف فإن البواخر كانت تمخر في المياه الحلوة باتجاه مسقط الواقعة عند طرق عمان .

إلى جانب هذه الموانئ الكبيرة ، فإن ميناء عدن Aden بسيط نسبياً ، حيث كان يستقبل البضائع القادمة من الجانب الأفريقي ، وكان يستخدم كهمزة وصل بين أفريقيا والشرق الأقصى . أما عمان ومدنها ، مسقط وسوهار ، فكانت سوقا حرة للتوابل والعاج والمواد النادرة القادمة من الهند . أما جدة Djeddah فكانت هي ميناء مكة والمنفذ إلى البحر الأحمر .

أول من استفاد من ميزة سعة رقعة الإمبراطورية في النقل في أنحاء العالم وإقامة الصلات والروابط هم اليهود ، حيث أن ترامي الإمبراطورية الإسلامية أتاح لهم تعزيز الروابط بمصر وسوريا وفلسطين والعراق إلى الهند وتعميقها . وكان نشاطهم يتركز في بغداد حيث مقر زعيمهم السياسي الرش كالوثا Resh Galutha ، كما كان لديهم زعيم روحي ومدارس فقهية حيث من هناك صدر تلمود بغداد .

ترابط اليهود

كانت كل الطوائف اليهودية مرتبطة فيما بينها بفضل الجمعيات والتعاونيات التي كانت تجمع المؤسسات التجارية في وحدة متماسكة وسياسية تجارية واحدة. وفي أواخر القرن الثامن الميلادي بدأ اليهود في خوض التجارة الخارجية، حيث بدأوا بتجارة الحبوب والتوابل والقماش والمواد الثمينة والعبيد من مناشئ مختلفة، لكي يسيطروا خلال قرنين من الزمن على التجارة الدولية.

المسيحيون قاموا بدورهم في مزاولة التجارة بين القارات، معتمدين على طوائفهم المنتشرة في بقاع العالم. فقد ساهموا بشكل واسع في العمليات المصرفية التي كان الأرمن يتميزون بها... وفي هذا السياق فإن المسلمين، في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، كانوا يهيمنون على معظم ثروات بغداد والبصرة، ويسيطرون على عمليات التبادل التجاري مع المغرب وأفريقيا.

وكان هؤلاء الرجال، مسلمين ويهوداً ومسيحيين، يجوبون الأرض من دون كلل أو ملل، ويخترقون السهول والوديان والجبال ويعبرون البحار، ولكن لم يصلوا إلى الغرب المسيحي، فالمسلمون لم يجتازوا حدود إسبانيا أو موانئ إيطاليا حيث تمارس التجارة المهمة، وخاصة في مدينتي بيزا pise et وأملافي Amalfie. كما أن يهود الشرق ومسيحييهم كانوا أيضاً نادراً ما يزورون الغرب، ولسنا ندري السبب، فلعل الشرقيين كانوا يفكرون بعدم فائدة التجارة مع الغرب، أو أن الإيطاليين كانوا يمنعون البضائع الشرقية من تجاوز بعض الحدود لحماية أسواقهم.

وكانت هناك طرق عديدة للقيام بصفقات تجارية، حيث يسافر التاجر لوحده إلى بلدان عديدة وفيها يشتري ويبيع بضاعته أو يسلم بضائعه إلى أحد المسافرين لكي يبيعها ويشتري غيرها.

والسندباد، البطل الشهير في ألف ليلة وليلة، قام برحلاته الأربع مع تجار آخرين باعوا بضاعتهم فيما وراء البحار. ويقول السندباد «أخذت معي كمية كبيرة من البضائع القيمة، ومن بغداد سافرت إلى البصرة حيث صعدت على متن سفينة كبيرة برفقة العديد من وجهاء التجارة[1] المعروفين بثرائهم». ومن كثرة المغامرات عاد السندباد إلى وطنه وقد ربح الكثير من المال...

---

(١) الليلة ٣٠٢ من ألف ليلة وليلة.

وفي الرحلة الخامسة ، استأجر السندباد مركباً خاصاً لبضائعه مع قبطانه . ومع أنه أصبح ثرياً جداً فإن شغفه بالمغامرة لم يتوقف ، ودفعه إلى أن يبدأ برحلة سادسة ، ولكن هذه المرة مع تجار آخرين . وفي الرحلة السابعة سافر على متن مركب الخليفة . . .

وفي الحقيقة فإن استئجار مركب ما يكلف غالياً جداً ، وفي الغالب كان التجار يسافرون جماعات تربطهم العقيدة الواحدة . ولكن هذه العلاقة تغيرت واختفت شيئا فشيئا ، وحلت محلها علاقات جديدة تجارية هي «التوكيل» ، فالتاجر الموكل يسلم الوكيل البضائع ليسافر بها من أجل بيعها ، ثم يتقاسمون الأرباح فقط دون أن يتحمل الموكل أية خسارة . وهذه الطريقة كانت متداولة منذ العصور السحيقة .

وقد اعتبر رجال الدين المسلمون بأنها مخالفة للشريعة ، ولذلك انتشرت في القرن العاشر الميلادي في الدولة الإسلامية ، ثم في حوض البحر الأبيض المتوسط وأوربا . . . ولكن كيف تحوّلت رؤوس الأموال التجارية ؟

لقد استعمل المسلمون منذ القدم الصك sakk طريقة للدفع ، وهذه انتشرت بسرعة فائقة . كان الصرافون يرسلون وصولات التصريف والاعتمادات . . . إلخ وتجري التسويات عبر العمليات الحسابية . وكانت المصارف تمنح سلفة لتحويل عدة صفقات تجارية تابعة لتجار معروفين بأمانتهم ونزاتهم . وفي هذه الفترة بالذات ، أي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، نشطت التجارة بفضل هذه التسهيلات المصرفية . .

الطرق المهمة في الإمبراطورية وفي العالم

كانت طرق الملاحة في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى نادرة ومحدودة . وقد عدّ الجغرافي المقدسي (القرن العاشر الميلادي) اثني عشر طريقاً ، إذا ما استثنينا النيل ودجلة والفرات من هذه الطرق ، حيث لم تكن مستعملة لنقل المسافرين والبضائع . . . ذلك لأن مصر ووادي الرافدين يحتلان موقعاً متميزاً ، إضافة إلى ذلك فإن جزءاً كبيراً من دجلة والفرات صالح للملاحة ، والنهران مرتبطان بعدة قنوات تشمل شبكة رباعية الأضلاع تحتضن حوض وادي الرافدين ومنطقة بغداد .

كانت الأخشاب الأرمنية والزيتون السوري تنزل من على الفرات على عوامات ، وكانت البضائع المرسلة للعاصمة ترسو في الأنبار ، ومن هناك تنقل إلى عوامات أصغر لتصل إلى بغداد عبر قناة عيسى Isa ، عوامات وقوارب قادمة من سامراء ومن تكريت ، من الموصل ومن أعالي وادي الرافدين ، تنزل في دجلة هي الأخرى متوجهة إلى

بغداد . هذه العوامات التي معظمها ذات أحجام كبيرة يقودها فريق متمرس وماهر لتجاوز الصعوبات في الملاحة ، وهي تحمل حمولة ضخمة تصل بغداد ، حيث يتم تفريغها ثم يباع خشب العوامات والمواد الغذائية النادرة والقيمة التي تحملها .

الملاحة في النيل مزدحمة ، مراكب من كل الأنواع ذات أشرعة مربعة أو مثلثة ، يقال عنها لاتينية ، وهي مستوحاة من مراكب المحيط الهندي التي تتأثر بأقل الرياح ، وهناك عشرات من المشاحيف التي تتهادى في العديد من فروع النيل وقنواته . وأحد هذه القنوات التي أنشأها ترجان Tarjan تربط الفسطاط بقلزم Fostat- Kolzum (البحر الأحمر) ، حيث ترسو هناك السفن المحملة بالبضائع المرسلة إلى العاصمة . وهناك ترسو أيضاً السفن التي تموّن مكة والمدينة عبر جدة . وتستمر الملاحة في النيل حتى أعالي مصر ، أي بالقرب من المنبع . وأسوان Assouan هي أكبر مستودع وأكبر سوق للسودان ، والقوافل النوبية تحمل اليها البضائع التي تشحن في النهر .

معظم الأنهر الأخرى في العالم الإسلامي لها مسالك غير منظمة وغير صالحة للملاحة سوى بعض المقاطع ولفترات محدودة . . . ومن بينها نهر الأوكسس Oxus ، عمو - داريا Amou-Daria ، ونهر لا كزات Laxarte ، سر-داريا ونهر ايلماند Helmend ، وهناك أنهر تصب في الهضبة الأناضولية . وهكذا تأخذ الملاحة مكانة محدودة في النقل في البلدان الإسلامية ، وخاصة إذا ما قارنا ذلك مع النقل في الأنهر الكبيرة في البلدان السلافية .

التبادل بين موانئ الخليج العربي - الفارسي وبلدان جنوب شرقي آسيا كانت حديثة نسبيا . . . وفي فترة الساسانيين لم يكن يرتاد هذه المنطقة من الفرس إلا قليل ، حيث كانوا يتوجهون إلى الصين ، وقد بدأت التجارة في المحيط الهندي في عصر الأمويين ، ومنذ عام ٧٠٠م أقام عدد من المسلمين في سيلان Ceylan ، وقد كان انتقال مراكز التجارة والحركة من دمشق إلى بغداد وفي عموم بلاد وادي الرافدين بمثابة انطلاقة قوية نحو توسيع التجارة في الشرق الأقصى[١] .

---

(١) كانت المراكب الصينية التي تمخر في مياه المحيط الهندي قليلة . ومركز الاستقطاب في الصين كان في الشمال ، وكانت الحكومة الامبراطورية لا تسمح مطلقا بالتوجه نحو الموانئ في الجنوب ، وكان يجب انتظار القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين لكي تعيد الحكومة النظر بأهمية هذه المنطقة وتدرك فائدة التجارة مع البلدان البعيدة .

الهـدف الأول : بالنسـبـة للهنود من أجل أن يربطوا ضـفـاف المالابار Malabar وخاصة ميناء منجابورMandjapur ، فالمراكب التي تبحر من البصرة أو السيراف يمكن أن ترسو في مسقط Mascate ، وعلى ضفاف عمان . ومن هناك تتوجه مباشرة نحو ضفاف مالابار بمحاذاة شواطئ السند Sind وشواطئ مكران .

في الذهاب تحمل المراكب الملح وصفيح النحاس والفضة والحرير والقطن والطراز Tiraz ، والعطور من العراق والخزف والخيول من عمان . بالمقابل فإن شبه القارة الهندية تجهز بالخشب والصاج من النوع الممتاز ، والبلوط والعنبر الرمادي والهيل والحديد والسلاح .

أما المراكب التي تستمر في إبحارها نحو الصين ، فتأخذ اتجاه سيلان Ceylan وسرنديب Sarandib العرب أو جزر الياقوت ile aux Rubi ، حيث يشترى من هناك القرنفل وحجر اللازورد والفيلة والكانيل Cannelle ، بعض المراكب تبحر إلى سومطرة Sumatra وإلى جاوا Gava أو إلى جزر التوابل التي تزود مسقط بحبوب القرنفل والفلفل . أما المراكب الأخرى فهي تبحر شمال سومطرة حتى تبلغ ضفاف كمبوديا عن طريق مضيق ملقا Malacca . أما الموانئ الرئيسية فهي سناف Snaf في شمال سايكون على ميناء يكن في هانوي Hanoi كآخر مرسى قبل كانفي Kanfu ، (كانتون) Canton ثم إن هناك بعض المراكب تمر أيضاً عبر جزر باراسيل Paracels .

لقد كان العرب قليلاً ما يمرون في ميناء كانتون Canton وماوراء كوريا حيث المجهول . وكانوا يحملون إلى الصين الأقمشة الممتازة والسجاد والنحاسيات والفضيات والذهب واللؤلؤ من جنوب شرقي آسيا ، وقرون الكركدن والعاج ، وفي العودة يجلبون الورق والأدوية والمسك والحرير والكافور . وكل هذه البضائع خاضعة إلى إجراءات دقيقة قبل استلام موافقة إدخالها ، لأنه من الممنوع استيراد البضائع النادرة أو إدخالها .

طريق العودة يكون عادة هو نفس طريق الذهاب ، وتبحر المراكب في نهاية تشرين الثاني من أجل الاستفادة من الرياح الموسمية الشمالية - الشرقية ، والعودة إلى البصرة وإلى سيراف تكون بداية الصيف . . . إذن ، تستمر السفرة في مجموعها ثمانية عشر شهراً إذا جرى كل شيء على ما يرام ، ولكن ليس الحال دائماً على ما يرام ، وهكذا نقرأ العلاقة بين الصين والهند في منتصف (القرن التاسع الميلادي) .

«المنتجات الصينية نادرة ، ومن بين أسباب هذه الندرة هي كثرة الحرائق في

كانفي Kanfu الميناء ومستودع البضائع العربية والصينية . وفي بعض الأحيان فإن المراكب تتعرض للغرق أو السطو والنهب ، أو أن تضطر للانتظار طويلاً في المرافئ وبالتالي اضطرارها لبيع منتجاتها في بلدان غير عربية . وفي بعض الأحيان تضطر للتوقف طويلاً لأسباب التصليح» . . .

ونقرأ في كتاب عجائب الهند «بالنسبة لكل الذين وصلوا إلى الصين أو زاروا الصين فإن السفرة دائماً عبارة عن مغامرة خطيرة ، ولم ينج أبداً أي شخص من حادث أو من قدر خلال الذهاب أو الإياب في هذه السفرة ، وفي حالة السلامة فإنها المعجزة» .

بعض المناطق تكون موبوءة بالقراصنة ، وينتشرون حتى في الخليج ، التجار العرب يخشون جداً من قراصنة ضفاف شمال الهند ، لأن زوارقهم ذات المجاذيف أسرع من قواربهم الشراعية الثقيلة ويدافعون عن أنفسهم . . . ورغم مبالغات مغامرات السندباد فإنها تعكس الخوف الذي يلف هذه السفرات والمخاطر التي يتعرض لها الملاحون . . . كما أن مصاعب الملاحة هي الأخرى لا تقل خطورة ، حيث إن معدات الملاحة والخرائط الجغرافية التي في معظمها فارسية هي سطحية وبسيطة[١] .

وحتى بعد الدراسات التي أمر الخليفة المأمون بإجرائها ، فإن المراكب التي كانت تضل الطريق في البحر تعد في حساب المفقودات . ومع ذلك فإن كل هذه الأخطار لم تثبط من عزيمة التجار العرب الذين يسيطرون بقوتهم البحرية في ذلك الوقت وبشكل مطلق على التجارة الدولية . وما من شك فإن اليهود شاركوا في الملاحة في المحيط الهندي حتى أندونيسيا ، وكذلك المراكب الصينية التي كانت تصل إلى الخليج العربي (الفارسي) . ولكن هذه التجارة بقيت في القسم الأكبر منها بيد المسلمين ، واستمرت هكذا خلال أكثر من قرنين ، ثم زادت الملاحة وتمت لصالح الصينين واليهود إلى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي . . . والبرتغالي فاسكو دوكاما Vasco de Gama الذي كان تحت قيادة البحار العربي المعروف أحمد بن ماجد Ahmed ibn Madjid قام بأول رحلة في هذه المياه ، وحاول عبثاً طرد الملاحين

---

(١) ومع ذلك استفاد العرب والفرس فائدة كبيرة من الشراع اللاتيني المثلث ، الذي يساعد الملاحين في الملاحة ضد التيار . وقد تبنته بلدان البحر الأبيض المتوسط ومن ثم شمال أوربا خلال القرن الخامس عشر الميلادي . كما إن البوصلة ذات المنشأ الصيني وصلت الى الغرب عن طريق العرب ولم تستعمل الا في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي .

المسلمين . . .

وإذا كان الطريق البحري نحو الشرق الأقصى كثير الاستعمال في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، فإن طريق الحرير القديم لم يترك ، وكان ينقل من خلاله الكميات المحدودة والخفيفة ذات القيمة العالية .

وبسبب الهزات السياسية التي هزت وسط الإمبراطورية ، فإن طريق السنكيانك Sin-Kiang لم يكن أمينا بالرغم من تحالف التانك Tang مع هارون الرشيد في عام ٧٩٨م ، ولذلك كان جل النشاط يتمركز في وسط آسيا .

إلى الصين براً

عند المغادرة من بغداد فإن طريق الصين يخترق الهضبة الإيرانية عبر طريق خانقين التاريخي ثم كرمنشاه فهمدان والري حتى خراسان Kharasan ، هناك بالقرب من نيسابور Nishapur تفرع يؤدي إلى الهند عبر بلخ Balkh ، باميان Bamijayan ، كابل Kabul ، وملتان Multan على نهر الإنديس Indus ، وعلى المسافر الذي ينوي الذهاب إلى الصين أن يختار بين طريقين . .

الأول عبر طاشقند Tachkent ، طلاس Talas ثم يصعد إلى الجزيرة ، والثاني نحو كشجار kachgar ، وواحات على جانبي تاريم Tarim ، وتيرفان Tarfan إلى الشمال ، يركاند yarkand وخوتان khotan إلى الجنوب ، والطريقان يلتقيان فيما بعد باتجاه ولاية صينية اسمها خان – سو kan-sou وشنكان changan .

في هذه الفيافي والصحاري الرهيبة حيث الصخور والرمال فإن هذه الأماكن المقفرة لا تخلو من خطورة ، وخاصة من عصابات السلب والنهب ، ولذلك فإن القوافل تنطلق مجتمعة ومسلحة ومعها حماية ويكون العمل ضد تقلبات الجو من باب المستحيل ، فالعواصف تهب فجأة فتفيض الأنهار وتقطع الطرق وتغرق الماشية والبشر وتارة تسقط الثلوج ، وفي الصيف الحر الشديد يجفف الينابيع والسواقي ، على كل حال تستغرق السفرة من ثمانية إلى اثني عشر شهراً .

من أهم البضائع التي يتاجر بها المسافرون في المناطق الإسلامية النسيج بسائر أنواعه ، وفي الإمبراطورية البيزنطية بقي الحرير يحتل المرتبة الأولى ، حيث استمرت «بالات» الحرير تنقل عبر آسيا الوسطى وخراسان ، وعبر هذا الطريق ينقل الخزف من الصين . وقد تعود الناس على طريق بغداد ، وما من شك عبر خراسان ، بعد أن يرسل

واليهم إلى الخليفة هارون الرشيد عشرين قطعة من الخزف الصيني الأميرالي، التي لم ير مثلها إلى يومنا هذا، «وكان ينقل عبر هذا الطريق توابل لا مثيل لها لا في الهند ولا في جنوب شرقي آسيا، وأحسن أنواع المسك[١] وأغلى أنواع الزبرجد، وهذه المواد لها سوق رائجة في بغداد».

كما كانت تصل أيضاً من الصين إلى بغداد على الطريق نفسه، وبعد قرنين أو ثلاثة أنواع الشاي الذي حل محل الحرير في تجارة الشرق والغرب.

بالمقابل فإن البضائع العربية والفارسية كانت تصدر نحو الصين (عطور ولؤلؤ ومرجان وبخور وقماش فاخر)، وفي الطريق يشتري الأتراك حريرهم وقطع النقود مقابل السلاح وصفائح النحاس واللباد، وبشكل خاص من العبيد.

البضائع المتبادلة

لقد كان العبيد أحد أهم ضرورات إدارة دفة المجتمع العباسي، لدرجة أن أي تباطؤ في تجنيدهم يمكن أن يؤدي إلى خلل واضطراب في الاقتصاد. والسبب لأن هناك أعمالاً كثيرة لا يقوم بها إلا العبيد، سيما وأن المسلمين يفهمونهم بسهولة أن الدين يمنع معاملة المسلم كعبد. وفي الواقع فإن حروب الفتح هيأت أعداداً كبيرة من سجناء الحرب من كلا الجنسين، وقد أصبح الكثير منهم عبيداً... وبما أن التوسع العربي أخذ مداه فقد كان من السهل التوغل في الأراضي البيزنطية وغرف السجناء...

ومع ذلك فقد أصبح هذا المعين غير كاف إبان الحكم العباسي[٢]، وتجار الرقيق راحوا يبحثون في كل مكان حيثما توجد أسواق الرقيق، لدرجة أصبح سوق النخاسين في بغداد من أغنى الأسواق، فهو يعرض الرقيق من كل الأنواع والأصناف، «الدلال ينادي» أنظروا شاهدوا هذه البضاعة! تلك! تفحصوها! وعندما يشعر الزبائن أن هناك بضاعة أخرى في الطريق ينتظرون وصولها، وهناك تباع كل أنواع الخادمات، مصرية وسودانية وأذربيجانية وبربرية وحبشية، وبألوان مختلفة بيضاء وسمراء وخمرية ومن الجنس الأصفر... الخ[٣].

(١) المسك في قناني محكمة وأحسن انواعه من التيبت.

(٢) العبيد الأتراك كانوا أقل في زمن الخليفة هارون الرشيد.

(٣) من ليالي الف ليلة وليلة.

كانت القارة السوداء تزود الإمبراطورية بالكثير من المصريات والحبشيات والصوماليات ، وحتى السنكاليات والتشاديات . وكان الرقيق يشترى من رؤساء القبائل أو يؤسرون من قبل عصابات ترتبط بعلاقات مع كبار تجار المدن الأفريقية ، أو التي تطل على الجانب الغربي ، ثم ينقلون من مكان إلى آخر براً أو بحراً ، فمنهم من هم مخصصون للخصي ، ومعظمهم السودانيون ، وهؤلاء أثمانهم غالية وكانت تتم عملية إخصائهم في مصر .

وكان هناك مصدر آخر للعبيد : أوربا الوسطى والشرقية ، بلد السلاف ، وكان الطلب عالياً على الرقيق من هذه المناطق . ومنذ القرن الثامن الميلادي احتل رقيق هذه المناطق مكان رقيق البلدان الكاثوليكية لأوربا الغربية . وكان هناك الكثير من الطرق التي تستخدم لنقل الرقيق إلى الأسواق الكبرى ، من الشرق عن طريق الفولكا Volga (تل عاصمة الخزر) ، وأرمينية Armenie (أحد مراكز الإخصاء) ثم إلى الري وبغداد ، وكان هناك طريق آخر عبر البحر الأسود وثالث عبر الراين والدانوب .

وفي أوربا الغربية يقع أهم سوق للنخاسين في مدينة فيرون ، وهذه المدينة هي أحد أكبر مراكز الإخصاء ، ومعظمهم يخصون بأيدي اليهود ، ومن هناك يقتادون عبر الساوون Saon والروون Rhone ثم يصطحبون إلى ناربون Narbonne أو إلى آرل ثم يرسلون إما إلى إسبانيا أو إلى الشرق . وهناك سوق آخر مهم هو البندقية Venise التي أصبحت منذ منتصف القرن الثامن الميلادي أحد مراكز العبيد ، بالرغم من احتجاجات البابوات وكذلك براغ Prague وهكذا يؤسر نساء ورجال في كل أوربا لبيعهم إلى المسلمين والمسيحيين في بيزنطة : الأنكلو - ساكسونيون يسفرون إلى البندقية عبر ليون lyon أو يرسلون مباشرة إلى إسبانيا أو إيطاليا . .

من البضائع المتبادلة أيضاً السلاح المصنوع في أوربا الغربية ، فالجرمانيون يعدون من أحسن صناع السيوف ، والسبب يعود إلى علاقاتهم بشعوب آسيا الوسطى ، وربما الأتراك الذين يشتهرون بصناعة السيوف التي تمتد إلى قرون سحيقة ، كما أن الشرقيين يقيّمون الأسلحة الإسكندنافية التي هي في الوقت نفسه قوية ومرنة .

المسلمون يشترون أيضاً من الغرب المعادن والفرو والخشب للصناعات البحرية ، ذلك لأن أوربا متخلفة وفقيرة وليس لها سوى التجهيز . وما يشترى لا يتعدى مسائل ترف مخصصة إلى طبقة النبلاء ، وبشكل خاص الأقمشة والحرائر والفساتين المطرزة بالذهب ، أما الفساتين والبدلات الخاصة للملك شارلمان وبناته فكانت تبهر الشعراء .

وقد أصدر أحد الملوك الفرنج وهو لويس الجرماني Louis Germanique مرسوماً يقضي بمنع جنوده من ارتداء الحرير المطرز ، والكوين AL cuine فضح القس الذي يختلس النقود من الكنيسة لشراء الأرواب الفاخرة . ومن ناحية أخرى كانت أوربا تستورد كميات محدودة من التوابل والأعشاب الطبية والعاج والصفائح الذهبية والفضية .

وهكذا كانت هناك طرق عديدة سالكة بين الغرب والشرق ، أحدها يخرج من إنكلترا ويمر عبر الطرق البريطانية الفرنسية حتى يبلغ لشبونه Lisbonna ثم إلى الموانئ الإسلامية على الأطلسي . وطريق آخر ينطلق من ألمانيا وبلدان الفرنج عبر ناربون Narbonne حتى يبلغ إسبانيا وشمال أفريقيا .

كما أن الموانئ الإيطالية ، أمالفي Amalfi ، كانت Gante ، سالرن Salerne قد بدأت هي الأخرى بلعب دور الوسيط بين مدنها ومدن شمال أفريقيا ، كتونس Tunis ، الفسطاط fostat ، القيروان kairouan . ومن خلال ضفافها كانت البضائع الإسكندنافية والروسية ترسل إلى بغداد ، كالفرو والسلاح والعسل والشمع والخيول ، والعبيد بطبيعة الحال بالمقابل ينقلون من بغداد الأقمشة والصحون وقطع النقود . وكان التبادل يتم عبر القوافل ، وخاصة على طريق المرور النهري ، كأنهار الدون Don والفولكا volga ونهر الدنيبر Dniep باتجاه الخزر والبحر الأسود ، حيث يجري تبادل البضائع الإسلامية والأذربيجانية ، ومن كوركان Gurgan ومن خوارزم kwarizm ولكن بعضها يصل حتى مدينة كييف kiev وأعالي الفولكا والبلطيق Baltique .

وهكذا كان العالم الإسلامي يحتل مركز الصدارة في الحركة التجارية ، التي كانت تلبي مستلزمات الاستهلاك الذي يجسد النشاطات الاقتصادية . هذه الدعوة إلى الاستهلاك زودت الحضارة الإسلامية بالقاعدة المادية ، التي بدونها لم يكن هذا الإشعاع الحضاري ينير العالم . هذا الازدهار الذي كان يرتكز على سلطة سياسية قوية أتاحت للإمبراطورية العباسية أن تتحول إلى بوتقة تتمازج بها وشائج الحضارة القديمة والحديثة ، القريبة والبعيدة ، حيث أوربا القرون الوسطى وجدت أحد جذورها الرئيسية .

الفصل التاسع

التعطش للمعرفة

«اطلب العلم ولو في الصين» . . . حديث شريف

«مداد العالم أكثر قدسية من دم الشهيد» . . . حديث شريف

الأمويون ، البناة الكبار وعشاق الشعر والخيال والفروسية العربية والبداوة ، يبدو أنهم لم يكونوا مستعدين للتأثر بأفكار الإمبراطوريات التي دمروها . ومنذ نهاية القرن التاسع[١] بدأ بعض الخلفاء الأمويين يهتمون بالعلم ، وخاصة الكتب والمكتبات ، وكان أولهم معاوية ثم الأمير خالد بن يزيد الذي يروى عنه أنه «دعا فريقاً من الفلاسفة اليونانيين الذين يقيمون في مصر ، والذين يتعاطون اللغة العربية بطلاقة وفصاحة ، وقد طلب منهم ترجمة المؤلفات الخاصة بالكيمياء من اللغتين اليونانية والقبطية ، كانت هذه أولى التراجم المنجزة في الدولة الأموية»[٢] .

ولكن هذه الأعمال بقيت بالتحديد الأعمال الوحيدة في ذلك العصر ، وجابر «والمقصود هنا جابر بن حيان» هو العالم الوحيد المشهور في الغرب ، كما أن العناصر اللاتينية في الكيمياء هي ، جملة وتفصيلاً ، من اكتشاف المبشرين المسلمين في القرنين التاسع والعاشر ولأسباب سياسية .[٣]

إذن ، لم يكن هناك أي علم عربي محض قبل العباسيين ، وإنما بدأت هذه العلوم تظهر بعد دراسة المؤلفات اليونانية القديمة ، ولاسيما الفارسية والهندية ، التي أدخلها العرب إلى مؤلفاتهم الأصلية . . .

والإسلام استوعب فيما بعد ما حملته الثقافات التي سبقته ، ومن ثم نقل هذا الإرث إلى الغرب منذ القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر .

ميراث القدماء

تعود أصول نشر الثقافة الإغريقية في الشرق الأوسط العربي إلى ماضٍ قديم جداً ، فبعد مجلس نيسا الكنسي في (٣٢٥) للميلاد ، أدركت الكنيسة أن مسيحيي سوريا ، الذين يتكلمون الآرامية والسريانية ، بعيدون عن أصول الشعائر والطقوس الدينية الكاثوليكية أي عن اللاهوت الكاثوليكي ، ولذلك أسست مدرسة في نصيبين على الحدود السورية مع وادي الرافدين تحت إشراف أفيرم . وأفيرم هذا هو أحد رجال الدين في الكنيسة . ولكن بعد فترة استولى الفرس على نصيبين وهرب أفيرم إلى أديس ، حيث فتح مدرسة أخرى اكتسبت بسرعة شأناً عظيماً . . .

(١) الدولة الأموية زالت سنة ٧٥٠م أي منتصف القرن الثامن – المراجع .

(٢) ابن العالم : ذكره المستشرق J. Vernet

(٢) حول هذا الموضوع ، انظر المراجع J.Vernet

وكان يدرس فيها السريانية ، وعن هذه اللغة بدأوا ترجمة المؤلفات اليونانية منذ نهاية القرن الرابع . وقد بدأوا بعلم اللاهوت ثم بعض نصوص أرسطو ، ولكن في ٤٣١م أدان المجلس الكنسي لأفيز انشقاق النسطوريين عن الكنيسة[١] . وقد أعلن معظم المنضمين إلى مدرسة أديس تأييدهم لهذا القرار ، ولكن الإمبراطور زنون Zénon وهو من أنصار مذهب الشخصية الواحدة للمسيح أمر بإغلاقها في نهاية القرن الخامس ، وعادت المدرسة من جديد إلى نصيبين ، حيث أصبحت أكبر جامعة للكنيسة النسطورية(وضمت كلية للطب وألحقت بمستشفى) . عندئذ ، مدت الكنيسة تأثيرها وانتشر مبشروها في آسيا الوسطى وباتجاه الجزيرة العربية حيث بلغت المدينة . . .

ولكن نشطت حركة ترجمة المؤلفات اليونانية القديمة بتشجيع من الملك الساساني كسرى الأول ، وبشكل خاص في مدينة جنديسابور غرب إيران . ورغم أن كسرى ، العدو اللدود للبيزنطيين ، ولكنه كان من كبار المعجبين بالحضارة والثقافة البيزنطية . وقد منح اللجوء إلى آخر فلاسفة المدرسة الأفلاطونية بعد غلق مدرسة أثينا . وبأمر من الملك جوستينين عام ٥٢٩م ، أراد كسرى بناء أكاديمية في جنديسابور شبيهة بتلك التي ذاع صيتها في الإسكندرية . في هذا المركز الفكري النشط حيث تهيمن الثقافة اليونانية ، كان يدرس المنطق والطب والرياضيات والفلك (وكان فيها مرصد) ، وبالإضافة إلى الفارسية ، كانت تستعمل السريانية التي نقلت إليها مؤلفات كالتي وجزء كبير من سقراط ومنطق أرسطو وبحوث عن الفلك والرياضيات والزراعة . ومن بين المترجمين الذين بقيت أسماؤهم لامعة ، نذكر الراهب جورجوا الذي ترجم الوركانيون لأرسطو ، وراهب آخر «سيفروس» الذي ترجم التحليلات ونسب إليه نشر الأرقام التي يقال عنها «عربية» في إيران ، والواقع هي من أصل

(١) النسطورية التي ولدت في بداية القرن الخامس منحت المسيح شخصيتين : شخصية إنسانية والتي فيها مريم وشخصية إلهية دينية ، وبعد مناقشات طويلة وخاصة بين قس الإسكندرية والمعتنق المذهب الأرذودوكسي ونستوريوس قس القسطنطينية ، والداعية الرئيسي للمذهب الجديد ، دعي مجلس كنسي للانعقاد في عام ٤٣١م أدان فيه النسطورية ، في وقت انتشرت فيه رقعة النسطورية وامتدت إلى الصين عبر ايران والجزيرة العربية والهند . ورغم وجود ٢٠٠ قس فان عدد المنضمين إليه أخذ يقل بعد غزوات تيمورلنك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ومن ثم بعد صراع القوميات في الشرق الأوسط في القرن التاسع عشر .

هندي . . . وقد وجد الأساتذة والأطباء في جنديسابور القريبة من وادي الرافدين أنفسهم منجذبين نحو بغداد حيث تكريم وتشريف الخلفاء لهم . فجبريل طبيب هارون كان حفيد أكبر طبيب مشهور في زمانه «ابن بختياشي» الذي درس في جنديسابور .

وكانت هناك قنوات أخرى تصب علومها في بغداد ، وتزاوجت مع الثقافة العربية-الإسلامية . وفي حران في سوريا كان هناك مركز فلسفي غنوصي ، حيث تدرس فيه الفلسفة ذات الأصول البابلية والتي أُسُسُها الدراسات اللاهوتية . . . ومنذ فتح الإسكندرية فإن كل المناطق اكتسبت طابع الفكر اليوناني . وتحت تأثير الفكر الأرسطوي فإن العلوم الطبيعية والطب ، وحتى الفلك والرياضيات ، احتلت فيها مكانة مهمة ، وكان يلمس أيضاً التأثير الأفلاطوني والمسيحي المتسم بالإغريقية . هذه هي التيارات أو الاتجاهات الفكرية الأجنبية ، ولكن مايطلق على اسم الفلسفة فإنها تعود بالأصل إلى اليونان ، التي أصبحت فيما بعد أساس الصفوة الفكرية في العالم العربي-الإسلامي .

العصر العربي للعلوم العربية

في تلك الفترة انتعشت حركة الترجمة ، ودراسة المؤلفات القديمة أدت إلى انفتاح العالم العربي على عالم حوض البحر الأبيض المتوسط الإغريقي ، واتجه العباسيون نحو الآفاق الفكرية والروحية للبلاد المفتوحة التي كانت مهملة من قبل الأمويين ؛ ولذلك لعبت المدرسة النسطورية والجنديسابورية دوراً كبيراً في خلق هذه الثقافة الجديدة وميلادها . . . وكان الدعم الرسمي لهذه النهضة الفكرية الجديدة كبيراً من قبل الدولة[١] .

هارون الرشيد كان يشجع رجال العلم والمترجمين ، وقد أرسل بعثة إلى بيزنطة لدراسة المخطوطات اليونانية ، وترجم قسم منها إلى العربية والسريانية . . . وكان جعفر البرمكي ذو الثقافة العالية يدفعه في هذا المجال ، أما والده يحيى البرمكي فكان يستقدم الأطباء والفلاسفة من الهند ، وكان حريصاً جداً على راحتهم وسلامتهم من

---

(١) كان المنصور قد طلب من الإمبراطور البيزنطي أن يرسل له مؤلفات في الرياضيات ، وخاصة مؤلفات إقليدس . كما أن مكتبات المدن المفتوحة مثل أوربا والنصير أغنت مكتبات الخليفة . وكان العرب يطلبون بعض الأحيان المؤلفات والكتب كتعويض عن الحرب .

أجل نقل المعرفة إلى الإمبراطورية . . .

والمأمون[1] بدوره أرسل بعثة إلى القسطنطينية وكلفها بالبحث ودراسة مؤلفات أرسطو ، في الوقت نفسه الذي كان يكرم فيه الشعراء ورجال الفكر والمترجمين والنقاد . . .

كان العرب يعتبرون علم التنجيم كأحد أنبل العلوم ، لأنه ذو صلة بمتطلبات العبادة ، حيث يمكن تحديد اتجاه القبلة وتحديد ساعات الصلاة وشهر رمضان . . . الخ . وتحت تأثير رجال خراسان ، وبالذات البرامكة ، فإن أولى التراجم إلى العربية كانت في مجال الفلك والرياضيات . . . من جهة أخرى شجع الساسانيون كثيراً علوم الفلك ، وكان الهنود متقدمين فيه ، وقد نقل عنهم الكثير ، وكان هناك الرصد يعمل منذ فترة طويلة في مدينة مرو . وبعد فتح الإقليم استمرت الأبحاث موقعياً ، ومن ثم في بغداد ومع بداية حكم هارون الرشيد وربما قبل عهده ، بدأوا بترجمة مؤلف سيدهارتا Siddharta وهو من المؤلفات الهندية حول الفلك في القرن الخامس . هذه الترجمة تبعتها تراجم عناصر أقليدس والماجيست Almagest ، وربما بناءً على مبادرة من الرشيد (ومن المحتمل أن العلماء في ذلك الوقت بينوا للرشيد أن علماء الفلك عنده غير قادرين على فهم المؤلفات الهندية لقلة معرفتهم بالهندية) ، وفي الفترة نفسها ، وضعت جداول عن حركة الكواكب ، استناداً إلى الدراسات الهندية والفارسية وبعضها من قبل أمين مكتبة هارون ، الفضل بن نوبخت .

والمأمون المولع جداً بعلم الفلك والتنجيم ، أمر هو أيضاً علماءه بإعداد جداول فلكية جديدة وقياس درجة مدار الوسط من أجل حساب أدق لمحيط الأرض . ولكن أكثر ماجلب اهتمام الفلكيين العرب هم اليونانيون وتحديداً في الرياضيات .

في مجال الطب ، ترجمت الباندكتا Pandectae الطبية ، وهي موسوعة يونانية لآرون الاسكندري . وكان الطبيب الخاص لهارون ، جبريل ، يعتمد على الكناش ، وهو مؤلف مدون بالسريانية ، ويستمد علومه من كالين وسقراط وبولديجن . وقد بقي

---

(١) حسب الروايات أدرك المأمون أهمية التراث الإغريقي من خلال رؤيا ، حيث جاءه في المنام ارسطو وأجاب عن اسئلته : ماهو الجمال . . . ماهو جميل للعقل وماهو؟ ماهو جميل للقانون وماهو؟ مايوافق عليه الأغلبية . . . ثم قال له : قل لي شيئاً آخر . . . من يعطيك النصح عن الذهب يكون لك كالذهب ، احترام وحدانية الله .

معتمداً لفترة طويلة . . . وأيوب ديدس هو الآخر اعتمد على مؤلف بالسرياني ، نكالتين وسيمون دو تيبوث .

علي سهل الطبري ، ابن مترجم مؤلف الماجست ، دوّن من جانبه مؤلفاً طبياً كبيراً أطلق عليه «جنة الحكمة» . . أما في مجال الزراعة فنذكر فندونيوس آناتوليوس الذي ترجم في العلوم الزراعية بأمر من الرشيد . .

ومن بين المترجمين المختصين بالعلوم نذكر حنين بن إسحق ، الذي كان معاصراً لعهد هارون وابنه يعقوب وصهره هبيس ، ثم أعقبهم بعد ذلك مسيحيون نسطوريون اعتنقوا الإسلام . والعلوم العربية تدين بالكثير من الاقتباسات للمؤلفين اليونان ، كأرسطو وأقليدس وكاين وبتلوميه وآخرين . وأخيراً نذكر الأولاد الثلاثة لموسى بن شاكر ، أحد قدماء قطاع الطرق ، الذي أصبح فيما بعد مديراً لشرطة الخليفة . وقد كان أحدهم مختصاً ماهراً بعلم الفلك ، والآخر جيداً في الميكانيك ، والثالث بالهندسة . وقد تركوا بحثاً ترجم فيما بعد إلى اللاتينية (العقد الفريد في الهندسة) وهؤلاء أسسوا مدرسة خاصة بهم للمترجمين والعلماء .

وهناك مؤلفات أخرى ترجمت من اليونانية إلى السريانية ، اللغة التي استمروا في استعمالها طيلة فترة بقاء المدرسة في جنديسابور حتى نهاية القرن الثامن ، ولكن نشطت الترجمة أكثر فأكثر من اليونانية والسريانية إلى العربية ، حيث أصبحت اللغة العربية لغة كل المفكرين في الشرق الأوسط ، حتى إن اليهود استمروا في كتابة مؤلفاتهم في العبرية ، والفرس بالفارسية ، والمسيحيون بالسريانية . ومع تطور حركة الترجمة فإن المترجمين لم يعودوا مهتمين بترجمة مؤلفات القدماء ، ولكن أخذوا يعملون على تحقيقها ودراستها ، وفي بعض الأحيان يتخذون منها مواقف مخالفة بل حتى خالفوا أرسطو نفسه .

المشكلة لدى بعض الناس أنهم يبالغون في احترام أفكار أرسطو ، لدرجة التقديس ، ومع ذلك فإنهم يعلمون بأن هذه الأفكار ما هي إلا مجرد نظريات صادرة من اجتهاده ، ولم يدعِ أبداً بأنه ممنوح الرعاية الإلهية ولا أنه معصوم من الخطأ .

وهكذا تحول المترجمون إلى علماء وليس مجرد «ناقلين» ، وقد شهد ذلك العصر ولادة روح علمية حقيقية مثل الخوارزمي ٨٣٠م ، وقد كان أكبر علماء عصره في الرياضيات ، وهو الذي أدخل النظام العشري ، وله كتاب اسمه «الجبر» الذي هو في الأصل في مادة الجبر التي تدرس في الغرب ، والبيروني علي بورن هو أحد العلماء

الموسوعيين دون بحوثاً في الفلك ، وكان جغرافياً مشهوراً ، ثم ابن سينا ١٠٣٧ م وهو فيلسوف وطبيب وكيمياوي وفيزياوي ومؤلف ذو إنتاج خصب ، وقد كتب في كل المواضيع بضمنها الموسيقى .

وهناك عالم آخر هو ابن الهيثم ١٠٣٩م ، وهو عالم كبير ورياضي وفيزياوي ، وهو مؤلف كتاب فريد في علم البصريات في العالم العربي .

والرازي ، الطبيب المعروف بأعماله وجهوده عن مرض الجدري ، وقد وضع دائرة معارف واسعة عن الطب اعتمدت على العديد من التجارب السريرية ، كما ألف سلسلة من المؤلفات الفلسفية واللاهوتية والعلوم الطبيعية ، ونشير بذلك إلى المؤلف الشهير «سر الأسرار» الذي دخل لأول مرة في مجال الكيمياء . وعمر الخيام (١١٢٦)م وهو مشهور برباعياته أكثر من مؤلفه العلمي الذي ترك بصماته على الجبر وبمستوى عالٍ . .

والجغرافيون العرب احتلوا أيضاً مكانة مرموقة ، فالقوة الاقتصادية للعباسيين دفعت في عصرها البحارة والتجار إلى أقاصي الأرض ، ووصف العالم العربي الذي تركه اليونانيون لم يعد ذا قيمة . ومنذ بداية القرن التاسع توجهت الأنظار نحو العلوم الجغرافية العربية التي أثارت وقتها انتباه العالم .

وإذا ما استثنينا الحكايات الطريفة والفنطازية عن الرحلات ، فرحلة التاجر سليمان إلى الشرق الأقصى والرحلة عند البرغالين لابن فضلان أو عجائب الهند للقبطان بوزرك والكثير من المؤلفين الذين ذكروا ما شاهدوه بدقة وبعيدين عن الخيال .

وهؤلاء هم رؤساء البريد ، الذين تضطرهم وظائفهم للسفر والترحال ، فنجد ابن خرذادبة (نهاية القرن التاسع) وكتابه «حكاية المدن والأقاليم» ، الذي وصف فيه بدقة كل بلد مع معلومات دقيقة عن الطرق التجارية والمسافات التي تفصل بينهما .

واليعقوبي (نهاية القرن التاسع) الذي يصف في كتابه «البلدان» الطرق المؤدية إلى حدود الإمبراطورية في ضوء مشاهدات الرحالة الذين يثق بهم . وكذلك المسعودي ٩٥٦ للميلاد وهو رحالة كبير جاب بحر الخزر والأبيض المتوسط ، وقد اعتبر المسعودي أن الجغرافيا هي جزء من التأريخ ، مجسداً أهمية المكان عند الإنسان والحيوان والنبات ... ومؤلفه «مروج الذهب» يعتبر ثروة كبيرة من المعلومات كموسوعة الطبري ٩٢٣م الذي اختط التأريخ منذ الخليقة .

كل هؤلاء العلماء وضعوا العراق وبغداد في مركز الأرض ، ومنها يبدأون في

الوصف ، فهم يحددون ملاحظاتهم عن البلدان الإسلامية ، فالقرب لا يهمهم ولا توجد أي رواية عن رحالين عرب في أوربا خلال القرون الوسطى ، وبعض الصفحات التي يكرسونها للغرب تعكس احتقارهم للشعوب الوثنية الكافرة البربرية القذرة ، فالعالم العربي كان يقف عند حدود الشرق ومعه يتم التبادل في كل شيء .

ولكن بالنسبة للجغرافيين الآخرين ، كابن روسته أو البلخي كاتب التعليق على الخرائط ، فان الجزيرة العربية هي الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لهم ، وبالتحديد مكة التي تحتل مركز العالم ، حيث نزلت فيها الرسالة السماوية على النبي محمد ﷺ باذلين كل جهودهم في أن تتفق مشاهداتهم وملاحظاتهم مع القرآن . وقد أعدوا أعمالاً علمية تجاوزت مشاهدات المقدسي البسيطة في القرن العاشر ، وقد وسع حقل الجغرافيا ليضمنوها أيضاً الدراسات العرقية والعادات واللغات والمسافات ، واعتمدوا على حساباتهم وملاحظاتهم ومشاهداتهم .

وفي بداية القرن الحادي عشر بلغت الجغرافيا العربية ذروتها مع العالم البيروني ، وقد اصطحب محمد المازني إلى الهند وحمل معه تحفة كتاب الهند ، وهو ثروة ضخمة من المعلومات عن هذا البلد ، ثم مضى هذا العالم إلى تحقيق الأعمال الجغرافية السابقة ودراستها ، تاركاً ملاحظات قيمة عن الفلك والجغرافية الفيزيائية ، وأخيراً اكتشف طريقة لتخليص مياه البحر من الأملاح وحدد الوزن النوعي للمواد .

كل هذه النشاطات ، وعلى رأسها التراجم والنماذج الأدبية والتحقيقات والهوامش والمؤلفات الأصلية ، كانت الأساس في تكوين المكتبات الضخمة . ومكتبة الرشيد وحدها كان يديرها جهاز كامل من الموظفين والعمال .

وكل هذا العلم الإغريقي هل كان منسجماً مع ثورة الإيمان ؟ كان كل العلماء يتساءلون في جنديسابور وفي البصرة أو في بغداد : هل هناك تناقض بين الفلسفة اليونانية ومفهوم العالم والتعاليم التي فرضها القرآن على المؤمن ؟ بالنسبة للكندي ٨٧٣م وهو أول فيلسوف مسلم منح لقب «فيلسوف العرب» ليس هناك اختلاف أساسي بين ما جاء به النبي محمد ﷺ والفكر الإغريقي . وتبعه في ذلك الفارابي وابن سينا ، ولكن لم يؤخذ من الإسلام إلا الجانب الاجتماعي . أما الغزالي ١٠٥٨-١١١١م فهو من أكبر علماء المسلمين ، ويمكن مقارنة تأثيره على المسلمين بتوماس أكن في علم اللاهوت المسيحي ، هذا العالم يعطي ثقلاً أكبر للفكر الصوفي .

نعم ، كل هذا الازدهار العلمي وظهور علماء الفلسفة في عصر هارون الرشيد والقرنين اللذين تليا عصره ، أطلق على تلك الفترة بالعصر الذهبي للعلوم العربية . . وفي حوالي عام ٨٣٠م منح المأمون هذه الحركة العلمية الواسعة دعماً كبيراً ، وذلك بتأسيس بيت الحكمة في بغداد ، وكانت عبارة عن أكاديمية مخصصة للتراجم «والبحوث النوعية» ، وأصبحت شبيهة بمكتبة الإسكندرية ، وكان الطلاب الذين يقبلون فيها يتسلمون راتباً من هذه المؤسسة .

كانت بغداد فعلاً مركز إشعاع فكري ، يتوجه إليها علماء الفلك والرياضيات والأطباء والجغرافيون والفلاسفة والمترجمون والمؤلفون ، يأتون من كل بقاع العالم ليتلقوا المزيد من العلم . وكل هؤلاء كانوا يشاركون في الازدهار العلمي والفكري . لقد أعادوا للشرق القديم حضارة وثقافة جديدة نتج عنها هذا التطعيم والتزاوج للثقافات الكبيرة لحوض المتوسط والقرون الوسطى .

هذه المعرفة ، وهذه الجهود الجبارة التي تعد بمثابة حقل واسع للمعارف ، أصبحت في النهاية لصالح العرب ، حيث منحتهم المقومات والمرتكزات الأساسية التي تساعدهم على التقدم .

الثقافة العربية في الغرب

للوصول إلى علماء الغرب الذين لم يمتلكوا لحد ذلك الوقت إلا مبادىء اللاتينية من الإمبراطورية البيزنطية ، اختطت الثقافة العربية ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأول انصب على تنقيب المؤلفات الطبية ودراستها . وقد بدأ العلماء العرب يجوبون بقاع الأرض بحثاً عن هذه المؤلفات ، منطلقين من أفريقيا وقبرص حتى ساليرن حيث توجد فيها منذ فترة طويلة مدرسة مشهورة في الطب . وكان قسم من هذه المؤلفات أو الكتب ينقلها طبيب بعد أن ترجم قسماً منها في قرطاجة ، هذا الطبيب اعتنق الإسلام باسم قسطنطين . كتب الطب العربية منحت علماء مدرسة ساليرن دفعاً علمياً كانت بأمس الحاجة إليه آنذاك ، ومنها انتقلت إلى مدارس أوربية أخرى . .

أما قبرص وجنوب إيطاليا فإنها كانت تمارس تأثيراً كبيراً على الأوساط الفكرية المسيحية ، وقد تفتحت ثقافة يونانية ـ لاتينية عربية بفضل التسامح وتذوق الأفكار والنتاجات ، وخاصة من لدن الأمراء المسلمين والملوك النورمانديين ، حيث استخدم

فردريك الثاني علماء شرقيين . وقد أمضى ميشيل سكوت أحد كبار مترجمي طليطلة حياته عند هذا الملك ، وهناك قدماء آخرون مثل تيودور أنتيوش المفكر العربي اللامع الذي أصبح سكرتيراً للملك ومنجمه .

وليونارد دوبيز الذي قيل عنه إنه أدخل الأرقام العربية إلى الغرب . وهناك أيضاً مانفريد المستعرب جداً الذي وصفه البابا «سيد العرب» ، كما أن شارل أنجو نفسه الذي وضع نهاية لهيمنة القبائل الجرمانية في قبرص ، ترجم الموسوعة الطبية للرازي ، وبذلك وضع أسس مركز للترجمة في اللاتينية والعربية والإيطالية والتي وضعت في خدمة صفوة المفكرين .

وهنا لا يفوتنا الدور الكبير الذي لعبه المترجمون والعلماء في إسبانيا والبرتغال ، فقد أنجز عمل ضخم آنذاك ، شارك فيه مسيحيون ويهود ومسلمون من كل الجنسيات ، وهذا ما شجع علماء أوربا قاطبة أن يتسارعوا نحو المناهل الجديدة للثقافة ، حيث وجدوا المؤلفات القديمة التي لم يعرفوها حتى ذلك الحين إلا القليل ، وأحد الأوائل الذين ذهبوا إلى إسبانيا هو الرياضي والفيلسوف كلبرت ، والذي أصبح بابا تحت اسم سلفستر الثاني عام ٩٩٩م . وقد اقتدى به طوال ثلاثة قرون الكثير من العلماء ، نذكر منهم الفيلسوف الإنكليزي داتيل دو مورلي .

وفي حوالي ١٢٠٠م كانت كبريات المؤلفات العلمية القديمة قد ترجمت إلى اللاتينية ، ففي سيكوفي ترجم روبرت دو شيشستر «الجبر» للخوارزمي . وفي برشلونة ترجم أفلاطون دو نيتولي في أواسط القرن الثاني عشر بحثاً عن الفلك للبتاني والجبر لإبراهيم بن يحيى .

كما أن هرمانوس السلافي ترجم القرآن والعديد من المؤلفات عن علم الفلك ، وجيراردو كومون ترجم بحثاً عن الفلك الماجست ، وكذلك عدد من مؤلفات الكندي وأقليدس وأرخميدس وبطليموس وأبيقراط والرازي وابن سينا ، حتى بلغ مجموع هذه المؤلفات سبعة وثمانين كتاباً ، لدرجة أنه أصبح مدرسة كاملة للترجمة .

التراجم إلى العبرية احتلت بالمقارنة المرتبة الثانية ، ومن بين علماء اليهود في ذلك الزمان عائلة تيبون التي أقامت في غرناطة في لينيل في مارسيليا وفي مونبيليه ، وعلى مدى عدة أجيال كان إنتاج هذه العائلة خصباً ، حيث موي نيبون وقع على ثلاثين مترجماً ، وبروفاتيوس الذي كان يقيم في مرسيليا كتب وألف العديد من الكتب ، من بينها المناش التي استمر الفلكيون يراجعون ترجمتها في اللاتينية حتى

عصر النهضة .

كما أن الملوك وأمراء إسبانيا المسيحية أو المسلمة شجعوا هذه الحركة العلمية ، ففي القرن الحادي عشر شهدت إشبيلية ، ملقا ، قرطبة ، المرتا وماجورك وطليطلة ازدهاراً علمياً رائعاً . والأمراء المسيحيون الصغار كانوا في الوقت نفسه الذي يقاتلون فيه قبائل المور ، يشجعون الدراسات العربية والتراجم ، ففي القرن الثالث عشر كانت صورة الفونس الحكيم تسيطر على الجميع .

وفي عهده وضعت خرائط الفونسينية ، التي بفضلها استرشد الملاحون لفترة طويلة . . وفي البرتغال أنجز أحد أحفاده وهو الملك دينس مؤلفاً مشابهاً ، ولكن أقل اتساعاً ، كما ساعد على ترجمة المؤلفات العربية والإسبانية واللاتينية إلى البرتغالية ، ثم أسس بعد ذلك جامعة لشبونة التي تحولت فيما بعد إلى «كوامبرا» .

ويبدو أن الأعمال الفكرية التي وردت من الشرق مع الحروب الصليبية كانت قليلة بالمقارنة ، وكان من النادر أن نجد من يهتم بالمؤلفات العلمية والأدبية للشعوب المحتلة من قبل المقاتلين المسيحيين ، والذي اهتم بهذه المؤلفات هو الإنكليزي أورلارد دو بات ، وأنتين أنتيوش ، حيث مكثوا فترة في الشرق وترجموا الكثير ، وقد ترجم أورلارد الخرائط الفلكية للخوارزمي ومؤلفات أقليدس .

الشعر في زمن الرشيد

تأثير اليونانية القديمة والهندية على الشعر العربي ضعيف ، فالعرب لم يعرفوا الشعر الإغريقي ، وأوميز لم يكن بالنسبة لهم سوى اسم ، وكانوا يجهلون حتى أرستوفان . وفي فترة العباسيين لم تجر أية ترجمة للشعر الأجنبي ، من جهة أخرى يعتقد الكاتب الجاحظ أن ترجمة الشعر مستحيلة «فالقافية تكسر والميزان ينحرف والجمال يختفي ولم يعد سوى النثر» .

فالعرب اهتموا بالفلسفة وعلوم الشعوب المحتلة ولكن لم يهتموا بشعرهم . .

وعلى مدى قرون عديدة قبل الإسلام لم يكن للشعر العربي الوجداني منافس ، هذا الشعر الذي يمجد ، في لغة غنية جداً منذ عصور سحيقة ، شجاعة الأبطال وجمال الطبيعة والعشيقة والحيوانات ووحشة البدوي في الصحراء . كان هذا هو نموذج الشعر في العصر الأموي ، ولكن مع تطور الوقت وتطور الحياة فإن التعبير عن المشاعر قد تطور هو أيضاً ، وأخذ الأدب المدني الرفيع يحل محل شعر الصحراء

والفروسية والخيول ، ولم تعد الحياة البدوية سوى ذكريات . وبذلك ظهر نوع جديد من الشعر على شكل قصائد قصيرة ، تغني النبيذ والرياض والصيد والحب للمطربات والفتيان .

وخير من يمثل هذه المدرسة من الشعر هو أبو نؤاس ، واسم هذا الشاعر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخليفة هارون الرشيد في القصص الشعبية ، وقصة ألف ليلة وليلة تذكره دائماً .

تقول شهرزاد : «كان الرشيد يرسل للبحث عن الشاعر كلما اجتاحته الهموم ليسمعه يرتجل القصائد وينظم القريض في ضوء حادثة يرويها له» .

أمضى الشاعر سنينه الأولى في البصرة ، مركز الإشعاع الفكري ، وهو شاعر مجون ، فهو يروي مغامراته ومجونه ويسخر من نفسه ، خاصة عندما يكون في حالات السكر ، وهذه نماذج من خمرياته :

هيا : اسكبي الخمر واسكبي
قولي : إنه الخمر
ولا تسقني بالسر وقولي أمام كل الناس
منذ ارتشفت منه غانية ناعسة
وقالت
من الذي يضرب على بابي :
إنها صديقة ، هل أجبنا بأن كؤوسهم فارغة
إنهم يريدون الخمر وبحاجة إلى غانية من دون تأخير
قالت : أعطيته ، لفديتي
هذا الرجل ذي النظرات الرخيصة واللامعة كالغجر

وشأنه شأن الكثير من شعراء الشرق فإن أبو نؤاس كان يبكي كثيراً الزمن المفقود وفقدان ندماء الكأس ، ويجتاحه في بعض الأحيان حزن عميق :

الناس ليسوا سوى أكداس من الأموات والأحياء
من أحياء وأموات
ومن وهب سراج العقل فإنه سينصهر مع العظام المنخورة
والإنسان العاقل من يتأمل بعمق جمال هذا العالم من دون غشاوة
فإن هذا الجمال بالنسبة له كعدو لدود بلباس الصديق .

أبو نؤاس ، وهو الخطيب الكبير ، كان دائماً يرجو رحمة ربه ، فقد قال بأني ضعيف جداً وأرجو رحمتك ، لأنه يعتبر نفسه حقيراً بالنسبة للخالق ، وهو يضيف : ومهما عظم ذنبي وجدت رحمتك أوسع .

ورغم كثرة المفكرين والشعراء ، كان يعتبر شعر أبو نؤاس من بين أروع النتاجات في الثقافة العربية ، كما نلاحظ في النص الذي رواه المسعودي عنه .

«لقد غنى أبو نؤاس الخمر وطعمه ، وعطره وجمال لونه ، ورونقه وتأثيره على الروح . لقد وصف في شعر فخامة الموائد والكؤوس والمدعوين وسقي الخمر صباحاً ومساءً» .

لقد نظم أبو نؤاس الشعر بموهبة كبيرة ، وإن لم يكن هذا المجال واسعاً وبلا حدود لقيل أن لا شعر وجدانياً بعد أبو نؤاس .

وقد تناول أبو نؤاس علاجاً سيئاً كان قد وضعه له طبيب من عائلة نوبخت (عائلة من العلماء كان أحدهم أمين مكتبة هارون الرشيد) ، وقد هجاه بقصيدة شتم . . بينما يدعي الآخرون بأنه أنهى أيامه الأخيرة في السجن ، بسبب قصيدة انتهاك . ويدعي البعض الآخر بأنه وجد ميتاً عند صاحب حانة ، وربما هذا أقرب إلى شخصيته .

ومع ذلك ، فإن هذا الشاعر المفضل ونديم أمسيات الرشيد إذا ما غطى على بقية الشعراء ، فإنه لا يمكن نسيانهم ، فهم شعراء محدثون بالنسبة لعصرهم ، حيث كانوا يستمدون شعرهم من حياتهم اليومية آنذاك ، ولديهم المشاعر والعواطف نفسها ، وحبهم كالشاعر الصعلوك ابن دبل أو ديك الجن ، وقد غنى الخمرة هو أيضاً إذ يقول :

انهض الآن
فإننا سنشرب كأس المدام
اسقني من هذا الشراب العجيب
ولا شيء غير الخمر
وكان انتقام الخمر أكيداً من خطواتنا المترنحة . . .

ونذكر أيضاً مسلم بن الوليد ، هذا البوهيمي المتفتق بالموهبة والعبقرية ، المعروف برقة أسلوبه وأصالة شعره الغزلي وغالباً ما يذكر أبياته . .

ما قيمة الحياة من غير حب وعشق للعيون الجميلة
والموت نشوان حتى الثمالة ؟

وهناك نديم آخر لهارون الرشيد ، وكان مثله لأبيه المهدي ، هو الشاعر أبو العتاهية ، وكان قد أصبح زاهداً بعد حياة المجون ، وبدأ في نظم القريض الفلسفي .

غرور الشباب والفراغ والإفراط هي الأساس في إفساد الرجال . .[١] ولكي تتخلص من الشر لابد أن تجابهه . . وعندما يمضي العمر فسوف لا ينفعني بكاء الباكيات وسوف ينسى ذكري .

كان يعرف أيضاً كيف يلتمس الخليفة ويشكره :

إن أميري ن من النبل لدرجة أن الناس لو كانوا يستطيعون لامتدوا على الأرض وجعلوا وجناتهم سجادة له .

دوابنا يحق لها أن تشكو منك

تأتيك خفافاً ومن دون حمل ، وتتحرك محملة ثقلاً .

بشار بن برد ، نديم الخليفة المهدي ، وأحد رجال البلاط ، كان ينتمي إلى الجيل نفسه وهو من أصل فارسي ، هذا الشاعر الكبير كان يكتب بالعربية ، ولم يكن يخفي عواطفه للمزدوكية دين أجداده ، هذا الشاعر لم يكن محبوباً من قبل الكثيرين بسبب تهجمه على العرب ، ولكن موهبته الكبيرة وحب المهدي له كانت تشفع له ، ولكن عندما تخلى عنه الخليفة المهدي عام ٧٨٣ قتل ورميت جثته في دجلة ، وقد انعكس مجونه على شعره كما في الأبيات التالية :

نعم والله

مفتوناً بسحر عيونك

وكذلك عبر عن الحزن واليأس :

أبكي على أولئك الذين أذاقوني طعم حبهم ثم ما أن انتشيت بجمالهم رحلوا ،[٢] لقد أقيمت علاقة طويلة بيني وبين الحزن ، وسوف لن تنقطع أبداً وعلى أبد الدهر . والحقيقة فإن قائمة هؤلاء الشعراء من الندماء طويلة ، خاصة خلال القرنين الثامن والتاسع ، وكانوا يمزجون بين المجون واللذة وحب الخمر وحب الله ،

---

(١) إن الشباب والفراغ والجده   مفسدة للمرء أي مفسدة

- المراجع -

(٢) أبكي الذين أذاقوني مودتهم   حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

جاروا عليّ ولم يوفوا بعدهم   وكنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

(وهذان البيتان للعباس بن الأحنف)   - المراجع -

وكانوا ينحازون بحبهم للنساء الجواري والوصيفات ، مع ذكر تفاهة الحياة والرعب من الموت . ونذكر أخيراً بعضاً من شعر عباس بن الأحنف ، أقرب ندماء الرشيد ، وهو من أصل فارسي[1] . وهنا يصف الحب وقد ترك أثراً كبيراً في إسبانيا

آه يا سعد ، تكلمت عنها ، وزدت هيامي بها
زد لتزيد من ولهي لها
أكن لها شوقاً كبيراً
وقلبي لا يحب سواها
لهفتي لها ليس له أول ولا آخر

هذا الشعر العاطفي الحي في زمن هارون الرشيد وأولاده ترك أثراً عميقاً في الأدب العربي ، ومع ذلك فقد تلاشى واختفى في القرن الذي تلاه . على كل حال ، فكل شيء أصيل وقريب من المشاعر الإنسانية لابد له أن يظهر ولو بعد حين .

ولادة النثر أو ظهور النثر

في مجال الأدب ، بقي التأثير الإغريقي محدوداً جداً ، ولكن الكثير من الأدباء من أصل فارسي كانوا يفضلون ترجمة الأعمال الكبيرة إلى لغاتهم ، وعلى سبيل المثال ترجمت الرواية الهندية «كليلة ودمنة» إلى الفارسية أولاً ومن ثم إلى العربية من قبل ابن المقفع في القرن الرابع . ويروي بيدباد قصة اثنين من بنات آوى في بلاط الأسد ، وقد عرفت هذه الرواية انتشاراً واسعاً ، وقد استلهم منها العديد من الروايات . ثم إن ابن المقفع ترجم إلى العربية مجلداً ضخماً عن تأريخ فارس بقي مرجعاً تأريخياً ـ جغرافياً عن هذه البلاد إلى أمد بعيد ، وهناك أعمال أخرى ومؤلفات أخرى جاءت من إيران وأغنت الثقافة العربية الإسلامية بدءاً من التأريخ والعلوم الروحية مروراً بالتراث والعادات .

وعند الكلام عن النثر لابد من ذكر الحركات المعادية للأوساط المتعاطفة مع الفرس ضد الثقافة العربية ـ الشعوبية ، التي ترجمت بعبارة «حركة الأخبار» .

من جهة أخرى ، فإن مقلدي الفرس فخورون بتفوقهم الفكري وبالمواقف المهمة التي يتخذونها في الدولة ، وهؤلاء يمثلون صفوة عالية ومرموقة . على الجانب الثاني

---

(١) يقال إنه من بني حنيفة – المراجع .

دعاة المحافظة على القيم والتراث العربي الذين يحرصون على الوفاء إلى الماضي الذي صنع المجد .

هذا الصراع بين دعاة المحافظة على الماضي ودعاة التجديد خلق نوعاً من الاختلال الاجتماعي بل وحتى العرقي ، انعكس على سائر الأصعدة وخاصة في زمن هارون الرشيد .

في بداية القرن التاسع ، وفي وقت اختط فيه النثر العربي اتجاهاً جديداً ، منح الجاحظ النثر العربي نمطاً رائعاً . والجاحظ ولد في البصرة وعاد إليها ليقضي بقية حياته بعد عمر ناهز التسعين عاماً أمضى معظمها في بغداد . . ومن نمطه الجديد أصدر أعمالاً لا مثيل لها في زمانه ، ولربما في زمن آخر . فقد ترك لنا الجاحظ حوالي مئتي مؤلف في مواضيع مختلفة : علوم وتأريخ وصرف ونحو وفقه . وفي كتاب البخلاء يصف الجاحظ المجتمع في صورة رائعة ، ويشيد بالكرم العربي الذي على نقيض البخل الفارسي . أما في كتابه «الحيوان» فإنه بحث في التأريخ الطبيعي ، وكتاب البيان هو بحث في علم البلاغة أو علم البيان ، كما أنه خصص كتباً للأتراك وأخرى للنصارى وكتباً عن اليهود . . .إلخ . لقد حمل الجاحظ نفساً موسوعياً ، فقد أرسى في زمانه أسس المعرفة ، فهو عالم وأديب وفيلسوف يقارن بموليير وفولتير ، وقد قال عنه أحد الكتاب المعاصرين له «ابن قتيبة» : «فقيه كبير وهو من أكبر المتمكنين في إيجاد الدلائل والبراهين ، وأكبر المهرة في تكبير كل ما هو صغير وتقليل كل ما هو كبير ، وله من القدرة على أن يخلق التناقض وهو يعرف كيف يبرهن تفوق السود وتفوق البيض» .

وقد كتب شارل بلا ، أحد المتخصصين عن الجاحظ «قوة الملاحظة ورسم شخصياته تشبه بريز وموليير أكثر منها إلى الكتاب العرب الآخرين» .

لقد احتلت مؤلفات الجاحظ المرتبة الأولى في الأدب العربي ، وهذه المؤلفات تقع في مجلدات ضخمة تأخذ الطابع الروائي ، وتركت تأثيراً بالغاً على الثقافة الجديدة .

الأدب يعني «التقليد» أو «العادة» ولكن هذه الكلمة في القرون الأولى من نشر الدعوة الإسلامية أخذت معنى «التربية الجيدة» ، «التمدن» ، «اللطيف» . وحسب المفكر أف كابريل فإن الأدب هو تطور في علم الأخلاق والعادات البدوية خلال الإسلام ، وبمرور الزمن اكتسبت هذه الكلمة معنى فكرياً لتشير إلى «كمية المعرفة

التي يحملها الإنسان المتمدن» . .

في بداية الإسلام كان المثقف هو ذلك الرجل الذي يعرف الرسالة المحمدية وبلاغة اللغة العربية ، وهكذا كان الرجل يذهب إلى البادية ليكسب الفصاحة في اللغة . . وفي الوقت نفسه الذي كان يتعمق في العقيدة الإسلامية كان يتزود بعلوم سكان الدول المفتوحة . وفي هذا السياق فإن أول أديب في هذا الإطار كان عبد الله ابن المقفع مترجم «كليلة ودمنة» التي حققت التفاهم بين الثقافة العربية والثقافة الفارسية . . الأجنبية .

والواقع ، فإن نمو المعارف الأجنبية وانتشارها الواسع كان يمكن أن يعرض الثقافة العربية إلى الخطر . وخلقت نوعاً من التقاطع في المعرفة اتجهت بفعل تأثير الكتاب نحو النتاجات الفارسية والهندية ، وبالتالي انتصار الشعوبية .

ثبت الجاحظ تعريفاً لمفهوم الثقافة العامة وهو في اكتساب العلوم والشعر والتأريخ والفصاحة والجغرافية والعلوم الدينية ، مؤكداً على دور المفكر والتأمل وضرورة الكتابة بلغة واضحة من دون لف ودوران . .

هذا المفهوم للأدب الذي هو الثقافة العامة ، ممزوجة بحرية التفكير ، تغير بعد عهد المأمون ، حيث أصبح الأدب هو روعة الحديث أو الكلام ، وانحصر الأدب في كبار الكتاب أو في المؤلفات التي تنصب على وصف المجتمع في أسلوب رقيق على الغالب «المقامات» . وفي هذا المجال نذكر الحريري والهمداني . . وهناك ناشر آخر اسمه ابن قتيبة مارس أيضاً تأثيراً كبيراً في العصر العباسي ، ومن بين ما ترك كتاب عن الشعر والشعراء وكتاب آخر عن المعرفة ، ويعد هذا الكتاب من أوائل الكتب المتداولة في التأريخ واللغة العربية . . ومؤلفه ، رغم أنه أقل قيمة من مؤلف الجاحظ ، فقد كان يهاجم الشعوبية بقوة ، وقد استغل موهبته في الدفاع عن العروبة ضد الكتاب الأجانب .

كما يمكن أن نذكر أيضاً عدداً آخر من مؤلفات الكتاب للفترة نفسها ، ولدينا فهرس بها بفضل القوائم التي نشرها الكتبي البغدادي «ابن النديم» الذي لم يحص فقط التراجم ، ولكن المؤلفات الأصلية في اللغة العربية . وقد احتلت المؤلفات الأدبية مكاناً واسعاً إلى جانب المؤلفات العلمية .

الفصل العاشر

من الرشيد إلى سليمان القانوني

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾
صدق الله العظيم

الآثار التي تركتها الحرب الأهلية في بغداد سرعان ما اندثرت وتلاشت ، واستعادت المدينة شيئاً فشيئاً أبنيتها ومعالمها ، ونسي الناس المجابهة بين ولدي الرشيد . لقد توفي المأمون Mamun عام ٨٣٣م ، وتسلم السلطة ولده المعتصم[1] Mutasim الذي تخلى عن جيش الأبناء لاكتشافه مؤامرتين متتاليتين حيكتا ضده . فاضطر المعتصم إلى الاعتماد على رجال يرتبطون به شخصياً . وبما أن جيش الأبناء Abna كان يرابط في بغداد ، فقد قرر المعتصم اختيار سامراء عاصمة له ولجنوده الجدد ، وهناك تدفق المتطوعون وكان أغلبهم من الأتراك عليه ، وهذه القوات الجديدة هي التي مهدت لوصول سلطة جديدة غير العباسيين .

ولم يمضِ وقت طويل حتى أدركت هذه القوات بأنها القوة الوحيدة بيد الخليفة ، وبأنه من دونها لا يساوي شيئاً . ومن هذه النقطة لم يعد لوصولها إلى السلطة سوى خطوة واحدة ، حيث كان الخليفة مخترقاً بالكامل . وفي عام ٨٦١م اغتال قادة الجيش المتوكل Mutawakil الذي خلف المعتصم ، وربما كان اغتياله بسبب تحريض من ابنه البكر المنتصر Muntasir الذي بويع بالخلافة ، وهكذا أصبح العسكر أسياد الإمبراطورية . . ومن حينها أصبحوا هم الذين يختارون الخلفاء من بين أفراد العائلة العباسية ، وهذا الاختيار كان ينصب على الولاء والإذعان لهم بغض النظر عن الكفاءة والمقدرة . ومع ذلك ، فقد وصل الخلافة شخصيات عباسية قوية ، كالخليفة الموفق Muwaffak ، شقيق المعتمد Mutamid الذي لم يألُ جهداً لإعادة هيبة الإمبراطورية ولكن بعد فوات الأوان ، حيث كان الزمام قد فلت من أيديهم . .

وفي عام ٨٦٥م كان الخليفة المعتز Mutazz في سامراء والخليفة المستنصر Mustan في بغداد وكلاهما تعرضا للاغتيال .

العاصمة سامراء تركت عام ٨٩٢م ، ولكن ذلك لم يغير شيئاً ، حيث كانت سيطرة القوات وهيمنتها تزداد على الدولة ، وقد قمعت عدة ثورات من بينها ثورة الزنج[2] التي

---

(١) المعتصم هو ثامن خلفاء بني العباس وهو ابن هرون الرشيد وأخو الأمين والمأمون (المراجع) .

(٢) ضمت هذه الحركة فئات من أصول مختلفة : زنج وعرب وفرس ويهود ومسيحيين . وحسب الفرضية الأكثر قبولاً فإن هذه الثورة انبثقت نتيجة ظروف غير انسانية فرضت على الزنوج في مستعمراتهم في مناطق الأهوار حيث زراعة قصب السكر ، ولكن المؤرخ الاسلامي شعبان Shaban يعتقد بأن هذه الانتفاضة التي كان يدعمها التجار ، تستهدف السيطرة على طرق التجارة في شمال افريقيا .

اتخذت البصرة مقراً لها لفترة محدودة ، مما جعل جنوب العراق بين ٨٦٩-٨٨٣ مسرحاً لأحداث دامية . وهناك أيضاً ثورة القرامطة [(١)] Qarmat التي انتشرت بعد فترة قليلة في كل المنطقة ، وأقيمت دولة ديمقراطية منها في البحرين .

وهناك أسباب أخرى لهيمنة الجيش ، منها أن كلفة إدامته تشكل حوالي نصف ميزانية الدولة ، ومن أجل مجابهة هذه المصاريف عمدت الدولة إلى طريقتين : إما منح القادة العسكريين نوعاً من الاستقلال المالي في مناطقهم التي تدفع للجيش من موارد الضرائب ويرسل الباقي إلى بغداد ، أو منح القادة المتميزين حق استثمار موارد بعض الأراضي . . هذا النظام أو هذا الأسلوب الذي يطلق عليه بالإقطاع Iqta كان قائماً ، ولكن لم يكن يتمتع به إلا أعضاء العائلة الإمبراطورية والشخصيات التي تسدي خدمة استثنائية للدولة . . أما تعميم هذا الامتياز على القادة العسكريين فإنه ساهم في إضعاف السلطة المركزية .

أما ولاة الأقاليم الذين كانوا يمارسون الإقطاع ، فإنهم كانوا يستوفون حصصهم مباشرة وبصورة مستقلة ، وهذا يعني أن بغداد أي المركز لم تكن تمارس سيطرة مالية على هذه الأقاليم التي كانت تتفتت الواحدة تلو الأخرى .

ففي مصر تحول أحمد بن طولون Ahmed bn Tulun الذي أعاد تنظيم الجيش والإدارة إلى حاكم مستقل ، وخلفه ولده من بعده . وإذا ما استطاع الخليفة استعادة سلطته فإنها سرعان ما تسقط بأيدي الأتراك ، فالأخشيديون Les Ikhshid حافظوا على السلطة خلال أكثر من خمسين سنة حتى وصول الفاطميين . .

وهكذا تقهقرت الإمبراطورية ، فقد حل محل ولاة الخليفة في إقليم أذربيجان وسيرفان وكردستان والديلم شمال سوريا حكام محليون ، بشكل خاص من الأتراك ومن الجيش العباسي . ففي خراسان التي أناطها المأمون إلى طاهر بن الحسين Tahir bn Hussein تحولت السلطة إلى وراثية ، ثم سقط هذا الإقليم بعد ذلك بيد الصفارين Saffarides ومن بعدهم السامانيين Samanides .

ولكن الغزنويين Ghazenvides طردوهم ليقيموا بدءاً من أفغانستان صرح إمبراطورية قوية امتدت حتى البنجاب Pendjab . لقد أصبحت سلطة الخليفة في كل

---

(١) القرمطية Quarmatisme نسبة إلى مؤسسها قرمط ، وهي إحدى فرق الإسماعيلية . هذه الحركة ذات صفة اجتماعية وبصبغة مسيحية .

مكان هدفاً للنيل منها والإطاحة بها ، ولكن أي حاكم جديد لا يستطيع الحكم دون أن يكون خليفة . كان حضوره أو وجوده في قصره في بغداد ضروريا للحفاظ على أمن الناس ، حتى إنهم استمروا في صك النقود باسمهم وذكرهم في صلاة يوم الجمعة . انهيار سلطة الدولة تسبب في خلق طبقة أرستقراطية تحولت شيئاً فشيئاً إلى مجتمع الإمبراطورية ، وعلى المنوال نفسه وعلى صعيد أدنى .

أفرز الإقطاع Iqta النفوذ نفسه الذي يمتاز به الجنرالات من ولاة الأقاليم : فالضابط أو الجنرال الذي تعود له محاصيل أو واردات الأرض ، رغم أنه ليس هو مالكها ، سرعان ما يحسب من طبقة اجتماعية متميزة ، ويندرج فيها معظم الأجانب الذين يجندون لصالحهم موظفي الخدمات العامة . ومن هذه الطبقة بالذات ظهر في عام ٩٢٤م لقب أمير الأمراء .

أمير الأمراء Amir-Al umara هذا في الواقع قائد أعلى إداري وعسكري (أو على الصعيدين الإداري والعسكري) ، وهو أعلى من درجة وزير ويتمتع بسائر الصلاحيات ، ولكن أية صلاحيات ؟ فهو إجراء عديم الأهمية ، لأن تعيين شخص قوي لا ينقذ إمبراطورية لم يعد لها وجود [١] .

أخذت الفوضى تتفاقم ، ففي غضون عشر سنوات تولى خمسة أمراء وعدد من الخلفاء ، من بينهم الراضي Radi ، حمله الجيش إلى السلطة عام ٩٣٢م وتوفي بعد ثماني سنوات ، ثم اعتلى العرش أخوه الذي نحي عنه بعد فقء عينيه ، ثم أعلن المستقصي Mustaksi خليفة بدلاً منه . هذه الظروف كانت ملائمة جداً لكي تحمل إلى السلطة أكثر الناس شراسة (جرأة) وتسلحا . ففي عام ٩٤٥م توجه البويهيون Puyides في الديلم Daylam على ضفاف بحر الخزر إلى بغداد ليقيموا فيها .

البويهيون

كان البويهيون شيعة ، ولكن هل تمكنوا من التعايش مع الخليفة السيء المبغوض؟ هل ياترى من يحل محله لكي لا يخلق صراعات جديدة مع الأمراء السنة؟ فالمنطق هو الذي حمله إلى الخلافة .

---

(١) تاريخ الإسلام . M.A

إذن ، لابد أن يكون هناك خليفة ، ولكن من دون أية سلطة ، إنه أمير المؤمنين بإيمانه وضمان العدالة . عليه فإنه لا يشكل أي خطر عليهم ، أما البويهيون فإنهم أطلقوا على زعيمهم لقب شاهنشاه Chahinchah أي ملك الملوك ، مستمدين هذا اللقب من العائلة الساسانية .

حكمت هذه العائلة أكثر من قرن ، إلا أنها تفتتت تحت تأثير ضربات غزاة آخرين من جهة الشرق . ورغم صعوبة فهمهم للحضارة العربية الإسلامية فإن البلاد شهدت في بداية حكمهم ازدهاراً يعيد إلى الأذهان عصر الرشيد وبداية حكم العباسيين .

سقوط الخليفة ووضعه تحت الوصاية لم يؤثر مطلقاً على انحطاط المجتمع أو تدهور الثقافة . على العكس شهدت بغداد نشاطات جديدة في كل الميادين ، ذلك لأن الأمراء البويهيين كانوا من كبار المشجعين لتطور الثقافة . لقد أقام البويهيون النصب في العاصمة وفي الأقاليم التي يحكمون فيها ، وخاصة في شيراز وأصفهان ، وفي القاهرة وحلب ونيسابور ، حكمت فيها سلالات جديدة شجعت الإعمار والحياة الفكرية .

ولم يكن هناك أمير أو تاجر يخلو بيته من مكتبة غنية . ففي أفغانستان كان محمود الغزنوي ، فاتح الهند ، قد خصص بلاطه إلى أربعمئة شاعر للتمجيد بمنجزاته ، وفي عهده ألف الفردوسي Firdousi شاهنامه Chahname الرائعة أي «كتاب الملوك» حيث يشيد بماضي إيران الفارسي واللغة الفارسية ، التي كانت الأساس في النهضة الفارسية وازدهارها .

وفي حلب كان قصاصو حكاية ألف ليلة وليلة يلتفون حول سيف الدولة ، وكانوا يستمدون بطلهم من شخصية هارون الرشيد ، يستقطبون إليهم مجموعة من الشعراء والمحققين والكتاب والعلماء ، أمثال الفارابي القادم من طبرستان ليواصل مؤلفاته ، والمتنبي الذي نظم أروع قصائده . . .

كما أن آسيا الوسطى ونيسابور وعاصمة السامانيين Samanides شهدت هي الأخرى عصرها الذهبي ، فإن القاهرة التي تعني «النصر» ، التي أسست في زمن الفاطميين كانت تشتهر ببلاطها ، الذي لم يكن يوجد بضخامته إلا عند العباسيين . وهكذا فإن غياب سلطة الخليفة لم تؤثر على الشغف بالمعرفة ، على العكس فإن توزع مراكز السلطة قد نوع الثقافة وأضاف ازدهاراً إلى رونقها . ذلك لأن كل أمير كان يركز جهوده على تطوير إقليمه . ونتيجة لهذا التنافس وتنامي الزيادة السكانية وبناء المدن

استمر التقدم الاقتصادي في كل العالم الإسلامي . في عام ١٠٥٥ دخل الأتراك السلاجقة إلى بغداد ، وهؤلاء من الطائفة السنية ، وغير وصولهم الخارطة السياسية للشرق من دون تغيير لمسار الحضارة . وكان من أهم نتائج غزوهم استعادة الخليفة بعض الشيء من تألقه . وفي نهاية القرن الثاني عشر نرى الخليفة الناصر أحد الخلفاء اللامعين يحاول أن يجمع بين السنة والشيعة ، معتمداً على الجمعيات شبه الدينية وشبه الحرفية الفتوى Fatuwa . إلا أن الغزو المغولي عرض كل شيء إلى الدمار بدءاً من الخليفة نفسه .

وفي الأيام الأولى من عام ١٢٥٨م انهار كل شيء ، فقد هجم هولاكو حفيد جنكيزخان على بغداد . وفي ١٨ شباط من العام نفسه استسلم الخليفة المعتصم Al-mutasim ونفذ به هولاكو حكم الإعدام مع جميع أفراد عائلته .

وعلى مدى ثمانية عشر يوماً والمذابح تتوالى وتتكرر . ويقول المؤرخون إنه قد سقط خلال هذه الفترة ما بين ٨٠٠٠٠ إلى مليوني قتيل . ومامن شك فإن هذا الرقم مبالغ فيه . .

ويستطرد هؤلاء المؤرخون بأن هولاكو أمر بحرق أحياء بأكملها ، ولا سيما مرقد الإمام الكاظم . لقد منيت بغداد بكارثة كبيرة ولم تعد عاصمة الخلافة الإسلامية ، نعم استمرت الحياة في هذه المدينة ولكن ليس سوى مركز لأحد الأقاليم يسيطر عليها الفاتحون الذين يتوالون عليها . ففي سنة ١٣٩٣ استولى عليها تيمورلنك Tamerlan . ومع ذلك ، بقي الخليفة ولكن بصورة رمزية أو اسمية ، واستطاع أحد العباسيين وهو المستنصر أن يلجأ الى القاهرة ، فاستغله السلطان بيبرس Baibar وأعلنه خليفة ليضفي الشرعية على حكمه ، ولكن من دون أن يمنحه أية سلطات عدا صلاحية منح الألقاب إلى بعض الأمراء باعتباره «ظل الله في الأرض» .

وفي عام ١٥١٧دخل السلطان العثماني سليم الأول أو سليم المرعب القاهرة ، وألقى القبض على الخليفة وأرسله إلى إسطنبول ، حيث سمح له السلطان سليمان القانوني بالعودة إلى مصر . ومات فيها عام ١٥٤٣ ومنها انقطع أثر العباسيين .

الحركات التبشيرية

ما إن توفي أبو مسلم الخراساني عام (٧٥٥م) حتى ظهرت حركات تدعي بانتمائها إليه ، وظهرت طوائف ذات تيار تبشيري انتشرت بشكل خاص في أوساط

السكان الفرس وأتراك خراسان وطبرستان . هذه الحركات تستمد تعاليمها من ديانتهم السابقة : المازدوكية Mazdesime والزرادشتية Zarastrisme والإسلام وحتى المسيحية .

أولى هذه الحركات كانت حركة سنباد Sunbad ، وهو من أصل مازدوكي من أتباع أبو مسلم ، ولذلك فقد جمع حوله بسرعة كثيراً من الأتباع ، وحسب الطبري يقدرون بحوالي ٦٠٠٠٠ ستين ألفاً . استطاع سنباد أن يقنع هؤلاء بأن أبا مسلم لم يمت وإنما تحول إلى حمامة ، وطارت لتحط في قصر من نحاس حيث يعيش بصحبة مازدا Mazda .

سنباد سار نحو العراق ، إلا أنه ألقي القبض عليه بين الري وهمدان Hamadan من الجيش المكلف من قبل المنصور . ومن المحتمل أنه قتل في جورجان Jurjan . وبعد حركة سنباد بفترة قصيرة انتفض أحد رفاق أبو مسلم وهو إسحق التركي Ishak Al-Turki . مؤكداً بأن أبو مسلم مبعوث من قبل زرادشت Zaradste وبأنه حي ومختف في مدينة الري وبأنه سيعود . .

وفي حوالي عام ٧٥٦ اندلع في منطقة مرو تمرد المقنع Muganna وهو أحد الإيرانيين ، ملثم بلثام أو (قبعة من ذهب) ، أخذ المقنع يجمع حوله الأتباع من جديد .

لقد كان المقنع يؤكد بأن الله بعث آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً وأبا مسلم وأعادهم . وقد انضمت إلى هذه الدعوة شعوب طاجكستان ، وقد استهوتهم مذاهب أقرب إلى الفوضى بالمقارنة مع التعاليم الدينية . وبعد أن فشل المقنع في حركته اعتكف في أحد التحصينات ثم انتحر .

بعد هذه الحركات ، امتزج اسم أبو مسلم الخراساني بالخرافات والهرطقات الدينية ونسج أساطير الخيال والغموض في الأوساط الشعبية وأوساط الكسبة والمهنيين . ومع مرور السنوات صنعت هذه الأساطير من أبو مسلم شخصية بطولية وحامي حمى المظلومين ، وقد تناولت معظم البحوث الأدبية قضية الخراساني وما نسج عنه في كل أنحاء الشرق وخاصة بين الحرفيين والدراويش في بلاد الأناضول ، فالبكتاشيون Bektachis نسبوا مؤسسهم حاج بكتاش Bektach إلى أبو مسلم وجماعته ، وزخرت الكتب ولحد اليوم بقصص وروايات عن أبو مسلم وخاصة لدى الأتراك والفرس .

سامراء

في عام ٨٣٦ خلف المعتصم المأمون فقرر أن يقيم عاصمته في سامراء ، وكان هذا الموقع حينذاك يحل فيه قليل من الناس وأغلبهم من الرهبان الذين شجعوا الخليفة على إقامة صرح إمبراطوري هناك . .

وعلى غرار جده المنصور ، الذي أتى من كل أنحاء الإمبراطورية بالصناع والمعماريين لبناء المدينة المدورة La Ville ronde ، فإن المعتصم أصدر أمراً على شكل مرسوم يقضي باستدعاء العمال والبنائين والاختصاصيين والحدادين والنجارين وكل الصناع واستقدامهم ، كما أمر بنقل كل أنواع الخشب والصاج وجذوع النخل من البصرة ونواحيها ، ومن بغداد وكل مناطق السواد Sawad ، ومن تركيا وسوريا ، كما استقدم أخصائيين في نحت المرمر وبنائه .

وعلى مدى خمسين عاماً والخلفاء العباسيون يبنون عشرات القصور حتى بلغت ثلاثين قصراً ، سعة كل قصر كبيرة لدرجة أنه لا يمكن التجوال فيه إلا على الخيول . . وكان يفصل بين كل قصر وآخر مساحات خضراء وأنهار وأحواض تمتد على مئات الأمتار على ضفاف دجلة . .

أول قصور المعتصم هو جوسق الخاقاني Djausag Al Khagani الذي يغطي ١٧٥ هكتاراً . يولج إلى هذا القصر عن طريق بوابة ضخمة يتوسطها ثلاثة أعمدة ، ارتفاع كل منها ١٢ متراً ، وتشكل الإيوان وهي مزينة بالجص .

هذه البوابة تطل على شاطىء دجلة وتؤدي عبر ممرات كبيرة إلى بلاط فسيح تحيط به قاعات الخزينة ومستودعات السلاح والثكنات والجوامع والمخازن . بعد هذا البلاط هناك بلاطان يجب اختراقهما للوصول إلى قاعة العرش ، الذي يكون على شكل مربع تعلوه قبة . وهذه القاعة تطل عليها من كل جانب أواوين إلى القاعات الأخرى ، ثم يلي بعد ذلك صالة الحريم harem ، وأخيراً صالة أخرى تعلوها قبة برسوم ولها خمسة أبواب تطل على فناء أو ساحة بطول ٣٥ متراً ، وعرض ١٨ متراً فيها حوضان مرتبطان بقناة . وتحت هذا الفناء يوجد كهف «سرداب» لتمضية القيلولة فيه خلال حر الظهيرة وفيه أيضاً أحواض .

وفي المجمع توجد ساحة للعب البولو مع منصة لمشاهدة الألعاب ، بالإضافة إلى الحمامات والاصطبلات ، أما الأراضي خارج القصور فإنها مخصصة لصيد الطرائد ويطلق عليها الجنائن Paradis .

مواد البناء

كانت المواد التي تستعمل في البناء اللبن أي الطين ، بعد أن تجفف في الشمس والطابوق بالنسبة للأسس ومرتكزات البناء ، وقد ظهرت عمارة جديدة في مدينة سامراء هي بناء الأقواس والأواوين والصالات التي تعلوها القباب المزينة .

ومن القصور المهمة في سامراء قصر البالكوراة Balkuwara الذي بناه الخليفة المتوكل Mutawakil في الفترة (٨٤٧-٨٦١) . وهذا القصر يبين لنا ما كانت عليه ضخامة قصور العباسيين في تلك الفترة في سامراء . فقد أنشئ القصر على مساحة (٥٧٥ × ٤٦٠) متراً على ضفاف دجلة ، وتتألف واجهته من ثلاثة أقواس ضخمة تؤدي إلى ثلاث صالات متداخلة مخصصة للاستقبال وأواوين الشرف .

خلف هذه الأواوين ، أجنحة الحريم والأجنحة الخاصة للمقرات والمكاتب والضيوف ومقرات الحرس إلخ . وفي الجانب الشرقي من القصر جنائن خضراء تضم أجنحة للترف واللهو ، تخترقها أنهار ومساقط مياه ، تلحق بها ساحة للبولو ومنشآت وأبنية أخرى وحدائق ، وكل هذه القصور أنشئت خلال فترة أشهر بسبب مواد البناء البسيطة اللبن ، وهذا هو ما يفسر تلاشيها بسرعة . . لأن قطعة اللبن سهلة القص والقطع والحفر وكأنها قطعة جبن ، ولكن المادة التي تغطي اللبن هي الجص الذي كان يستعمل بكثرة لإكساء الجدران لحد النصف أي «توزيرة» ، والأبواب كانت تزين بالمسامير الفضية والذهبية أو ألواح فضية أو نحاسية ، أما السقوف فكانت تغلف بالخشب وخاصة الصاج .

وكان يستعمل أيضاً رسوم الخزف باللون الأزرق أو السمائي ، وفي بعض الأحيان حتى على الجدران التي كانت تغلف في الغالب بالبلاط الخزفي الملون تارة والمرمر المنحوت والموزائيك المستلهم من الفن الإغريقي والأموي تارة أخرى .

أما الشبابيك فكانت تحتوي على قطع زجاجية ملونة تشبه تلك التي تستعمل في البيوت القديمة في اليمن ، والأرض كانت تبلط بالمرمر .

صالات العرش وأجنحة الخليفة كانت تفرش بسجاد فاخر من نوع خاص جداً ، والفرش من حرير مطرز بالذهب . وكان يوضع في الزوايا المحفورة في الجدران الأشياء الثمينة ، كالتحف والمصوغات والكؤوس الذهبية والبلورية والخزفية .

الطابع الفني العربي الإسلامي لم يكن ذا تأثير محسوس في سامراء ، بل كان التأثير الفارسي طاغياً على المعمار ، فالرسوم واللوحات كلها كانت لإبراز هيبة

السلطان ، وباقي الشخصيات ترمز إلى حرس الخليفة ، الذين هم من الأتراك ، وإلى الراقصات ولوحات عن الألعاب الشرقية والعيون ذات اللون اللوزي ، وخصلات الشعر السارحة على الخدين . . الخ .

وهذه الأنماط نفسها تنعكس على مراسيم الصيد عند الخليفة ، التي يشارك فيها النساء والفرسان والصيادون ، وعند اصطياد الفرائس يوضع عليها الوشاح الملكي الساساني لبيان عائديتها إلى السلطة الإمبريالية ، فالطريدة أو كلاب الصيد تدخل ضمن هذه الإجراءات . .

وقد بينت أجزاء اللوحات الفنية التي عثر عليها في سامراء هذه الشخصيات نفسها التي هي على شكل نساء واثبات ، وقد اعتمدت هذه الطريقة كمدرسة رسم خاصة ، حيث وجدت فيما بعد في مصر في الفترة نفسها سواء على صعيد الفن أو الأدب .

وعلى كل حال ، فإن آسيا أخذت أيضاً بعض التراث من روما وأثينا ، ولكن ليس بالدرجة التي تزيل فن المدرسة العباسية ، ومع ذلك فالأسلوب لم يتوغل لا في سوريا ولا عند الأمويين في إسبانيا .

بل كان الأمويون يستخدمون الصناع والحرفيين السوريين في البناء والزخرفة في قصورهم ومساجدهم . وعلى مدى قرون عديدة ، كان الفن يتذبذب بين هذين التيارين إلى أن استطاعت كل منطقة تأكيد هويتها وطابعها الفني ، أي إيران ووادي الرافدين ومصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ومصر والمغرب . .

السيراميك

بلغ فن السيراميك في سامراء شأناً كبيراً من الكمال ، فقد كان يصل بغداد أحسن السيراميك الصيني عن طريق خراسان في عهد هارون الرشيد . . .

والقسم الآخر كان يصل عن طريق البحر ، أما الخزف في وادي الرافدين الذي هو وريث تقاليد عريقة ، فقد كان يقلد نقوش السيراميك الصيني المرسومة على الأواني والصحون .

وقد أخذت ورش بغداد الأكثر شهرة تنتج الخزف المحفور أو المنقوش وطلاء الصحون ، بحيث يكون قريباً من السيراميك الصيني .

وقد تطور فن السيراميك في وادي الرافدين عند إنتاج سيراميك ذي انعكاس

معدني .

وفي الواقع ، فإن إنتاج أوكسيد المعدن من خلال الصهر والطلاء به كان يعكس ألواناً مختلفة من الأحمر والأصفر والأخضر والحنطي ، وأثبتت كفاءة فنية عالية لم تتجاوزها أية صناعة أخرى خلال القرن التاسع . وزخرفتها على الأغلب مستوحاة من الزخرفة الساسانية أو العباسية ممزوجة بالخط الكوفي ، وقد صنع منها فيما بعد أي بعد ٨٦٠-٨٧٠ .

هذه القطع من الصحون والكؤوس والعُدد الأخرى كانت تستعمل في قصر الخليفة أو عند النبلاء ، وكانت لغرض البيع كذلك . و يمكن مشاهدتها في القيروان Kairouan وفي جامع سيدي عقبة Sidi Oqba ، وكانت تلاحظ على جدران الممرات . وكان هذا الطلاء يرسل إلى بغداد عام ٨٦٢ ، وقد ساعدت التنقيبات في سامراء على اكتشاف أجزاء كثيرة من هذا الخزف العجيب .

الخليفة والصيد

كان الخلفاء العباسيون من كبار الصيادين ، فالخليفة المهدي لقي حتفه بسبب الصيد عندما كان يلاحق غزالة . ويروي المؤرخون الكثير من القصص الغريبة عن مثل هذه الحوادث لدى الخلفاء ، فالخليفة هارون الرشيد زادت سفرات صيده عندما أقام في الرقة ، حيث الطرائد صغيرة وكبيرة من الأسود والنمور والنعام والثيران الوحشية .

وكانت بعثة الصيد المرافقة للخليفة تضم المئات وبعض الأحيان آلاف الأشخاص ، والحيوانات من الخيول والجمال والجوارح . . الخ .

وعند الاستعداد لسفرة صيد ، فإن رئيس البعثة الإميرالية يعطي الأوامر لرؤساء الساسة والأدلاء والرماة وحملة السهام ، والصقور وحيوانات الصيد . كما يعطي الأمر للحرس الأميريالي المرافق للخليفة وعائلته ، وكذلك إلى الاطباء المرافقين للعائلة ، بالإضافة إلى عدد من الفلكيين والحجاب والمرتلين والطباخين . . إلخ ، كما تستعد حيوانات النقل لتحمل على ظهورها كميات كبيرة من الأثاث والأمتعة ، كالخيام والسجاد ومختلف أنواع الأواني والصحون ؛ ذلك لأن الترف والإقامة لا يختلف بالنسبة للخليفة في الصحراء أو في قصره في المدينة .

وعند وصول الخليفة يحيط به الأدلاء الذين كانوا قد سبقوه بالوصول ، فتقرع

الطبول ويتقدم أعضاء البعثة لأداء التحية .

وبعد مراسيم الاستقبال ، تطلق حيوانات الصيد ، ولكل منها اختصاص في أنواع الطرائد ، فالصقور مكلفة بصيد دجاج الماء ، والطيور والبلابل ، والباز ضد الأرانب ، والفهود والكلاب ضد الغزلان والثيران . .

وعندما تتعب الفريسة وينال منها الجهد ، يتقدم الخليفة والأمراء لصيدها . وعند العودة إلى المخيم تسلم الطريدة إلى الخدم لتقديمها مشوية إلى الخليفة ومدعويه ، أما بالنسبة لصيد الأسود ، هذه الهواية التي يفضلها الرشيد ، فقد كان يستعمل في هذه الحملات خيول خاصة . فالصياد الخيال يطارد الأسد إلى أن تنهك قواه ، عندئذ يطعنه برمح أو سيف ثم توجه عليه النبال .

طلعات وسفرات الصيد هذه تلزم الكثير من العمل للعديد من الأشخاص ، موظفين ومستخدمين وحرفيين ، وهؤلاء منهمكون بصورة مستمرة في رعاية الحيوانات ومعداتها وخدمتها ، واستيراد حيوانات الصيد وشراء مستلزماتها ، واختيار الأدلاء والرماة . . إلخ . واستمرت هذه الهواية عند الخلفاء العباسيين إلى أن جاء المتوكل Mutawakil بعد حوالي نصف قرن من حكم هارون ، وقد بلغت رواتب موظفي قسم الصيد في عهد المتوكل ٥٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة ، عدا مخصصات شراء العدد والتعويضات عن تخريب مزارع الفلاحين عند الصيد ، التي كانت في زمن هارون عالية جداً .

إن شراء الحيوانات التي تستخدم في الصيد وإدامتها تكلف مبالغ طائلة ، مع أن قسماً من هذه الحيوانات تقدم كهدية للخليفة من قبل السلاطين والأمراء ، فقد تسلم هارون الرشيد من إمبراطور بيزنطة اثني عشر صقراً وأربعة كلاب صيد . وفي بعض الأحيان كانت هذه الحيوانات تقدم بدل الضرائب ، فقد كانت أرمينيا تدفع سنوياً (٣٠) صقراً كضريبة . طيور الصيد كانت تكلف باهظاً ، كالصقور والنسور والطيور المهاجرة والطيور النادرة ، كالباز مثلاً ، وقسم منها كان يقدم كهدايا من تركستان واليونان والهند ، وكان يستورد كذلك طيور صيد أخرى وخاصة ذات الريش المتداخل .

استعمال الكلاب كان واسعاً ، وأحسنها كانت تلك التي تستورد من اليمن باهظة الثمن . وهناك حيوانات أخرى تستعمل في الصيد ، من بينها ابن عرس الذي يخرج ابن آوى من مخبئه ، والفهد الذي يحتل مكانه متميزة ، ولا يستطيع أحد

امتلاكه أو شراءه إلا الأغنياء جداً ، لأن من الصعوبة اصطياده أو أسره ، كما أن ترويضه وتربيته طويلة وصعبة ويلزمهما عناية خاصة . وكان الخلفاء في مواكبهم يقودونها من أرسانها ، كما أن الشعراء كانوا يغنون الفهود في البلاط ، ومن بينهم الشاعر الكبير أبو نؤاس .

هارون الرشيد وشارلمان

لايوجد هناك في الوقت الحاضر أي مصدر عربي يبين العلاقة بين الرشيد وشارلمان ، إذ إن كل روايات الطبري والمسعودي تتحدث عن حكم الخلفاء ولا تنقل كلمة واحدة عن هذه العلاقة ، الأمر الذي أدى بالمؤرخين ، إلى إنكار وجود هذه العلاقة .

ولصمت المؤرخين الشرقيين هذا عدة أسباب : إن علاقات الخليفة مع الحاكم الأجنبي لا تتصف بأية خصوصية ، حيث إن هارون والذين جاؤوا بعده كانوا يهتمون بعلاقاتهم مع أمراء الشرق كالهند وغيرها . والمؤرخون العرب لم يتكلموا عنها الا عند المناسبات ، كاستقبال إمبراطور بيزنطة ٩١٧م ، إضافة إلى ذلك فإن المؤرخين الشرقيين لا يتعاطفون مع المسيحيين فكيف يتكلمون عن علاقات أمير المؤمنين مع الكافر الذي يمر سفراؤه مر الكرام دون أن يصلوا إلى الرقة Raqqa .

وحتى عصر النهضة ، كان شارلمان من أكبر مشاهير الحجاج إلى فلسطين ، ثم أخذ الكلام يدور عن زيارة الخليفة للأماكن المقدسة للإمبراطور .

إن رواية الراهب سانت كال Saint-Gall تعتبر المصدر الأهم والأوثق من ايجنهارد Eginhard ، حتى إنه يذكر (ان مدام جونليس في روايتها فرسان السين Les chevaliers du sygne) أن هارون قد أرسل إلى شارلمان جهاز أورك نقله مؤرخ في العلوم الموسيقية ، وهذه الأسطورة كانت تروج حتى القرن التاسع عشر .

كما أن بوك فيل Pauque ville في «مدونات تاريخية» أكد على وجود علاقات بين الامبراطورين ، والغريب أن الروسي بارتولد Parathold في عام ١٩١٢ استبعد هذه الفكرة ، معللاً ذلك بغياب المصادر العربية وعدم ذكر الجغرافيين العرب لوجود مؤسسة مسيحية في القدس .

وفي الفترة نفسها تقريباً تقبل الروسي فاسيليف A. Vasiliev المختص بالبيزنطيات رواية الراهب سانت كال في جزء كبير منها ، وفي عام ١٩١٩ أكد لـ

(بريير Bréhier في المؤتمر الفرنسي بسوريا بأن هارون الرشيد كان قد منح لشارلمان حماية حقيقية على فلسطين «هو نوع من امتياز الحماية للمسيحيين لم يتمتع به أي إمبراطور بيزنطي» ، عدا القرن الحادي عشر «في هذه الفترة ما بعد الحرب ، طلبت فرنسا وصاية على الشرق ، وقد أطلق عليه رانسيمان «Runciman» حمية الغرب الوطنية» ، ثم تخلى بريير Bréhier عن أطروحته هذه بعد عدة سنوات في كتابه (شـــارلمان وفلسطين ١٩٢٨ ، Charlemagne et La Palestine) ، في حين أيد Ejafannsey في كتابه (The Alled frankish Protectora in Palestine) أطروحة بارتولد .. أما الأميركي F. W. Puckler في كتابه (Harrun Al Rashid and Charles the Great) يقول إن شارلمان كان وكيل هارون في فلسطين وواليه في القدس .

والمصطلح محور أكس لاشبل – بغداد Axe Aix-La chapelle-Bagdad – المستعمل من قبل المؤرخ J-calmette يحمل طابع طرح بريير Bréhier خلال فترة ما بين الحربين ، محور روما–برلين Rome-Berlin .

وقد ذهب أبعد من ذلك ، عندما أكد بأن هذا المحور قد شكل أحد العناصر الأساسية في نجاح حكم شارلمان «العائلة الكيارولينية» في قضية الحدود مع إسبانيا ، واعتراف الإمبراطورية البيزنطية بإمبراطورية شارلمان . وقد ذكر ذلك كلانيكلاز Kleinklaiez في كتابه «أسطورة حماية شارلمان للأراضي المقدسة» (La legende du Protecterat dela charlemagne sur la terre sainte)

والذي من دون شك أقرب إلى الحقيقة هو أن الهدية التي استلمها شارلمان charlemagneكانت هدية قبر المسيح نفسه ، للتأكيد على تطابق وجهات النظر بين هارون وشارلمان . يقبل هذه الفكرة ، ولو أنها تجدد هدية هارون لكنيسة سانت ماري Saint Marie وتمنح التسهيلات للحجاج .

طعام الرشيد

«أعددتُ لخدمتكم خمسة أطباق من كل ما لذ وطاب ، الباذنجان والقرع الفارسي المطيب بالليمون وكبة الحنطة واللحم المفروم والرز مع الطماطة ، مع قطع من لحم الخروف المتبل بالبصل ، وأعددت كذلك عشر دجاجات مشوية وخروفاً مشوياً وصحنين كبيرين ، أحدهما كنافة والآخر حلوى مطعمة بالجبن الحلو والعسل . وهناك الفاكهة من كل نوع : خيار وبطيخ وتفاح وليمون وتمر طازج وفواكه أخرى ، أما العطور

فهي منوعه من المسك والعنبر والفاركيل ، ولم أنس قناني ماء الورد والعطور المطيبة» الليلة (٢٩) من ليالي ألف ليلة وليلة .

«وكان هناك أربعة صحون عميقة ، يحتوي الأدنى منها على محلبية معطرة بالبرتقال ، ومغطاة بمسحوق الفستق ، والثاني يحتوي على العنب الطازج المغمس بماء الورد والثالث ، وما أدراك ما الثالث ، بقلاوة مصنوعة برقة ودقة وذوق ، والرابع مليء بالكنافة المغمسة بالعسل المصفى ، وتزينها أطباق التين الناضج اللذيذ ، والليمون والعنب والموز ، وكل هذه الأنواع مزينة بالأزهار من كل نوع وبالعطور من الياسمين والنرجس وماء الورد» . (الليلة ١١٦)

***

وبهذه الوجبة الشهية من كل مالذ وطاب ، ينتهي هذا الكتاب الذي قدم لنا صورة واضحة عن أهم فترة تاريخية في العراق وتأثيرها على العالم في شرقه وغربه ، كان الرشيد فيها بطل الأحداث في صباه وفي شبابه ، في حكمته وفي مجونه ، ولعل التحولات التي طرأت إبان حكمه هي ليست غريبة على الشخصية الشرقية ، التي تتأثر بالعواطف والتي تنعكس على سلوكها وسياستها ، وما أشبه اليوم بالبارحة ، فالقاسم المشترك الأعظم الذي يتحكم في العلاقات بين الدول والأفراد في كل زمان ومكان هي المصلحة . أرجو أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا الكتاب .

ومن الله التوفيق . . .

المترجم

فهرس المصادر والمؤلفات

١ . الطبري- الحوليات- ترجم الى الفرنسية بقلم زوتنبرك- باريس- عام ١٨٦٧- ١٨٧٤ .

٢ . اليعقوبي- البلدان (كتاب البلدان) تُرجم الى اللغة الفرنسية بقلم G. Weit القاهرة عام ١٩٣٧ .

٣ . المسعودي- مروج الذهب - تُرجم الى اللغة الفرنسية بقلم كل من باربيه دومينارد وبافيه دو كورتيه- باريس عام ١٨٦١- ١٨٧٧ .

٤ . البلداهوري- أصول الدولة الاسلامية (فتوح البلدان) تُرجم الى اللغة الانكليزية بقلم هيتي (P. K. (Hitti . لندن . عام ١٩١٦ .

٥ . المكتبة الجغرافية العربية .

٦ . موسوعة الإسلام- الجزء الاول- عام ١٩١٣- ١٩٣٨ .

٧ . موسوعة الإسلام- الجزء الثاني عام ١٩٦٠ .

٨ . ميخائيل (A. Miquel) الإسلام وحضارته- باريس- ١٩٦٨ .

٩ . التاريخ الشامل للعلوم- الترجمة الاولى- باريس- عام ١٩٦٦ .

١٠ . كاين (C. Cahen) أصول الإسلام في مطلع قيام الإمبراطورية العثمانية- باريس عام ١٩٧٠ .

١١ . مانتران (R. Mantran) التوسع الإسلامي- باريس عام ١٩٦٨ .

١٢ . ليفي- بروفنسال (E. Levis- Provencal) تاريخ إسبانيا الإسلامية- باريس- عام ١٩٤٤-١٩٥٣ .

١٣ . سوردل (J, D Sourdel) حضارة الإسلام التقليدي- باريس عام ١٩٦٨ .

١٤ . جامعة كمبردج- تاريخ الإسلام .

١٥ . جامعة كمبردج- تاريخ إيران .

١٦ . القرآن- ترجم بقلم . بلاشير .

١٧ . الف ليلة وليلة- نشر/ دار بولاق- تُرجم بقلم الدكتور ماردروس باريس- عام ١٨٩٩-١٩٠٤ .

١٨ . مصور جغرافي تاريخي للإسلام- ليبيد- عام ١٩٨١ .

١٩ . كاين (Cahen) - مقدمة تاريخ العالم الإسلامي المتعلق بالقرون الوسطى

باريس- عام ١٩٨٢ .
٢٠ . آبوت (N) «ملكتا بغداد» - شيكاغو- عام ١٩٤٦ .
٢١ . أبل (A) «أسواق بغداد» ، تقرير للمجتمع البلجيكي عن الدراسات الجغرافية عام ١٩٣٩ .
٢٢ . أرديلر (H) «بيزنطة والبحر» ، باريس عام ١٩٦٦ .
٢٣ . «اسيا الصغرى والفتوحات العربية» ، مجلة تاريخية ، عام ١٩٦٢ .
٢٤ . إحسان (M.A) «الحياة الاجتماعية في اثناء العصر العباسي» ، لندن عام ١٩٧٨ .
٢٥ . أرنولد (.W.T) «الخلافة الإسلامية» ، اوكسفورد ، عام ١٩٧٤ .
٢٦ . أشتو (E) «دراسة حول التغذية لمختلف الطبقات الاجتماعية في الشرق في عهد القرون الوسطى ، حوليات E. S. C» عام ١٩٦٠ .
٢٧ . «تاريخ المكافآت والرواتب في الشرق في عهد العصور الوسطى» ، باريس ، عام ١٩٦٩ .
٢٨ . «النزوح من العراق باتجاه بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط» ، باريسز ، حوليات E.S.C ، عام ١٩٧٢ .
٢٩ . أوديسير (G) ، «سيرة حياة ووفاة هارون الرشيد» ، باريس ، عام ١٩٣٠ .
٣٠ . عزيز عماد تاريخ سيسلي (Sicily) ، ادنبرك ، عام ١٩٧٥ .
٣١ . البدوي (A) ، «النقل من الفلسفة الإغريقية الى المجتمع العربي» ، باريس عام ١٩٦٨ .
٣٢ . بغداد ، مجلد جامع صادر بمناسبة مرور ١٢٠٠ عام على إنشائها . ليد (Leyde) ، عام ١٩٦٢ .
٣٣ . حلات مينارد (Meynarde) (M) «ابراهيم ، ابن المهدي» صحيفة آسيوية ، عام ١٨٦٩ .
٣٤ . بارثولد (.V.V) Barthold ، «تركستان تحت الغزو المنغولي» ، لندن عام ١٩٣٩ .
٣٥ . «اكتشاف قارة اسيا» ، باريس عام ١٩٤٧ .
٣٦ . أربع دراسات في تاريخ آسيا الوسطى ، ليد (Leyde) ، عام ١٩٦٢ .
٣٧ . بيترمان (H.B (Biterman «هارون الرشيد يهدي الة موسيقية الى شارلمان» سبيكولوم (Speculum) ، عام ١٩٢٩ .

٣٨ . بوسورث (C. E) «السلالات الإسلامية الحاكمة» ، ادنبرك ، عام ١٩٦٧ .
٣٩ . بيروت ، عام ١٩٧٣ .
٤٠ . بويسون (Bouisson) ، «سر شهرزاد» ، باريس ، عام ١٩٦١ .
٤١ . بولنواس (Boulnois) (L) ، «طريق الحرير» ، باريس ، عام ١٩٦٣ .
٤٢ . بوسكوت (Bousquet) (G.H) ، «الآداب الجنسية للإسلام» .
٤٣ . براير (Brehier) (.L) ، «نشوء بيزنطة واندثارها» ، باريس عام ١٩٤٨ .
٤٤ . «المؤسسات البيزنطية» ، باريس ، عام ١٩٤٩ .
٤٥ . «الحضارة البيزنطينية» ، باريس ، عام ١٩٥٠ .
٤٦ . بروكس (Brooks) E) «البيزنطيون والعرب في صدر الاسلام» ، نظرة عامة انكليزية تاريخية ، عام ١٩٠٠ .
٤٧ . بوكلير (Buckler) (F.W) «العلاقات الدبلوماسية بين العرب في صدر الاسلام والأسر» ، صحيفة المجتمع الأمريكي الشرقي ، عام ١٩٢٧ .
٤٨ . «هارون الرشيد وشارلز العظيم» ، كمبردج ، ١٩٣١ .
٤٩ . بولييس ((Bulliett (R. W)) «الجمل وعجلة الشرق الأوسط» ، حوليات E.S.C.عام ١٩٦٩ .
٥٠ . كاين (CL) (Cahen) ، «امثولات من السيرة الإسلامية» ، باريس عام ١٩٥٧-١٩٥٨ .
٥١ . «المسلمون في عهد العصور الوسطى» ، دمشق ، عام ١٩٧٧ .
٥٢ . كانارد (M) «بعض أوجه العلاقات العربية البيزنطينية» ، ميلانج ليفي ديلافيتا (Mélange Levi della vita) ، روما ، عام ١٩٥٦ .
٥٣ . «الدولة البيزنطينية والمسلمون في الشرق الأدنى» ، فاريوم ربرنت (Variorum Reprints) ، عام ١٩٧٣ .
٥٤ . «بيزنطة والعالم الإسلامي» ، كمبردج ، تاريخ العصور الوسطى ، القرن السادس .
٥٥ . شيجن (Chejine) (A.G)) «الفالد الرابي ، دبلوماسية عهد صدر الإسلام» الثقافة الإسلامية ، عام ١٩٦٢ .
٥٦ . «الخادمة الوصيفة في مطلع صدر الإسلام» ، صحيفة المجتمع الأمريكي .

التعريف بالكتاب

هارون الرشيد رمز الشرق الساحر، وخليفة عصر ألف ليلة وليلة، الذي أمضى حياته في ترف قصور بغداد وسط نسائه وجواريه وموسيقييه وعلمائه، ماهو إلا شخصية أسطورية ولدت من تلك الجارية اليمانية التي حملته إلى السلطة بعد أن اغتالت ابنها البكر. حكم الرشيد ربع قرن وكان أشهر خلفاء بني العباس قاطبةً.

لقد حرص المؤرخون العرب على تقديم أحسن صورة لهارون الرشيد من خلال متابعة أهم فترات حكمه، وإذا ما كان الغرب يعرف الرشيد من خلال الهدايا التي أرسلها إلى شارلمان، وخاصة الفيل المشهور «أبو العباس»، فإنه قبل كل شيء مقاتل شنَّ الحرب ضد البيزنطيين، كما أنه اضطر إلى مجابهة العديد من الانتفاضات الدينية والسياسية التي هزّت إمبراطوريته المترامية الأطراف، ولم يتردد في القضاء على البرامكة، تلك العائلة المتنفذة التي كادت تقيم دولة داخل دولة، التي لم يتحمل هيمنتها وثرائها.

إن الرشيد، المدافع عن المثقفين، قد أعطى أيضاً زخماً قوياً للإشعاع الثقافي في بغداد التي أصبحت في ذلك الوقت أكبر مدن العالم. لقد عرفت العاصمة العباسية تطوراً اقتصادياً لامثيل له، كما أنَ الرحّالة والتجار حملوا اسم الخليفة الى أقصى بقاع العالم...

المؤلف في سطور:

آندريه كلو، مؤرخ وكاتب أمضى سنين عديدة في الدول الإسلامية في الشرقين الأدنى والأوسط، ونشر في عام ١٩٨٣ كتابه «سليمان القانوني».

المترجم في سطور:

د. صادق عبدالمطلب عزيز الموسوي، دكتوراه في التاريخ المعاصر من السوربون في باريس، وأستاذ الترجمة في كلية اللغات في جامعة بغداد، ورئيس قسم اللغة الفرنسية في كلية اللغات، وله العديد من البحوث في التاريخ المعاصر وفي علوم الترجمة.

الفهرست

المقدمة 7

الفصل الأول: فرسان الله 9

الدولة العباسية 11

العباسيون يختارون عاصمتهم في العراق 12

أسباب اختيار بغداد عاصمة للخلافة العباسية 12

بغداد مدينة السلام 13

قصر المنصور 13

وفاة المنصور 15

الخليفة المهدي كرم وتسامح 15

الخيزران تفرض وجودها 16

بداية التدخل الأجنبي في شؤون الدولة العباسية 17

الخليفة الهادي 19

الفصل الثاني: هارون الرشيد .... شباب وتألق 25

طفولة وحياة مترفة 27

وفاة الخيزران 31

قصر أمير المؤمنين 32

مراسم استقبال السفراء والمبعوثين 35

في حضرة الخليفة 37

الحريم 38

مراسم الاستقبال 42

الحاشية والمقربون 44

الفصل الثالث: الظلال الأولى على روح التسامح 53

ثمن السخاء 55

الاضطرابات الاجتماعية والدينية 59
الرشيد يمارس سلطاته 63
الرقة 64

الفصل الرابع: السنوات العجاف 69
تعريض أمن وحدة الإمبراطورية 71
خطورة مشكلة الخلافة 81
مأساة البرامكة 86

الفصل الخامس: هارون الرشيد وعلاقاته الدولية 99
هارون الرشيد وشارلمان 104
شارلمان يرسل أول بعثة دبلوماسية إلى هارون الرشيد 107
تشكيل البعثة الدبلوماسية إلى بغداد 108
هدية الرشيد الغريبة إلى ملك الإفرنج 109
شارلمان يستقبل مبعوثي الخليفة وابن الأغلب 111
بعثة دبلوماسية ثانية 112
هارون الرشيد في حرب مع إمبراطور بيزنطة 124
تحصينات وغزوات 128
غضب الخليفة 131
الرشيد على رأس حملة جديدة 135
النظام العسكري في جيش الرشيد 135
تصنيف السلاح في المعركة 136
خطة الهجوم 136
حصار وسقوط مدينة هرقلة 138

الفصل السادس: الوفاة في خراسان 143
انتهاك وصايا هارون الرشيد 152
رجال المقاومة في بغداد 155

الفصل السابع: بغداد	161
أغنى مدينة في العالم	163
الاختناق السكاني في بغداد	166
مجتمع متكافىء ولكن طبقي	168
العبيد	169
الشعب	171
البرجوازية	172
تكافؤ الأمراء	174
رجال الدين والقضاة	175
العيش في بغداد	177
أثاث البيوت	179
الحمامات	180
اللباس	182
الأطعمة	185
آداب المائدة	188
الأعياد	189
الألعاب	192
الفصل الثامن: المعجزة الاقتصادية	195
ازدياد سكان الريف	197
زراعة الكروم	199
الحرير	201
صناعة النسيج	204
الصناعات الأخرى	209
النمو الكبير للحركة التجارية	212
البصرة	214
ترابط اليهود	216
الطرق المهمة في الإمبراطورية وفي العالم	217

إلى الصين براً 221
البضائع المتبادلة 222

الفصل التاسع: التعطش للمعرفة 225
ميراث القدماء 227
العصر العربي للعلوم العربية 229
الثقافة العربية في الغرب 234
الشعر في زمن الرشيد 236
ولادة النثر أو ظهور النثر 240

الفصل العاشر: من الرشيد إلى سليمان القانوني 243
البويهيون 247
الحركات التبشيرية 249
سامراء 251
مواد البناء 252
السيراميك 253
الخليفة والصيد 254
هارون الرشيد وشارلمان 256
طعام الرشيد 257
فهرست المصادر والمؤلفات 259

HAROUN AL RACHID ET LE TEMPS DES MILLE ET UNE NUITS



أندريه كلو، مؤلف هذا الكتاب، مؤرخ فرنسي مشهور أمضى سنين طويلة في البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط. وقد نشر في عام 1983 كتابه عن سليمان القانوني. أما سبب اختياره، هذه المرة، الرشيد، موضوعاً لكتابه، فإنه يبينه في السطور التالية: " قد يسمح لي المؤرخون العرب أن أنقل الصورة الحقيقية عن هارون الرشيد، ليس فقط عن الترف والجواري والموسيقى وإنما محاولة معرفة المبادئ والخطوط العريضة التي خطها وانتهجها الرشيد في مراحل سياسته. وإذا كان الغرب لا يعرف عن الرشيد سوى الهدايا التي أرسلها إلى شارلمان، وخاصة الفيل المشهور، أبو العباس، فإن الرشيد كان قبل كل شيء مقاتلاً، شن الحرب ضد البيزنطيين وكان عليه أن يجابه، ولعدة مرات، الحركات الدينية التي هزت إمبراطوريته المترامية الأطراف. ولم يتردد الرشيد في أن ينزل العقاب على البرامكة، العائلة المتنفذة التي كادت أن تخلق دولة داخل دولة، ولم يكن الرشيد يطيق تحمل نفوذها وثروتها في أواخر أيامها. كما أن الرشيد المدافع عن المثقفين قد أطلق العنان للازدهار الثقافي في بغداد التي كانت آنذاك أكبر مدن العالم، وقد عرفت العاصمة العباسية تقدماً اقتصادياً لم يسبق له مثيل. وقد ذاع صيته في كل أرجاء المعمورة ليس من خلال المؤرخين والكتاب فقط وإنما من خلال الرحالة والتجار".

هذه هي الأسباب التي دفعت المؤلف لإعداد هذا الكتاب. أما الأسباب التي دفعت المترجم -كاتب هذه السطور- لاختيار هذا الكتاب للترجمة فهو أنني من خلال قراءتي له وجدت فيه، فعلا، معلومات جديدة عن هذا القائد العربي خاصة في تعامله مع القضايا المصيرية الحساسة، فقد كان حازماً أبيّ النفس بالإضافة إلى الكرم والشجاعة، وليس الانغماس في الترف والمجون فقط كما يزعم بعض الكتّاب. وقد وجدت فيه معلومات تفيد القارئ العربي وتجعله يفخر بتاريخه وبقادته خاصة في هذه الفترة العصيبة التي تمر بها الأمة العربية، وخاصة بلدي ال
الذي يعاني من الظلم والعدوان.

ISBN:9953-36-691-8



